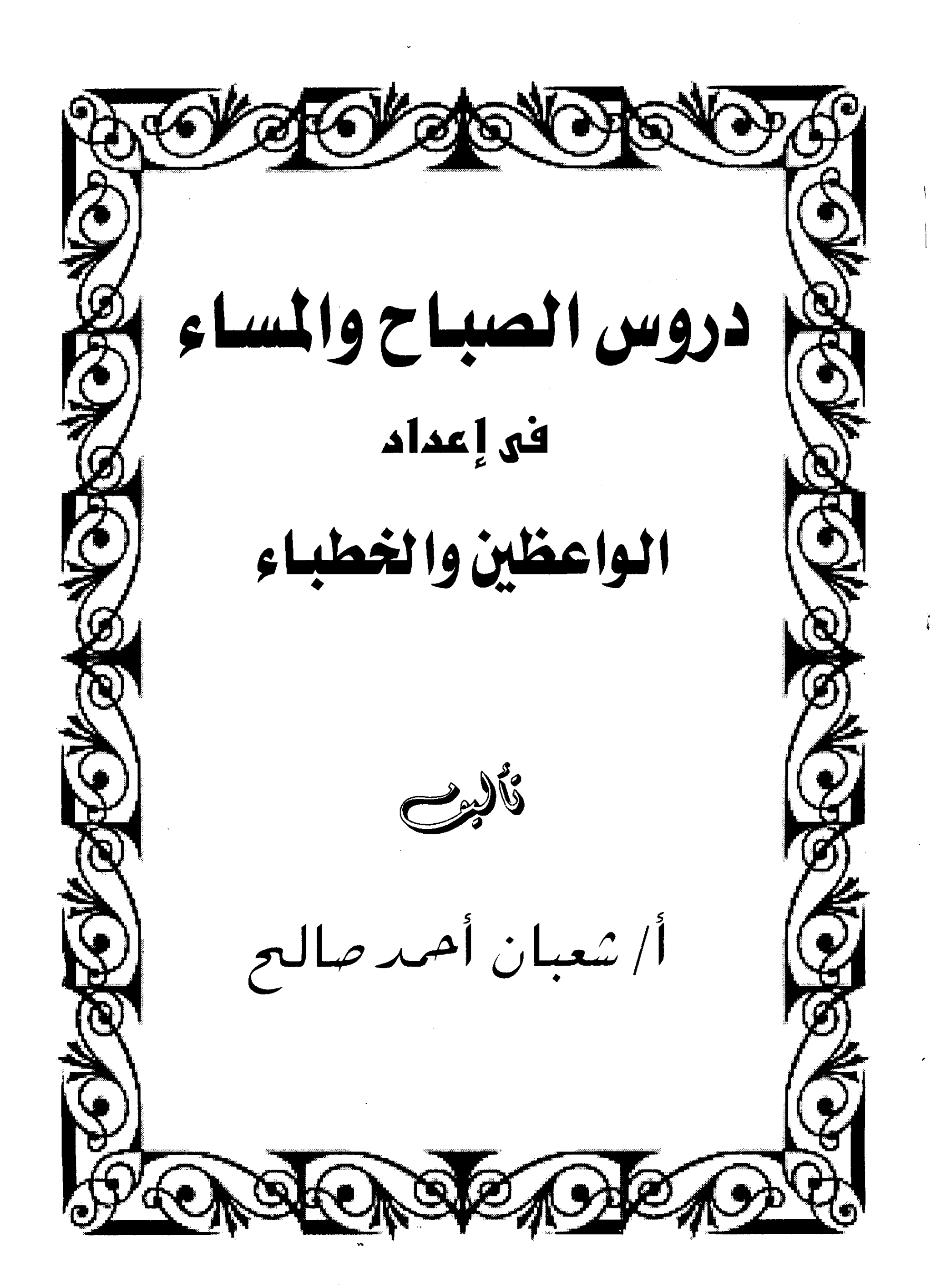


دروس الصباح والمساء

في إعداد

الواعظين والخطباء

تأليف

أ/ شعبان أحمد صالح

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله نبى الرحمة ورسول الأمة والذى بين لهم طريق الحق ليتبعوه ، وحدد لهم طريق الباطل ليجتنبوه ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه وسلك طريقه واتبع سنته إلى يوم الدين .

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى سيدنا محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار .

وبعد . .

فهذا كتاب فى الوعظ والخطابة جعله الله تعالى عونا لكل داعى إلى الله ودينه الحنيف ، ويكون بإذنه تعالى سراجا يضىء للواعظين طريقهم إلى قلوب العباد ؛ حيث فيه معظم أمور الدين وكيفية الدعوة إلى الله وإرشاد الناس إلى الطريق القويم فى ظل كتاب الله عز وجل وسنة النبى الكريم سيدنا محمد ﷺ .

والواعظ لابد أن يبدأ بنفسه أولا ويتعلم ، ويكون صادقا مع الله ومع نفسه ؛ وحيث انتهى الإنسان من تعليم نفسه وضبط النقص الإيمانى الذى فيه يبدأ بعد ذلك بتكميل الناقصين قال تعالى: **﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾** وقال تعالى: **﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾** .

فاقرأ أخى المسلم هذا الكتاب وتعلم وزد علمك حتى تصل كلمة وعظك إلى قلوب الناس ، وتؤثر فيهم بقوة إيمانك وحسن كلامك وفيض ما تعلمته ، يجعله الله فى ميزان حسناتك ، ونسأل الله العفو والعافية وأسأله العلى القدير أن ينفعنا جميعا بما جاء فى هذا الكتاب إن ربى لسميع الدعاء وقريب مجيب وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . . .

الفقير إلى الله

شعبان أحمد صالح

معنى الدعوة

أرسل الله جل شأنه وعزت قدرته رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة وهو المثل الأعلى فى مكارم الأخلاق وجلائل الأعمال ، وكانت حياته ﷺ عامرة بالخير والهدى ، وبالأخلاق الحميدة التى كانت فى كل مظهر من مظاهر حياته مصداقا لقوله تعالى: **﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾** وتحقيقا لقوله عليه الصلاة والسلام: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» (رواه ابن ماجة) وقوله: «**أدبنى ربى فأحسن تأديبى**» (رواه العسكرى وهو ضعيف ولكنه صحيح المعنى) .

وزاد عدد المسلمين من طريقته ﷺ اللينة الحميدة المهذبة الرحيمة فى دعوة المسلمين ، وأخذوا يتكاثرون ، ولم يترك النبى ﷺ وسيلة من وسائل نشر الدعوة إلا سلكها ، وأمر أصحابه رضى الله عنهم بالتأسى به والسير على نهجه .

وكانت دعوته غير تبليغ القرآن واردة من طريق الخطابة فى المجامع والأسواق وهجرة أصحابه فى سبيل الله وإعلاء كلمته وإرسال كتبه ورسله إلى الملوك والأمراء ، بل كانت حياته عليه الصلاة والسلام يومئذ فى ذاتها دعوة قوية إلى دين الله وأساسا لهداية الناس إليه ، ذلك بأنهم رضوان الله عليهم فهموا سنة الرسول ﷺ وتأثروا بها وفهموا غايتها الشريفة ، فتحملوا الأمانة بجدارة وأدوها حق التأدية فكانوا فى رسالتهم العلمية مثل رسالتهم العملية فى تأدية الواجب على أكمل وجه ، فكانوا قدوة صالحة وأسوة حسنة وأئمة يهدون بأمر الله إلى دين الله .

والدعوة إلى الله حياة الأديان وما قام دين من الأديان ، ولا أنتشر مذهب من المذاهب ولا ثبت مبدأ من المبادئ إلا بالدعوة .

وللدعوة إلى الله عز وجل مراتب: أولها: دعوة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ودعوتهم راجحة على دعوة غيرهم من أربعة وجوه:

١ - أنهم جمعوا بين الدعوة بالحجة أولا والدعوة بالسيف ثانيا حماية لها ودفاعا عن الحق وأهله ، لا قهرا للناس على الدخول فى الدين ولا إرغاما لهم فما شرع الجهاد إلا لحماية الدعوة ومنع الاعتداء على المسلمين وتأمينهم على دينهم .

٢ - أنهم هم المبتدئون بهذه الدعوة ، والعلماء إنهم يبنون دعوتهم على دعوة الأنبياء والسابق بنشر الأمر الشريف أفضل .

٣ - أن نفوسهم أقوى قوة ، وأرواحهم أصفى جوهرا فكانت تأثيراتها فى إحياء القلوب الميتة قوية وكاملة .

٤ - أن نفوس الأنبياء حصل لها صفتان: الكمال فى الذات والتكميل للغير فكانت قوتهم على الدعوة إلى الله تعالى أقوى ، وكانت درجاتهم أفضل .

والمرتبة الثانية والثالثة: دعوة العلماء والملوك بطريق الخلافة عن أنبياء الله تعالى ، وذلك أن للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين صنفين:

العلم والقدرة ، والعلماء نواب الأنبياء فى العلم ، والملوك العادلون نواب الأنبياء فى القدرة ، العلم له الأرواح والقدرة لها الأجساد فالعلماء خلفاء الأنبياء فى عالم الأرواح والملوك خلفاء الأنبياء فى عالم الأجساد ، والعلماء خلفاء الله فى أرضه وخلفاء رسوله ﷺ ، وخلفاء كتابه فى تبليغ شرائعه وفى بيان هديه وسنته وعقائده وأحكامه وأخلاقه الكريمة وعظاته البالغة .

ولاشك أن مقصود الدعوة إلى الله تعالى نشر الهداية الإسلامية بتصحيح العقائد واستقامة الأعمال ومقاومة الإلحاد ودفع الشبهات عن الدين ، ولكى نصل إلى هذا الهدف السامى نتبع الخطوات الآتية:

١- بث الدعاة إلى الإسلام بقدر الطاقة .

٢- انتشار المرشدين والواعظين الناصحين بين المسلمين فى القرى والمدن .

٣- نشر كتب دينية تشتمل على أصول الإسلام وفروعه وآدابه وأسرار التشريع فيه .

٤- إلقاء الندوات والمحاضرات والخطب الدينية فى الأندية ، والمجتمعات العامة والمساجد ودور المناسبات .

٥- إنشاء صحف ومجلات تعنى بالشئون الإسلامية .

٦- العمل على إصلاح منهج الخطب ودروس الوعظ والإرشاد فى المساجد .

٧- السعى لدى حكومات البلاد الإسلامية ومدارسها لأجل العناية بالتعليم الدينى والتربية الإسلامية .

وللدعوة أنواع ثلاث الأول: دعوة الأمة المحمدية باقى الأمم الأخرى إلى الإسلام وأن يشاركوهم فيما هم عليه من الهدى ودين الحق ، والنوع الثانى: هو دعوة المسلمين بعضهم إلى بعض إلى الخير ، وتآمرهم فيما بينهم بالمعروف وتناهيهم عن المنكر ، والنوع الثالث: ما يكون بين الأفراد بعضهم مع بعض ، ويستوى فى ذلك الخاصة والعامة بالدلالة على الخير والترغيب فيه ، والنهى عن المنكر والشر والتحذير منهما ، فإذا رأى أحد المسلمين أخاه على منكر هو يعلمه تصدى لنصحه وإرشاده وتوضيح ما يقوله الدين الحنيف فى هذه الواقعة ، ويكون ذلك بالرفق واللين لا بالقوة والترهيب والغضب عليه بل بالرحمة وحسن المعاملة والقول الطيب معه .

****

الحاجة إلى الدعوة

خلق الله تبارك وتعالى الإنسان فى أحسن تقويم ، وركبه فى أحسن صورة وكرمه وعظمه على كثير من خلقه بالفكر والعقل حتى يميز به الحسن من القبيح والحق والباطل ولكن العقل البشرى وحده لا يستقل بإدراك المصالح الدنيوية فضلا عن الأخروية ، ولا يهتدى وحده إلى تميز الخير من الشر والمعروف من المنكر ، وليس من غرائز العقل الوقوف على حقائق الأمور فإنه وإن وصل إلى الغاية القصوى من الإدراك قد يميل العقل عن الحق إلى الباطل ، وعن الصلاح إلى الفساد ويخفى عليه وجه المصلحة ، ولما كانت العقول هكذا اشتدت حاجة أصحابها إلى الهداة المصلحين والواعظين الناصحين يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم ، ويدعونهم إلى ما فيه الخير والسعادة ، ويحذرونهم من السقوط فى مهاوى الشرور ، ويحررون العقول من رق الأهواء والشهوات ، ويطهرون النفوس من أدران النقائض والرذائل وما فيه المسلمون اليوم من سوء الحال إثر تفريط عظيم فى طاعة الله ورسوله بعد ما عظم التساهل والتواكل فى أمر الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكثر التهاون وإهمال التناصح ورد ما يتنازع فيه المسلمون إلى كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، حتى خوت القلوب من الحياء واحترام الدين ، فلم يبق له سلطان على النفوس ، بل صار كل إنسان أسير شهوته وهواه .

وذلك أوجب أن تقوم طائفة من المسلمين بوظيفة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حفظا للشريعة من أن يتجاوز حدودها المعتدون ، وصونا لأحكامها من أن يتعالى ذوو الشهوات قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ .

أوجب الله عز وجل على كل جماعة كثيرة من المسلمين كأهل بلدة عظيمة أن تقوم منهم جماعة قليلة ليتعلموا الدين ويجعلوا غاية سعيهم ومرمى غرضهم من العلم إرشاد قومهم ، وإسداء النصيحة لهم ، وقال تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى لا تدع التذكير والموعظة فإنها تؤثر فى الذين قدر الله تعالى إيمانهم ، أو الذين آمنوا بالفعل فإنها تزيدهم بصيرة فى الدين وقوة اليقين ولقد شدد بالإنكار على قوم أغفلوا هذه الفريضة وأهل الدين والعلم أهملوها فقال سبحانه وتعالى : ﴿ لُعِنَ

الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ * كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ فقذف الله عليهم اللعنة ومقته وغضبه على قوم أغفلوا هذه ، وكان سبب ذلك اللعن الذى طال أمده عصيانهم لله تعالى ، واعتداءهم المستمر ، وقد بين عز وجل ذلك العصيان ، وسبب استمرارهم على الخروج عن حدود الله بأنهم كانوا لا ينهى بعضهم بعضا عن منكر ما من المنكرات مهما اشتد قبحه .

والنهى عن المنكر حفاظ الدين وسياج الآداب والكمالات فإذا أهمل تجرأ الفساق على إظهار الفسوق والفجور بلا مبالاة ، وحتى صار العامة يرون المنكرات بأعينهم ويسمعونها بآذانهم تزول عنهم وحشتها وقبحها من نفوسهم ، ثم يتجرأ الكثيرون على ارتكابها - ذلك كان شأن القوم وصفتهم التى اعتادوها وأصروا عليها وذكرها الله للمؤمنين عبرة ، ولا يفعلوا فعلهم فيكونوا مثلهم ويحل بهم ما حل لهم (السابقين) من لعنة الله وغضبه .

وروى أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجة وغيرهم من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «**إن أول من دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض**» ، ثم قال: **﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾** إلى قوله تعالى: **﴿ فَاسِقُونَ ﴾** ثم قال عليه الصلاة والسلام: «**كلا والله لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ، ولتقصرنه على الحق قصرا - أو ليضربن الله على قلوب بعضكم ببعض ثم يلعنكم كما يلعنهم**» ومعنى لتأطرنه: بكسر الطاء وضم الراء ، أى لتردنه وبابه ضرب والأصل الأطر العطف ، ومعنى ولتقصرنه: بضم الصاد والراء أى تمنعه من مجاوزته وبابه نصر وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺيقول: «**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان**» (رواه مسلم) وفرق الرسول عليه الصلاة والسلام بين تغيير المنكر وبين النهى عنه حيث إن النهى عن الشىء يكون قبل فعله ، وإلا كان رفعا للواقع ، فإذا علمت إنسانا يغش

اللبن ، أو يغش الناس فى بيع مثلا ، وجب عليك تغيير ذلك ومنعه منه بالفعل إن استطعت ، والاستطاعة هنا شرط بالنص فإن لم تقدر على ذلك وجب عليك التغيير باللسان ، وهو غير قاصر على نهى الغاش ووعظه بل يدخل فيه رفع أمره إلى الحاكم الذى هو أقدر منه .

أما التغيير بالقلب فهو عبارة عن مقت الفاعل للمنكر وعدم الرضا عنه وعن فعله ، بل ومقاطعته وترك مجالسته ومعاملته ، وإقرائه السلام والرد عليه ويدل على ذلك ما فعله النبى ﷺ وأصحابه مع الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك بغير عذر وهم : كعب بن مالك ،ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ومعنى كون ذلك أضعف الإيمان أنه أقل آثاره وثمراته فى النفع ؛ لأن مجرد كراهته له بقلبه لا يحصل بها المراد وهو تغيير المنكر المطلوب تغييره ، ونرى ما سبق يوجب الدعوة والالتزام بها ، فلابد من وجود جماعات تدعوا إلى الله بالحسنى وتدعوا إلى تغيير المنكر ، على نهج رسول الله ﷺ حتى يصل إلى الناس كل صغيرة وكبيرة فى الدين .

* * * * * * * * *

الرسل ودعوتهم إلى الدين

عندما ننظر فيما قصة الله جل شأنه فى كتابه الحكيم على رسوله الصادق الأمين ﷺ من أنباء الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، نرى أنهم قد اتفقوا على دعوة أقوامهم إلى توحيد الألوهية وإخلاص العبادة لله تبارك وتعالى ، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من البعث والجزاء على الأعمال ، والإيمان بالرسل من غير تفريق بينهم ، والترغيب فى طاعة الله عز وجل ، والترهيب من مخالفته وعصيانه ، والحث على التحلى بالأخلاق الحسنة ، والتحذير من الأخلاق والصفات السيئة ، كما نرى أيضا أن جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام كانوا يعالجون الأمراض الاجتماعية المنتشرة فى أممهم فنرى نوحا وهودا وصالحا وإبراهيم عليهم السلام يهتمون كثيرا بالتوحيد والقضاء على الشرك بشتى الوسائل ؛ لأن الوثنية كانت متسلطة على عقولهم ، ونرى لوط عليه السلام كان همه فى القضاء على فاحشة "اللواطة" ونرى شعيبا عليه السلام بعد دعوة قومه إلى التوحيد ينهاهم عن نقص الكيل والوزن ونرى موسى عليه السلام يعمل على إنجاء بنى إسرائيل من فرعون وآله الطغاة الظالمين ، كل هذا قام به الرسل مع الصبر واحتمال الأذى فى سبيل إقامة الدين ، ومن ذلك نعلم أن الداعى إلى الله ينبغى له أن يوجه همته إلى تغيير المنكر والمفاسد الفاشية فى قومه ، ويبدأ بأشدها وأخطرها وأكبرها ضررا .

هدى النبى ﷺ فى نشر الدعوة :

كان ﷺ يدعوا إلى دين الله عز وجل على أساس أربعة أصول نعرضها فيما يلى :

الأول : الحجج البالغة :

فكانت دعوته عليه الصلاة والسلام تقوم على الآية البينة والحجج المحكمة ؛ حيث أعتمد فى تبليغها ونشرها على ما يتقبله العقل ويألفه الذوق ويشعر به الوجدان ولا تقف دونه البديهة ولا تنكره الحقيقة - ولذا لم يعتمد الرسول ﷺ على الخوارق بل كان يوجه العقل إلى الحقائق ، ويهيب به إلى التأمل فى الكون وما حوى من خلائقه ومظاهر الإبداع والإتقان ، وكل أية فيه تنطق بلسان حالها أن الله عز وجل واحدا لا شريك له : موجود قبل كل شىء كامل الوجود هو الله ، ومن كان كذلك فهو واهب

الوجود لكل موجود يدعوهم إلى النظر فى الكائنات ليصلوا من طريق التأمل الصادق والنظر الصحيح والبرهان القاطع إلى أن خالق هذه الأكوان على هذا الإتقان ومدبرها على هذا النظام البديع ، لابد أنه تعالى قوى قادر عليم حكيم ، لا يعجزه شىء ، ولا يعزب عن علمه مقدار ذرة فى الأرض ولا فى السماء ومنزه عن مشابهة المخلوقين وغنى عن العالمين ، فلا صاحبة له ولا ولد ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

وبهذا الأسلوب الجميل المقنع الذى اتبعه رسول الله ﷺ آمن على يده الكثير من الناس وإيمان على بينة ، وأشربوا فى قلوبهم عقيدة التوحيد الخالص عن عقل وروية ، وهذه هى طريقة القرآن الكريم الحكيم فقد جعل العقل حكيما ، والبرهان أساس العلم وعاب التقليد وذم المقلدين وأنب من يتبع الظن وقال: ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ وعاب أيضا القرآن الكريم تقديس ما كان عليه الآباء . وكان رسول الله ﷺ يدعو إلى الله بهذه الطريقة الواضحة وجدير بها أن تكون مسلكه فى الدعوة وجدير به أن يكون سبيله الدعوة إلى الله جل شأنه على هدى وبصيرة فجاءت الآية الكريمة يقول فيها الله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ هذه طريقة القرآن وسبيله القويم الحكيم التى أرشد إليها النبى الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه فى الدعوة إلى الله جل وعلا ، وسار فيها علماء السلف الصالح من بعده رضوان الله عليهم أجمعين ، فقد أمر الله تعالى بالنظر فى الكون وما فيه من آيات ونتأمل فيما فيه من دقائق الصنع وبدائع الإحكام والإتقان ، للوصول إلى هذا الغرض الأسمى فى آيات كثيرة من كتابه العزيز فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾

وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ .

وقال عز وجل فى التوحيد وإنكار الشرك: ﴿فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّـيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ .

ثم قال عز وجل فى تقرير عقيدة البعث: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ * إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

قال الحسن البصرى رضى الله: جاء أمية بن خلف بعظم نخر قد صار رميما، ففركه حتى صار كرماد ثم قال: يا محمد أنت تزعم أنا وآباءنا نعود إذا صرنا هكذا ؟ لقد قلت قولا عظيما ما سمعناه من غيرك ، من يحيى العظام وهى رميم ؟ .

فقال ﷺ : «**يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ، إنما أمه إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون**» فأنصرف مبهوتا .

وعلى ما رأينا نجد أن الله تبارك وتعالى أحكم ما شرعه بأوضح دليل ، وأبين تعليل ، وعلم رسوله ما يسلكه فى هداية الناس إلى الصراط المستقيم .

الثانى: المبادئ الحكيمة:

هناك نفوس تتأثر بالحق والفضيلة ، وينعكس ذلك على تصرفات أصحابها ،

وهناك أصحاب نفوس قذرة ترى الحق باطلا والفضيلة رذيلة فهم يتعذر إقناعهم ويستعصى على الدعاة الناصحين علاجهم لأنهم لا يميلون إلى الرشد والهدى بل يألفون الغى والضلال ، أما رسول الله ﷺرسول السلام لم ييأس من إصلاحهم ، وكان يعالجهم وغيرهم بالحكمة البالغة والموعظة الحسنة النافذة فى الأسلوب الذى يجعلها مألوفة لعقولهم خفيفة على قلوبهم ، فيدعو بالبرهان القوى والحجة القاطعة طلاب الحقائق وهم أصحاب النفوس القوية ، ويدعو عليه الصلاة والسلام المعاندين المجادلين بالباطل كان يدعوهم بأحسن طرق المناظرة والمجادلة من الرفق واللين تطبيقا لقوله تعالى إليه : ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ .

ومن أساليبه عليه الصلاة والسلام فى الدعوة والمبادئ التى سار عليها :

أنه كان يسئل عن الشيء الخاص فيجيب بما يتناوله وغيره حتى يكون ما أجاب به قاعدة عامة للسائل وغيره كقوله عليه الصلاة والسلام : «**إن الإسلام يجب ما قبله**» فى جواب من قال له : «**استغفر لى**» وهو رجل من بنى محارب كان يؤذى رسول الله أيام كان يعرض نفسه على القبائل فأجابه بما يفيد عدم المؤاخذة عن كل من اعتنق الإسلام أيا كانت سيئاته التى أسلفها قبله ، وقد كان يكفيه فى الجواب أنه يقول له : «**غفرت لك**» أى جواب خاص يخص موقفه معه فقط .

وأيضا من مبادئ وأساليبه صلوات الله وسلامه عليه : الإيجاز فى الحديث إذا اقتضى الحال ذلك كما كان الحال فى رسائله إلى الملوك والأمراء ، والأطناب عند مقتضى الحال كما فى خطبه فى الحث على الالتزام بالأحكام أو التحريض على القتال ، وتوجيه النفوس إلى التجميل بالفضائل .

ومن أسلوبه ﷺإعطاء الوسائل صورة ما تفضى إليه ، كما فى قوله عليه الصلاة والسلام : «**من دل على خير فله مثل أجر فاعله**» (رواه مسلم) فقد صور للسامع الدلالة على فعل الخير فى صورة الفعل نفسه ؛ لأنهما فى الأجر سواء ، وكقوله عليه الصلاة والسلام : «**من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**» ، قيل : يا رسول الله ، كيف يلعن الرجل والديه ؟ . قال : «**يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه**

فيسب أمه» (رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو) فقد أعطى عليه الصلاة والسلام من يسب أبا الغير وأمه صورة من يسب والديه لأنه تسبب فى سبهما .

ومن أساليبه عليه الصلاة والسلام ضرب الأمثال التى تهدى إلى الحقيقة حيث إن للتمثيل أثرا كبيرا فى إظهار الحقائق الخفية وتقريب المعانى البعيدة كقوله ﷺ : «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**» (متفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى) .

وكقوله عليه الصلاة والسلام : «**ترى المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**» (رواه البخارى من حديث النعمان بن بشير) .

فقد مثل المؤمنين فى تبادل المودة والرحمة والعطف بالجسد فى روابطه العضوية إذا مرض أو اعتل عضو اعتلت ومرضت باقى الأعضاء ، وهكذا يكون المؤمنون الكاملون ، فهو يرشدنا بهذا الأسلوب الحكيم إلى ما يجب أن يكون عليه حال المؤمنين من الاتحاد والوئام حتى يكونوا يدا واحدة على مر العصور ويشتد بذلك ساعدهم وقوتهم .

الثالث : الآداب الراقية :

لابد للدعوة شىء من الآداب الراقية وحسن التصرف وكذلك حسن الخلق ، إذ لا يكفى فى الدعوة أن يطرق الداعى بها الأندية والمجتمعات أو يعرضها على الأفراد فى أوقات مختلفة دون أن يكسوها من جمال الأدب ما يجعلها حسنة السمت بعيدة الأثر فى نفوس السامعين ، فكم من خطيب فصيح يغشى المجالس ويزاحم الدعاة الناصحين فى الدعوة إلى الحق فلا يكون نصيبه إلا إعراض الناس عن دعوته فعلى كل داعى إلى الحق والفضيلة أن يراعى ذلك ويحلى أسلوبه بجمال الآداب وحسن التصرف ، فكان رسول الله ﷺ قدوة حسنة ، وشخصية ممتازة بكل صفات الأدب والكمال التى تكون فى الدعاة إلى الخير والفضيلة ، قال عليه الصلاة والسلام : «**أدبنى ربى فأحسن تأدينى**» (متفق عليه) وأثنى الله تعالى عليه فى قوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ ومن أمثلة ما يظهر أدبه فى أقواله وفى أعماله ما يلى :

١ - كان عليه الصلاة والسلام رفيق حليم وذى ثبات وصبر فكثيراً لحقه أذى من

سفهاء المشركين فيتلقاه بالصبر الجميل امتثالا لقول ربه عز وجل: **﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾** وكان يرمى عليه الصلاة والسلام بكلمات غليظة خبيثة فيقابلها بالصفح والابتسام ، وهو الذى لا عتاب بعده ، ثم بعد ذلك يعرض عليهم دعوته فى لين من القول ، معرضا عن جهل الجاهلين .

٢ - كان عليه الصلاة والسلام يتواضع فى حديثه مع المدعوين إلى حد أنه كان يتقدم إليهم بأجمل عبارات اللين والحب والمجاملة كقوله ﷺ: «**إنما أنا لكم مثل الوالد لولده أعلمكم**» (رواه ابن ماجة) .

٣ - أنه كان عليه الصلاة والسلام لا يواجه أحدا بعينه عندما يريد أن يؤدبه أو يعرفه خطئه أو يزجره مادام يجد فى الموعظة العامة كفاية وهذا من الأدب الراقى ومنتهى الحكمة ، وهناك الكثير من الأمثلة العالية الرفيعة فى أدبه ﷺ الذى كان من أكبر أسباب نجاح دعوته صلوات الله وسلامه عليه .

رابعا : سياسته ﷺ :

كانت سياسته عليه الصلاة والسلام حكيمة جدا ، وهى ذات أثر عظيم فى نجاح دعوته ويتضح ذلك فى بعض الأمثلة الآتية من سياسته :

١ - كان دائما عليه الصلاة والسلام يتخير وقت الموعظة وقت الحاجة والفراغ والنشاط إلى استماعها حتى لا يجعل الوعظ على الناس ثقيلا قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : «**كان النبى ﷺ يتخولنا (أو قال يتحيننا) بالموعظة كراهة السآمة علينا**» (متفق عليه) .

٢ - أنه ﷺ كان يفعل الشىء فى بعض الأحيان مسايرة لمن يعلم أنه يريد فعله كاتخاذه خاتما من فضة نقشه (محمد رسول الله) لتوقيع رسائله إلى بعض الملوك والأمراء حينما أراد أن يدعوهم إلى الإسلام ، وقيل له أنهم لا يقرؤون إلا كتابا مختوما ، وهذا فيما يرجع إلى العادات ، ولم يكن فعله جناح يستدعى تركه .

٣ - تأليفه القلوب بالمال فكان يؤثر بعض حديثى العهد بالإسلام بجانب من المال ، للاحتفاظ على الهداية بالإسلام ولهذا ظهر له أن الإيمان لم يرسخ فى قلوبهم رسوخا لا تزلزله الفتن ، وإلى أمثال هؤلاء أشار عليه الصلاة والسلام بقوله : «**يا سعد**

إنى أعطى الرجل وغيره أحب إلى منه خشية أن يكبه الله فى النار» (أخرجه البخارى)
أما ما كان يعطيه بعض أشراف قريش قبل الدخول فى الإسلام فليس لنشر الدعوة ؛ لأنها - كما نعلم - تعتمد قبل كل شيء على البرهان والحجة ، وإنما كان إعطاؤهم لتلافى أحقادهم ؛ لأن الهدايا تذهب بالأحقاد ، وتجمع القلوب إلى القلوب وغايتها أنها تجعل النفوس متهيئة للنظر فى الدعوة ، وهذا النوع هم المؤلفة قلوبهم ، وهم ممن شرع الله لهم إعطاء الزكاة قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ** ﴾ .

٤ - تألفه ﷺ بالجاه ولطف الكلام ، حيث من على رجال من قريش بكثير من المال فى موقفه مع الأنصار ، فعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: جمع رسول الله ﷺ الأنصار فقال: «**أفيكم أحد من غيركم؟**» فقالوا: لا إلا ابن أخت لنا ، فقال رسول الله ﷺ: «**إن ابن أخت القوم منهم**» .

فقال: «إن قريشا حديثو عهد بجاهلية ومصيبة ، وإنى أردت أن أخبرهم ، وأتألفهم ، أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله إلى بيوتكم ؟ لو سلك الناس واديا وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار» (متفق عليه) .

٥ - تألفه عليه الصلاة والسلام بالعفو فى موضع الانتقام ، والإحسان فى مكان الإساءة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: بعث النبى ﷺ خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بنى حنيفة يقال له: ثمامة بن آثال فربطوه بسارية من سوارى المسجد ، فخرج إليه النبى ﷺ فقال: «**ما عندك يا ثمامة ؟**» فقال: عندى خير يا محمد إن تقتلنى تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن تريد المال فسل منه ما شئت ، فتركه حتى كان الغد قال له: «**ما عندك يا ثمامة ؟**» قال: عندى ما قلت لك . فقال: «**أطلقوا ثمامة**» فانطلق إلى محل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، يا محمد: والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلى من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى ، والله ما كان أبغض إلى من دينك فأصبح دينك أحب الدين إلى ، والله ما كان أبغض إلى من بلدك فأصبح بلدكم أحب البلاد إلى) (متفق عليه) .

٧ - لينه عليه الصلاة والسلام فى موضع الشدة فكان يقابل من يخالفه بالتسامح ويجزى الجاحد بالمزيد فيحصل التآلف وفى حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال: لما حاصر رسول الله ﷺ الطائف فلم ينل منهم قال: «**إنا قافلون إن شاء الله**» ، فثقل عليهم وقالوا: نذهب ولا نفتحه وقالوا مرة: نقفل قال: «**أغدوا على القتال**» فأصابهم جراح فقال: «**إنا قافلون غدا إن شاء الله**» ، فأعجبهم فضحك النبى ﷺ (متفق عليه) .

وأيضا ما وقع فى غزوة أحد من مخالفة الرماة لأمر الرسول بألا يبرحوا مكانهم ، ثم برحوا المكان الذى أوصاهم بالبقاء فيه وكان ذلك سببا فى هزيمة المسلمين ، ورغم ذلك لم يغلظ عليهم النبى ﷺ بل قابلهم باللين والرفق فعفا عنهم ولم يقابلهم بالشدة والعنف ، فأثنى الله عليه لذلك بقوله عز وجل: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾ .

وبمثل هذه المعاملة الطيبة الحسنة التف حوله قلوب أصحابه فتفانوا فى محبته عليه الصلاة والسلام والدفاع عن دعوته ومناصرته .

٨ - تألفه صلوات الله وسلامه عليه بالصبر على الأذى واحتمال الضرر من أعدائه حتى كان فيه المثل الأعلى للدعاة إلى الخير ، فرغم الأذى الذى لحق به لم يجزع بل كان شجاعا حكيما ، وصبورا كريما ، فكم ناله من أذى وكيد المنافقين ؟ فما لج بالشكوى بل كان صابرا مع تفويض أمره إلى الله تعالى ، حتى جعل له من أمره فرجا وصار يمهد لأصحابه سبيل المهاجرة حتى أذن له فيها فهاجر وقيض الله له من الأنصار المخلصين من استعان به على نشر دعوته وإقامة دينه .

٩ - ومن سياسته الحكيمة صلوات الله وسلامه غليه حسن معاملته لأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين ، فكان أوسع الناس صدرا وأصدقهم لهجة وألينهم عريكة ، وأكرمهم عِشرة ، يؤلف الناس ولا ينفرهم ويكرم كريم القوم ويوليه عليهم ، ويتفقد أصحابه ، ويعطى كل أحد من جلسائه نصيبه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور القول ، وقد وسع الناس ، بسطه وخلقه حتى صار لهم أبا وصاروا عنده فى الحق سواء ، وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا

غليظ القلب ولا صخاب ، ولا فاحش ولا عياب ولا مداح عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : «**كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال له لبيك**» (متفق عليه) .

وعن أنس رضى الله عنه : «**كان رسول الله ﷺ من أشد الناس لطفا ، والله ما كان يمتنع فى غداة باردة من عبد ولا من أمة ولا صبى أن يأتيه بالماء فيغسل وجهه وذراعيه ، وما سأله أحد أو سائل قط إلا أصغى إليه أذنه ، فلم ينصرف حتى يكون هو الذى ينصرف ، وما تناول أحد بيده ﷺ إلا ناوله إياها فلم ينزع حتى يكون هو الذى ينزع**» ، (رواه أبو نعيم) وقال أيضا رضى الله عنه : «**كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا وإن كان ليخالطنا حتى يقول لأخ لى صغير: يا أبا عمير ما فعل النغير ؟**» ، أى ما شأنه وحاله (متفق عليه) .

وعن الصعب بن جثامة قال : أهديت إلى رسول الله حمارا وحشيا فرده على فلما رأى ما فى وجهى قال : «**إنا لم نرده إلا لأنا حرم**» (متفق عليه) .

ما أرق هذا الشعور واللطف فى المعاملة ، وعن جرير بن عبد الله قال : ما حجبنى رسول الله ﷺ منذ أسلمت ولا رآنى إلا ابتسم فى وجهى ، ولقد شكوت إليه أنى لا أثبت على الخيل فضرب بيده فى صدرى وقال : «**اللهم ثبته واجعله هاديا مهديا**» (متفق عليه) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : «**ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ**» .

وكان ﷺ يباسط أصحابه ويمازحهم فقد كان هناك رجل يسمى زهيرا يهاديه بما يستطرف من البادية وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يكافئه بموجود الحاضرة ، وما يستطرف منها ويقول : «**زهير باديتنا ونحن حاضرته**» وجاء يوما إلى السوق فوجد زهيرا قائما فجاءه من قبل ظهره وضمه بيده إلى صدره فأحسن زهير أنه الرسول فجعل يمسح ظهره فى صدره رجاء بركته فجعل الرسول يقول : «**من يشترى العبد ؟**» قال زهير : إذن تجدنى كاسدا فقال عليه الصلاة والسلام : «**أنت عند الله غالى**» .

ومن حسن معاملته ﷺ أنه كان يدعو أصحابه بأحب أسمائهم وإذا أتى قوم

جلس حيث ينتهى به المجلس ، ولا يحب مظاهر التفخيم من القيام والتزلف إليه بزخرف القول ، وكان يؤثر أهل الفضل ويحذر الناس ويحترس منهم دون أن يمنع أحدا منهم بشاشته ، وابتسامته وكثيرا ما كان يتغافل عما يعافه ويعرض عمن يتكلم بغير الجميل ، ولا يواجه أحدًا بما يكره ، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة وأكثرهم نفعا للناس ، وكان مجلسه عليه الصلاة والسلام مجلس هدى وعلم وحياء وحلم وخير وأدب ، لا مجال فيه للوشاة والسعاة بالنميمة ، ولا يذكر فى مجلسه العيوب ، ورغم تواضعه فى مجلس أصحابه وجلسائه وقربه منهم إلا أنه كان مهيبا جليلا فى نفس الوقت ، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤسهم الطير ، وإذا سكت تكلموا فيما ينفع ، ومن تكلم منهم يصمت الجميع له حتى ينتهى من حديثه ، ويتكلم غيره فعلينا أن نتعلم من هذه المعاملة الحسنى والآداب الرفيعة التى كان عليها رسول الله ﷺ مع أصحابه والناس أجمعين كى نكون دعاة للحق راشدين ناصحين متصفين بخلق النبى الكريم **صلوات الله وسلامه عليه .**

هدى النبى ﷺ فى تربية أصحابه :

كان أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام لهم به أسوة يحرصون عليها كل الحرص ، والأسوة خير مرشد حيث كان ﷺ لم يكتفى فى معاملته لهم كما رأينا فحسب ، بل كان يتعهدهم بالإرشاد إلى الأخلاق الحميدة ، ويدر بهم عليها ويشجع المحسن منهم ولو بالكلمة الطيبة حتى يتنافس فيها المتنافسون ومن إرشاده لهم قوله عليه الصلاة والسلام: «**ثلاث من كن فيه استوجب الثواب واستكمل الإيمان: خلق يعيش به فى الناس ، وورع يحجزه عن محارم الله ، وعلم يرد جهل الجاهل**» (أخرجه البزار من حديث أنس) .

وقوله ﷺ: «**إن أحبكم إلى وأقربكم منى منزلة يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون**» (أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة) .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه أنه قال: أراد معاذ بن جبل سفرا إلى جهة فقال: يا نبى الله ، أوصنى ، قال: «**اعبد الله ولا تشرك به شيئا**» قال: زدنى قال: «**إذا**

أسأت فأحسن» قال: زدنى: قال: «**استقم وليحسن خلقك**» (أخرجه ابن حبان).

وقوله صلوات الله وسلامه عليه: «**اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك يميت القلب**» (أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة).

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**عفوا تعف نساؤكم وبروا آباءكم تبركم أبناءكم**» (رواه الطبرانى من حديث عائشة)، وقوله صلوات الله وسلامه عليه: «**ما من شئ بأثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن وإن الله يبغض الفاحش البذى**» (أخرجه الترمذى عن ابى الدرداء).

وقوله: «**خيار عباد الله الذين إذا رؤا ذكر الله، وشرار عباد الله المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة، الباغون للبرءا العيب**». (رواه أحمد من حديث عبد الرحمن بن غنم).

وقوله: «**إن خياركم أحسنكم أخلاقا**» (متفق عليه)، وقوله: «**إن لله خلقا خلقهم لحوائج الناس يفزع الناس إليهم فى حوائجهم أولئك الآمنون من عذاب الله**» (رواه الطبرانى) وقوله: «**أحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تطرد عنه جزعا، أو تقضى عنه دينا**» (رواه أبو الشيخ من حديث ابن عمر) وقوله: «**إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يمدحوا وإذا كان عليهم لم يمطلوا، وإذا كان لهم لم يعسروا**» (رواه البيهقى من حديث معاذ رضى الله عنه).

وعن ابن عباس قال: وقع بين خالد بن الوليد وعمار بن ياسر رضى الله عنهما كلام فقال عمار: لقد هممت بأن لا أكلمك أبدا فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال: «**يا خالد مالك ولعمار رجل من أهل الجنة قد شهد بدرا**» وقال لعمار: «**إن خالدا يا عمار سيف من سيوف الله على الكفار**» قال خالد: فما زلت أحب عمارا من يومئذ، وقوله: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**» (رواه

الترمذى) ، وقوله : «**إن هذه الأخلاق من الله فمن أراد الله به خيرا منحه خلقا حسنا ، ومن أراد به شرا منحه خلقا سيئا**» (رواه الطبرانى) .

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا**» (رواه أبو داود والترمذى) .

ولقد كان لهذه التربية الحكيمة أثرها القوى فى نفوس الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فقال المقداد بن عمر و لرسول الله ﷺ حين أخبرهم عن عزمه على لقاء الأعداء فى غزوة بدر: «**يا رسول الله ، امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: (اذهب أنت وربك فقاتلا إن ها هنا قاعدون) ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فو الله الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك منه دونه حتى تبلغه**» فدعا له بخير . وبرك الغماد: هو موضع فى أقصى أراضى هجر ، والذى قاله المقداد بن عمرو هو من تأثير تربية رسول الله لهم التربية الحكيمة التى أثرت فى نفوسهم تأثيرا بالغا .

وكذلك قول سعد بن معاذ سيد الأوس لرسول الله عليه الصلاة والسلام حين قال النبى فى هذا الموقف الرهيب: «**أشيروا على أيها الناس**» (يريد الأنصار) لأن العدد فيهم ؛ ولأن بيعة العقبة ربما يفهم منها أنه لا تجب عليهم نصرته إلا ما دام بين أظهرهم ، فإن فيها: يا رسول الله ، إنا براء من ذمتك حتى تصل إلى دارنا ، فإذا وصلت إليها فأنت فى ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، فقال سعد بن معاذ: كأنك تريدنا يا رسول الله ، فقال: «**أجل**» فقال سعد: قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ، ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا العدو غدا ، إنا لصبر فى الحرب صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، فأشرق وجه النبى ﷺ .

نعم إنها العقيدة الثابتة ، والعزيمة الصادقة والإرادة القوية من إيمان قوى ثابت ،

وذلك من النظر إعجاز البيان والنظم الذى جاء به القرآن ، وما تعلموه من الهدى النبوى الحكيم ومن حسن خلقه وأدبه عليه الصلاة والسلام .

كتاب النبى ﷺ إلى قيصر الروم :

بعد رجوع المسلمين من الحديبية فى أواخر السنة السادسة من الهجرة كاتب النبى صلوات الله وسلامه عليه ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام ، وسنذكر بعضها لنرى طريقة دعوته الحكيمة الرفيعة التى يوجهها إلى ملوك وأمراء الأرض ، فكتب إلى قيصر الروم الآتى على ما ثبت فى الصحيحين : «**بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى .. أما بعد .. فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، سلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾** [آل عمران : ٦٤]» ، ومعنى الأريسيين : جمع أريسى نسبة إلى أريس كفعيل وهو الفلاح بصده إياهم عن الإسلام ﴿ **رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا** ﴾ [الأحزاب : ٦٧] أى عليك مثل إثمهم .

ولما وصل هذا الكتاب إلى قيصر الروم قال : انظروا لنا أحدا من قومه نسأله عنه وكان أبو سفيان بن حرب فى الشام مع رجال من قريش فى تجارة ، فأرسل له قيصر الروم لمقابلته ولما قدموا عليه فى القدس قال لترجمانه : سلهم أيهم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبو سفيان : أنا (لأنه لم يكن فى الركب من بنى عبد مناف وغيره) فقال قيصر : أدنى منى ثم أمر بأصحابه فجعلوا خلف ظهره ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ، وقد جعلتكم خلفه كى لا تخجلوا من رد كذبه عليه إذا كذب ثم سأله : كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب قال : هل تكلم بهذا القول أحد منكم قبله ؟ قال : لا ، قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قال : لا قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم قال : بل ضعفاؤهم قال : هل يزيدون أم ينقصون ؟ قال : بل يزيدون ، قال : هل يرتد أحد منهم سخطة ليدنه بعد أن يدخل فيه؟ قال : لا ، قال : هل يغدر إذا عاهد ؟

قال: لا ، ونحن الآن منه فى ذمته لا ندرى ما هو فاعل فيها قال: فهل قاتلتموه ؟ قال: نعم: قال: فكيف حربكم وحربه؟ قال: الحرب بيننا وبينه سجال مرة لنا ومرة علينا قال: فبم يأمركم ؟ يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا وينهى عما كان آباؤنا يعبدون ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة فقال الملك: إنى سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فذكرت أن لا فقلت: لو كان أحدا قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسى بقول قيل قبله ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا فقلت: ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا ، فقلت: لو كان من آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم فقلت: ضعفاؤهم وهو أتباع الرسل ، وسألتك يزيدون أم ينقصون ، فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه فقلت: لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشة القلوب ، وسألتك هل قاتلتموه فقلت: نعم وإن الحرب بينكم وبينه سجال ، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة ، وسألتك بماذا يأمركم ، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وسألتك هل يغدر إذا عاهد فذكرت لا ، وكذلك الرسل لا تغدر فعلمت أنه نبى ، وقد علمت أنه مبعوث ولم أظن أنه منكم ، وإن كان ما كلمتنى به حقا فسيملك موضع قدمى هاتين ، ولو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت قدميه قال أبو سفيان: فعلت أصوات الذين عنده وكثر لغطهم ، فلا أدرى ما قالوا وأمر بنا فأخرجنا ، فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال: لقد بلغ أمر ابن أبى كبشة أن يخافه ملك بنى الأصفر فمازلت موقنا أنه سيظهر حتى دخل الله على الإسلام .

ولما سار قيصر إلى حمص جمع عظماء الروم فى قصر له فيها وأمر بالأبواب فأغلقت ثم أطل عليهم فقال: يا معشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد ؟ وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها مغلقة ، فلما رأى قيصر نفرتهم ويئس من الإيمان قال: ردوهم على فقال لهم: إنى قلت مقالتى

أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه ، فكان هذا آخر شأن هرقل فغلبه حب الملك على الإسلام فذهب بإثمه وإثم رعيته ولكنه رد دحية ردا جميلا .

كتابه عليه الصلاة والسلام إلى النجاشى :

كتب ﷺ إلى النجاشى : «**بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة ، أسلم أنت فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول (العذراء) الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والمولاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فإنى رسول الله وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى**» .

وأرسل هذا الخطاب مع عمرو بن أمية الضمرى فقال النجاشى : يا أصحمة إن على القول وعليك الاستماع ، إنك فى الرقة علينا وكأنا فى الثقة بك منك ، لأنا لم نظن بك خيرا قط إلا نلناه ، ولم نخفك على شىء قط إلا أمناه ، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك ، الإنجيل بيننا وبينك شاهدا لا يرد قاضى لا يجور ، وفى ذلك الموقع الحز وإصابة المفصل ، وإلا فأنت فى هذا النبى الأمى كاليهود فى عيسى ابن مريم ، وقد فرق النبى ﷺ رسله إلى الناس فرجاك لما يرجهم له ، وأمنك على ما أخافهم عليه ، بخير سالف وأجر ينتظر ، فقال النجاشى : أشهد بالله إنه النبى الأمى الذى ينتظره أهل الكتاب ، وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل ، وأن العيان ليس بأشفى من الخبر . فقال النجاشى : أشهد بالله إنه النبى الأمى ، ثم كتب خطابا إلى النبى ﷺ فقال فيه : إلى محمد رسول الله من النجاشى أصحمة ، سلام عليك يا نبى الله من الله ورحمة الله وبركات الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى فو رب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تفروقا ، إنه كما ذكرت وقد عرفت ما بعثت إلينا ، وقد عرفنا ابن عمك وأصحابه فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك واسلمت على يديه لله رب العالمين .

كتابه عليه الصلاة والسلام إلى كسرى ملك الفرس:

وكتب صلوات الله وسلامه عليه إلى كسرى ملك الفرس كتابا يدعوه منه إلى الإسلام قال فيه: «**بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله فإني رسول الله إلى كافة الناس ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [يس: ٧٠] أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس**» فعندما قرأ على كسرى الكتاب مزقه ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**مزق الله مكله**» وقد تم بالفعل فكانت مملكته أقرب الممالك سقوطا ، وقد بدأ هذا الكافر الشقي بالعدوان فأرسل لعامله باليمن أن يوجه إلى الرسول من يأتي به إليه ، فعاجله الله بقيام ابنه شيرويه عليه وقتله ، ثم أرسل لعامل اليمن ينهاه عما أمره به أبوه .

كتابه عليه الصلاة والسلام إلى المقوقس أمير مصر:

كتب ﷺ إلى المقوس أمير مصر من جهة قيصر: «**بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد:**

فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم القبط: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٧] » وأرسل الخطاب مع حاطب بن أبي بلتعة ، فلما دخل على المقوقس قال له: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى ، فأخذه الله نكال الأخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه فاعتبر بغيرك ، ولا يعتبر غيرك إلا بك ، فقال المقوقس: إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه فقال له حاطب: ندعوك إلى الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه ، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له اليهود وأقربهم منه النصارى ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل نبي أدرك قوما فهم أمته فالحق عليهم ، أن يطيعوه ، وأنت ممن أدركه

هذا النبى ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به فقال المقوقس: إنى نظرت فى أمر هذا النبى فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة ، بإخراج الخبأ ، والأخبار بالنجوى ، وسأنظر ، وأخذ كتاب النبى ﷺ فجعله فى حق من عاج وختم عليه ودفعه إلى جارية له ، ثم دعا كاتبا له يكتب بالعربية فكتب إلى رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك أما بعد: فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا بقى وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط ، وبثياب وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليكم ولم يسلم المقوقس وإحدى الجاريتين مارية التى تسرى بها عليه الصلاة والسلام جاء منها بولده إبراهيم ، والأخرى سيرين أعطاها لحسان بن ثابت رضى الله عنه والبغلة التى كانت تسمى دلدل بقيت إلى زمن معاوية .

وعندما أرسل المقوقس بعثه إلى المسلمين ليخبروه عن حالتهم الدينية ، فلما رجعوا إليه قال لهم: كيف رأيتموهم قالوا: رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لهم رغبة فى الدنيا ولا بهجة أميرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد منهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم ، وهنا قال المقوقس أمير مصر: والذى يحلف به ، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد .. وانظر إلى وصف المسلمين أيام كانوا فى عزة الإسلام عاملين به وبكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، فسادوا بذلك العالم وبرسائلهم الحكيمة وبما تعلموه من النبى ﷺ دعوا إلى الحق وإلى عبادة الله الواحد القهار .

كتابه عليه الصلاة والسلام إلى ملك البحرين:

أرسل رسول الله ﷺ مع العلاء بن الحضرمى كتابا إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين يدعوه فيه إلى الإسلام وجاء فيه: «**بسم الله الرحمن الرحيم أسلم فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد: فإن من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل**

ذبيحتنا فذلك المسلم له ذمة الله وذمة الرسول ، من أحب ذلك من المجوس فإنه آمن ، ومن أبى فعليه الجزية» فأسلم المنذر بن ساوى ملك البحرين .

وكتب إلى رسول الله ﷺ: أما بعد: يا رسول الله ، فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود فأحدث إلىّ فى ذلك أمرك .

فكتب إليه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: **«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى ، سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أما بعد .. فإنى أذكّرك الله عز وجل فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرا ، وإنى قد شفّعتك فى قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية»** .

كتابه عليه الصلاة والسلام إلى ملكى عمان:

الذى أرسله مع عمرو بن العاص وفيه: **«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى سلام على من اتبع الهدى أما بعد: فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلما فإنى رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين إنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما ، وأن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما وخيل تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما»** .

قال عمرو: فخرجت حتى انتهيت إلى عمان ، فلما قدمتها عمدت إلى عبد وكان أحلم الرجلين ، وأسهلهما خلقا فقلت: إنى رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك ، فقال: أخى المقدم علىّ بالسن والملك وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك ثم قال: وما تدعو إليه ؟ قلت: أدعوك إلى الله وحده لا شريك له وتخلع ما عبد من دونه وتشهد أن محمدا عبده ورسوله قال: يا عمرو ، إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك فإن لنا فيه قدوة ؟ قلت: مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ، وودت أنه كان أسلم وصدق به ، وقد كنت

أنا على مثل رأيه حتى هدانى الله للإسلام ، قال: فمتى تبعته ؟ قلت: قريبا ، فسألنى أين كان إسلامك ؟ قلت: عند النجاشى وأخبرته أن النجاشى قد أسلم ، قال: فكيف صنع قومه بملكه ؟ فقلت: أقروه واتبعوه ، قال: والأساقفة والرهبان تبعوه ؟ قلت: نعم: قال: انظر ياعمرو ما تقول إنه ليس من خصلة فى رجل أفضح له من الكذب قلت: ما كذبت وما نستحله فى ديننا ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشى ، قلت: بلى قال: بأى شيء علمت ذلك ؟ قلت: كان النجاشى يخرج له خرجا ، فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ قال: لا والله لو سألنى درهما واحدا ما أعطيته ، فبلغ هرقل قوله ، فقال له اليناق أخوه: أتدع عبدك لا يخرج لك حرجا ويدين بدين غيرك دينا محدثا؟ قال هرقل: رجل رغب فى دين فاختاره لنفسه ما أصنع به والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع قال: انظر ما تقول يا عمرو قلت: والله صدقتك قال عبد: فأخبرنى ما الذى يأمر به وينهى عنه ؟ قلت: يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ويأمر البر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان ، وعن الزنا وعن الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب قال: ما أحسن هذا الذى يدعوا إليه لو كان أخى يتابعنى عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ، لكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا قلت: إن أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم قال: إن هذا الخلق حسن ، وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ فى الصدقات فى الأموال حتى انتهيت إلى الإبل قال: يا عمرو تؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى الشجر وترد المياه ؟ فقلت: نعم فقال: والله ما أرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عدوهم يطيعون لهذا قال: فمكثت ببابه أياما وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبرى ، ثم إنه دعانى يوما فدخلت عليه فأخذ أعوانه بضبعى فأبوا أن يدعونى أجلس ، فنظرت إليه قال: تكلم بحاجتك ، فدفعت إليه الكتاب مختوما ففض ختمه وقرأ حتى انتهى إلى آخره ، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته إلا أنى رأيت أخاه أرق منه قال: ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت ؟ فقلت: تبعوه إما راغب فى الدين وإما مقهور بالسيف ، قال: ومن معه ؟ قلت: الناس قد رغبوا فى الإسلام واختاروه عن غيره وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال ، فما أعلم أحدا بقى غيرك فى هذه الخرجة ، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه نوطئك الخيل ونبيد خضراك ، فأسلم تسلم ويستعملك على قومك ، ولا تدخل عليك الخيل والرجال قال: دعنى

يومى هذا وارجع إلى غدا فرجعت إلى أخيه فقال: يا عمرو إنى لأرجو أن يسلم إن لم يضن بملكه حتى إذا كان الغد أتيت إليه فأبى أن يأذن لى فانصرفت إلى أخيه فأخبرته أنى لم أصل إليه فأوصلنى إليه ، فقال: إنى فكرت فيما دعوتنى إليه فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلا ما فى يدى وهو لا تبلغ خيله هنا ، وإن بلغت خيله ألفت قتالا ليس كقتال من لاقى قلت: وأنا خارج غدا ، فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه فقال: ما نحن فيما ظهر عليه ؟ وكل من أرسل إليه قد أجابه ، فأصبح فأرسل إلى فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعا وصدق النبى ﷺ وخليا بين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لى عونا على من خالفنى .

وبعث الرسول ﷺ كتابا إلى ملك اليمامة يدعوه إلى الإسلام ، وكذلك كتابا آخر أرسله إلى أمير دمشق ، وانتشر الإسلام فى العالم كله بحكمته البالغة ﷺ وحسن خلقه وأدبه صلوات الله وسلامه عليه .

****

أشهر الدعاة من السلف الصالح

كان المسلمون فى الصدر الأول من الإسلام يهتمون بأمر الدين فقد كانت خاصة الصحابة رضى الله عنهم الذين عاشروا النبى ﷺ وتلقوا عنه ، متواصلين مترابطين يشعر كل منهم بما يشعر الآخر من الحاجة إلى نشر الإسلام وحراسته ومحاربة أعدائه فخطبهم فى التحريض على القتال دعوة إلى الله وإعلاء الدين وكلمته ونشر الدعوة إليه ، وخطبهم فى الحث على الاعتصام بحبل الله وعلى المحبة والمودة والإخاء دعوة إلى الله عز وجل ، وخطبهم فى الشورى كان مظهرا لفهم الدين حيث الكل يدلى برأيه ويؤيد دعواه بالقواعد الدينية الشرعية فى ظل كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة النبى الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه ، وهكذا فى جميع أمورهم وأحوالهم كان الدين هو الأساس والمرجع الثابت لأى اختلاف فى أمر أو موضوع ما ، وكانت عامتهم من ورائهم يراقبون القائمين بالأعمال العامة دليلا على الوعى الدينى المنتشر بينهم حتى كان الصعلوك من رعاء الشاة يأمر مثل عمر بن الخطاب وهو أمير المؤمنين وينهاه فيما يرى أنه الصواب .

ولا يوجد أحد من بعد رسول الله ﷺ معصوم من الخطأ ، وقد صرح عمر بن الخطاب رضى الله عنه بخطئه ورجع عن رأيه غير مرة .

وكان يتصدر الدعوة أجلاء العلماء المشهود لهم بالفضل ؛ حيث كان يختلف إلى مجالسهم الأمراء والعظماء ومن هؤلاء الدعاة العلماء :

الحسن البصرى :

وهو أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى كان أبوه يسار من سبى ميسان وهى بلدة بالعراق ، سباه الأمير المغيرة بن شعبة مع سيرين أبى محمد بن سيرين حينما افتتحها فى عهد عمر بن الخطاب ثم صار يسار هذا مولى لزيد بن ثابت الأنصارى ، وكانت أم الحسن وتسمى خيرة مولاة لأم سلمة زوج النبى عليه الصلاة والسلام ، وفى بيتها ولد الحسن سنة ٢١ هـ ، وربما غابت فى حاجة فيبكى فتعطيه أم سلمة ثديها تعلله به إلى أن تجيء أمه ، فدر عليه ثديها فشربه فيرون أن تلك الحكمة والفصاحة اللتين عرف بهما كانتا من بركة ذلك .

ونشأ الحسن بوادى القرى ، وتلقى الفصاحة من الأعراب وسمع عثمان ، وروى عن عمران بن حصين وأبى موسى الشعرى ، وابن عباس ، وجندب ، وزيد بن ثابت الأنصارى ، ولما أتم علومه ومعارفه وظهرت مخايل النجابة عليه ، عين كاتبا للربيع بن ثابت الحارثى والى خراسان وأحد فاتحيها لعمر بن الخطاب ، ثم شاع فقه الحسن وفضله وتناقل الخلق ورعه ونبله ، فتقلب فى الأعمال والولايات مع انتياب مسجد البصرة يعقد فيه مجلسه ليفقه الناس ويذيع فيهم موعظته وحكمته ، وينشر بينهم دعوته السياسية فى تثبيت دعائم الدولة إلى أن اختاره عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لقضاء البصرة سنة ٩٩ هـ ، وقال عنه : لقد وليت قضاء البصرة سيد التابعين ، نعم كان حقا سيد التابعين ، وإمام أهل العلم والحكمة والرأى فى عصره ، وكان من الفصاحة والبلاغة فى أعلى مقام مع الزهد والورع وإنه سيد سمح ، وإنه أخطب الناس وأفصحهم وإن علانيته أشبه بسريرته ، وسريرته بعلانيته ، وآخذ الناس لنفسه بما يأمر به غيره ، وإنه رجل استغنى عما فى أيدى الناس من دنياهم واحتاجوا إلى ما فى يديه من أمر دينهم قيل ليونس بن عبيد : هل تعرف رجلا يعمل بعمل الحسن البصرى ؟ فقال : رحم الله الحسن والله ما أعلم أحدا يقول بقوله فكيف يعمل بعمله ؟ وسمعته السيدة عائشة رضى الله عنها يتكلم فقالت : من هذا الذى يتكلم بكلام الصديقين ؟ وقيل لعلى بن الحسن رضى الله عنهما : إن الحسن البصرى يقول : ليس العجب لمن هلك كيف هلك ، وإنما العجب لمن نجا كيف نجا فقال على : سبحان الله هذا كلام صديق .

وقد روى أبو حيان : كان الحسن البصرى من درارى النجوم علما وتقوى وزهدا وورعا وعفه ورقة وتألها وتنزها وفقها ومعرفة ونصاحة وفصاحة مواعظة تصل إلى القلوب ، وألفاظه تلتبس بالعقول ، وما أعرف له ثانيا لا قريبا ولا مدانيا ، كان منظره وفق مخبره ، وعلانيته فى وزن سريرته ، عاش تسعين سنة لم يقرف بمقالة شنعاء ، ولم يزن بريبة ولا فحشاء ، سليم الدين نقى الأديم محروس الحريم يجمع مجلسه ضروبا من الناس ، وأصناف اللباس مما يوسعهم من بيانه هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا يلقن منه التأويل ، وهذا يسمع منه الحلال والحرام ، وهذا يجود له المقالة ، وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهذا يسمع الموعظة ، وهو فى وسط كل هذه الأمور وغيرها من مبادئ

وأحكام كالسراج الوهاج تألقا ، وكان يتصف بالكلام الفصل ، واللفظ الجزل ، والصدر الرحب والوجه الصلب ، واللسان العضب ، لا تثنية لائمة فى الله ، ولا تذهله رائمة عن الله ، يجلس تحت كرسيه قتادة صاحب التفسير وعمرو وواصل صاحب الكلام ، وابن أبى إسحاق صاحب النحو ، وفرقد السبخى صاحب الرقائق ، فمن ذا مثله ، ومن ذا يجرى مجراه ؟ ولم يمنع الحسن زهده وورعه ونسكه وتقاه أن يخوص غمار السياسة ، وأن يكون له فيها سهم صائب ، ولسان غاضب ، وأن يكون من دعاة الدولة ، ومهما أغفل التاريخ عن مذهبه السياسى ، فإن مما لاشك فيه أن الدولة المروانية مدينة له بقوة حكمته وبليغ بيانه كما هى مدينة للحجاج بقوة سياسته وشدة جنانة ، فلما كانت الدولة المروانية قد نشأت فى عصر لا يزال الدين غضا ، فكان لابد للقائم للدعوة لها من الالتجاء إلى الدين للاستعانة ببعض ما يتصل به من الفكر والآراء والأقيسة يشد بها جوانب دعوته السياسية ، وقد كان ذلك المزيج من السياسة والدين مذهب الحسن البصرى فيما هو سبيله من هذه الناحية من حياته السياسية ، فلولا الحسن وسيف الحجاج لوئدت الدولة المروانية فى مهدها .

ولما ولى يزيد بن عبد الملك عمر بن هبيرة العراق وخراسان عام ١٠٣هـ استدعى ابن هبيرة الحسن البصرى ومحمد بن سيرين وعامر الشعبى فلما حضروا إليه قال لهم : إن يزيد خليفة الله استخلفه على عباده ، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته ، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعه له ، وقد ولانى ما ترون فيكتب إلى بالأمر من أمره فأقلده ما تقلده من ذلك الأمر فما ترون ؟ فاستكان ابن سيرين والشعبى تقية ولم يجرؤ واحد منهما على معارضته فقال : ابن هبيرة ماذ تقول يا حسن ؟ فقال : يا بن هبيرة ، خف الله فى يزيد ولا تخف يزيد فى الله ، إن الله يمنعك من يزيد ولا يمنعك يزيد من الله وأوشك أن يبعث إليك ملكا فيزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك إلا عملك ، يا بن هبيرة ، إن تعص الله فإنما جعل الله هذا السلطان ناصرا لدينه وعباده ، فلا تركبن دين وعباده ، بسلطان الله فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، فأكبر ابن هبيرة ذلك منه وأجازهم وأضعف جائزته فقال الشعبى لابن سيرين : سفسفنا له فسفسف لنا . وهذا يدل على ما كان له فى الدولة من مكانة وفى النفوس مكانة أيضا وجلالة .

ومحصل هذا أن الأمير كان يكتب إلى ابن هبيرة كتبا يرى فى تنفيذها معصية الله ، فيخاف إن أطاعه غضب الله وإن عصاه لم يأمن سطوته فعرض أمره على هؤلاء فهون الشعبى وابن سيرين عليه الأمر ميلا منهما إلى هوى الأمير ، أما البصرى فقد أنكر عليه طاعة الأمير فيما فيه معصية الله واشتد فى الإنكار .

أما مذهب الحسن البصرى الاعتقادى أنه كان يرى رأى القدرية كأكثر زعماء المعتزلة وأكابرهم قال ابو الجعد : سمعت الحسن يقول : من زعم أن المعاصى من الله جاء يوم القيامة مسودا وجهه كما فى قوله تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ** ﴾ وقال داود بن أبى هند : سمعت الحسن يقول : كل شىء بقضاء الله وقدره إلا المعاصى وهذا هو بعينه رأى المعتزلة فى القدر .

وكانت وفاته بالبصرة سنة ١١٠هـ ، وتبع الناس كلهم جنازته ، واشتغلوا بشأنه حتى لم تقم صلاة العصر فى المسجد فى ذلك اليوم ، وكانت هذه أول مرة وقع فيها هذا الحادث منذ كان الإسلام .

أبو إدريس الخولانى :

أبو إدريس الخولانى عائذ الله بن عبد الله ، أحد من جمع بين العلم والعمل ، أخذ عن معاذ بن جبل وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، كان واعظ أهل دمشق وقاصهم وقاضيهم ، قال الزهرى : كان أبو إدريس من فقهاء الشام توفى عام ٨٠هـ وطاوس بن كيسان اليمانى الجندى من الأبناء سمع زيد بن ثابت وعائشة وأبا هريرة وغيرهم ، وكان رأسا فى العلم والعمل والوعظ قال عمرو بن دينار : ما رأيت أحداً مثل طاوس . وقال الذهبى : كان طاوس شيخ أهل اليمن وبركتهم وفقيههم ، له جلالة عظيمة ، وكان جريئا فى وعظ الملوك والأمراء وكان كثير الحج ومات بمكة سنة ١٠٦ هـ .

عمر بن ذر بن عبد الله وابن السماك :

أما عمر فهو ابن ذر بن عبد الله بن زرارة الهمدانى المرحبى الكوفى ، وكان يكنى أبا ذر وهو ثقة فى الحديث ، روى له البخارى وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة ووالده أبا ذر عبد الله يكنى أبا عمر ثقة أيضا من أقران النخعى وسعيد بن جبير روى له

الجماعة ، وكان عمر قاصا بليغا مؤثرا إذا وعظ بكى وأبكى الناس قال ابن السماك : لما دفن عمر ابنه ذر وقف على قبره فبكى وقال: اللهم إنى أشهدك أنى قد تصدقت بما تثيبنى عليه من مصيبتى فيه عليه فأبكى من حضر ، ثم قال: شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك ثم ولى وهو يقول: انطلقنا وتركناك ، ولو أقمنا ما نفعناك ، ولكن أستودعك أرحم الراحمين مات سنة ١٥٣هـ .

أما السماك فهو أبو العباس محمد بن صبيح مولى بنى عجل المعروف بابن السماك القاص الكوفى ، كان زاهدا عابدا حسن الكلام صاحب مواعظ ، جمع كلامه وحفظ ولقى جماعة من الصدر الأول وأخذ عنهم مثل هشام بن عروة ، والأعمش ، وروى عنه أحمد بن حنبل وأنظاره ، قدم بغداد زمن هارون الرشيد ثم رجع إلى الكوفة فمات بها سنة ٣٨٣ هـ ، ومن كلامه ، خف الله كأنك لم تطعه ، وارج الله كأنك لم تعصه ، وكذلك: من جرعته الدنيا حلاوتها بميله إليها جرعته الآخرة بمرارتها بتجافيها عنه ، ومنه: خير الإخوان أقلهم مصانعة فى النصيحة ، وخير الأعمال أحلاها عاقبة ، وخير الثناء ما كان على أفواه الأخيار ، وأشرف السلطان مالا يخالطه البطر ، وأغنى الأغنياء من لم يكن للحرص أسيرا ، وخير الإخوان من لم يخاصم ، وخير الأخلاق أعونها على الورع وإنما يختبر ذل الرجال عند الفاقة والحاجة ، وأخباره ومواعظه كثيرة وموافقه المأثورة عديدة ومؤثرة فى النفوس الطيبة .

سفيان الثورى:

هو أبو عبد الله سفيان بن سعد الثورى الكوفى ، كان إماما فى الحديث وغيره ، أجمع الناس على دينه وورعه وزهده وتقاه وثقته ، وهو أحد الأئمة المجتهدين ، والدعاة الراشدين الناصحين ، كان يعظ الناس ويرغبهم فى الدين ، وكان الناس يختلفون إليه للانتفاع بعلمه فى دينهم ودنياهم ، توفى بالبصرة سنة ١٦١هـ ولقب بالثورى نسبة إلى ثور بن عبد مناة من أجداده .

ابن الجوزى:

عالم وواعظ العراق وهو أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى البكرى البغدادى الفقيه الحنبلى الواعظ الملقب جمال الدين الحافظ ، كان علامة عصره

وإمام وقته فى الحديث والوعظ صنف فى فنون عديدة ، وله فى الوعظ المؤلفات المفيدة ومحاسنه كثيرة ، توفى رحمة الله عليه سنة ٥٩٧ هـ .

وغيرهم من العلماء والواعظين مثل ابن سمعون وهو أبو الحسن محمد بن أحمد ابن إسماعيل الواعظ البغدادى ، كان وحيد دهره وعصره فى ، الكلام على الخواطر وحسن الوعظ ولطف العبارة ، توفى ببغداد سنة ٣٨٧ هـ وغيره شذيلة الواعظ ، وهو أبو المعالى عزيزى بن عبد الملك بن منصور الجيلانى الفقيه الشافعى ، كان واعظا ماهرا فصيح اللسان وحلو العبارة كثير المحفوظات ، صنف فى الفقه وأصول الدين والوعظ توفى ببغداد سنة ٤٩٤ هـ .

والكثير منهم كان يسلك فى دعوة الناس وهدايتهم منهج الكتاب والسنة وبعضهم كان كثيرا ما يستعين فى التذكير بضرب الأمثال وقصص الأولين ، وقد غلب ذلك على البعض حتى عرفوا باسم القصاص حتى استسهله بعض الدخلاء واسترسل فيه إلى أن نسى معه المقصود ، والهدف السامى من الإرشاد والوعظ والقصص ذات تأثير دينى على السامعين من حياة السلف الصالحين ، فكان بعض من أوتى ذلاقة فى اللسان وقوة فى البيان يعتمد على هذا الغرض أو الطريق ويتصدى للوعظ مع قلة بضاعته العلمية ومعلوماته الدينية ، فيختلس من العامة إجلالا لاحق له فيه ، وكان ذلك يثير عليه من معارضة المنافسين له ما يكشف خبيئته ويبين عدم مقدرته ويظهر جهله ، ولابد لنا أن نحذر من هذه الصفة فلابد من أن يكون الواعظ دارسا لأمور الدين فى ظل كتاب الله وسنة رسولهﷺ ، لا يكون جاهلا بهما ويتمتع بحسن اللسان وقراءة الخطابة دون علم ، أو ذا علم ناقص غير كافى كى يكون واعظا ناصحا للناس .

كما أدى ذلك حينذاك انصراف كثير من العلماء عن التصدى إلى إرشاد الناس ، وعكفوا على تحقيق المسائل العلمية مكتفين بمن يعرف فضلهم ويغترف من بحار علمهم ، فأصبح العلم محصور بين طبقة خاصة ، وتركوا جمهور الأمة لمن يتصدى لإرشادهم من ذوى البضاعة المزجاة ، ويا ليتهم مع هذا أحسنوا العمل وأخلصوا فى القيام بهذه الوظيفة الخطيرة بل كانوا يريدون بها الارتزاق ، فجر ذلك إلى سقوطهم وانحطاط القيمة وانصراف الناس عنهم وضياع روح التأثير والانتفاع ، ومن هنا أخلت العامة من أيدى العلماء ، وأصبح الفريقان يتلاومون ويتناكرون فهؤلاء يقولون : ما بال

الناس قد ثقل عليهم أمر الدين وانصرفت نفوسهم عن الهدى والوعظ والإرشاد ؟ وأولئك يقولون: أين العلماء الذين يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ؟ أين حماة الدين المصلحون الذى يصلحون الفاسد ويقومون المعوج .

وزاد الأمر سوءا بميل الأمراء والحكام إلى إقصاء ذوى الغيرة من العلماء فرارا من قيودهم ، ولكيلا يزاحموهم فى المكانة التى استأثروا بها فأبعدوا المخلصين الصادقين فى التمسك بالدين ، وقربوا المنزلفين المسهلين لهم رغائبهم المسارعين إلى هواهم ، فزاد هذا انشغال العاملين على ممارسة العلوم منهمكين فى أنواع العبادة ، واجدين لذلك من اللذة الروحية ما أنساهم الحياة ومتعتها ، حتى استلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحشه المنعمون فقالوا: نحن فى لذة لو علمتها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف . .

وكان الإقبال على الدعاة والواعظين والتعلق بهم موجودا فى كل عصر ، على قلته وعدم وفائه بحاجة الأمة ، وكان الناس يعززون العلماء ويوقرونهم ويقرون لهم بمنزلة خاصة ، ويعتقدون فيهم أنهم حفظه الدين وحراسة ، ولا زال أمر الإرشاد يتراجع إلى الوراء حتى لم يبق منه إلا اسمه ورسمه والأمة تتدهور فى أخلاقها وتتأخر فى معرفة دينها حتى ضلت سواء السبيل وتاهت فى تيه الهوى ، وأصبح المعروف منكرا والمنكر معروفا ، وسبب ذلك هو من سكوت رجال الدين ، وقلة الراشدين إلى كلمة الحق والدين ، وإهمال الحكام فى تنفيذ أوامر الدين ، ولا يغنى رجال الدين عند الله عذرا أو عند الناس أن يلقوا كل الخطأ على عاتق ولاة الأمور والحكام إذا هم لم ينصرون الدين ، أو يلقوه على الأغنياء إذا هم قبضوا أيديهم عن المساعدة بمالهم ، أو على العاصين والفاجرين إذا هم تعدوا حدود الله ، وتمردوا على شرع الله سبحانه وتعالى ، فقد علمهم الله كيف يدعوا إلى الدين وإلى الخير وإلى كلمة الحق ، وعلمهم أن العلم النافع متى اقترن بالإخلاص لابد أن يلمس القلوب والعقول ، ويؤثر فيها حتى لو كانت هذه القلوب والعقول قاسية مغلقة لا تريد النور أن يدخلها ويزيل عنها ظلام الجهل ، بعبادة الله حق عبادته ، وعلمهم أن الحق هو المنصور دائما حتى ولو قل أهله ، وأن الباطل لا يثبت فى وجه الحق أبدا وإن كثرت أنصاره ، قال الإمام على كرم الله وجهه: لا قيام للباطل إلا فى غفلة الحق ، وقال بعض العلماء الحكماء: قليل الحق

يدفع كثير الباطل ، كما أن قليل النار يحرق كثير الحطب .

فيجب على العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فى العلم والحكمة أن يدعو إلى الخير كما هى صفتهم ، ويرشدون الناس إلى طرق الهدى والرشد بالجد والجهد ، بل جرت سنة الأنبياء والمرسلين والسلف الصالح على دعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مهما كان ذلك يجلب عليهم التعب والمشقة والمكاره والخوف ، وكم قتل فى سبيل ذلك فكانوا أفضل الشهداء ، روى أبو داود عن أبى سعيد مرفوعا: «**أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر**» فلا يظلم العلماء من يقول لهم قوموا بواجبكم ، وأدوا الأمانة التى فى أعناقكم إلى أهلها بعد إيمانهم بقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ لا يمس كرامة السادة العلماء من يصوب نحوهم سهام اللوم فى تخليهم عن إرشاد الأمة ، حتى غلبهم عليه الدخلاء الذى لا بضاعة لهم فى العلم والدين ، ولا يمس كرامتهم من يقول لهم: أنتم رعاة الأمة فى تصحيح عقائدها وصيانة الدين وكل راع مسئول عن رعيته .

لذلك لابد من الوعظ الدائم والإرشاد المستمر لدين الله وتعاليم سنة النبى الكريم ﷺ، فهى مسئولية أصحاب العلم والدين ، فإن أهملوها تولاها غيرهم من الجهلاء الذين لا يفقهون شيئا فى الدين فيدمرون الأمة الإسلامية وشبابها ، ولا نريد أن نكون مثل ما جاء فى هذا البيت :

ومـن رعى غنما فى أرض مسبعــة   ونام عنها تولـــى رعيهـــا الأســـد

****

الوعظ والإرشاد

الوعظ والإرشاد به ثلاثة بنود: وعظ وتذكير وقصص ، فالوعظ: هو الموعْظة والعَظة النصح والتذكير بالعواقب والترغيب ، إما بالزجر أو الترهيب قال أحد العلماء: هو تذكيرك الإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب يقال: وعظته فاتعظ إذا أثرت فيه الموعظة ، وفى الاصطلاح: يطلق على القول الحق الذى يلين القلوب ويؤثر فى النفوس ويكبح جماحها ، ويزيد النفوس الطيبة المهذبة إيمانا .

والتذكير: تعريف الخلق بنعم الله عز وجل عليهم ، وحثهم على شكره ، وتحذيرهم من مخالفته ، والتذكر يقال له الاتعاظ ؛ لأنه يتعظ منه المرء قال تعالى: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى ﴾ .

والقصص: تتبع قصة ماضية بالحكاية عنها وشرح ما جاء فيها من عبرة ودروس مستفادة ، وكان يسمى من يقوم بذلك فى الصدر الأول للإسلام بالقصاص ، وهو عمن يروى أخبار الماضين السابقين ليتعلموا منهم السامعين له .

وأما الإرشاد: فهو الهداية إلى الطريق المستقيم الذى يصل بالناس إلى الخير والنجاة مع الله تبارك وتعالى ، وغاية الوعظ والإرشاد: صلاح المعاش والمعاد والفوز بسعادة الدارين ، وهو متعلق بطب الأرواح وعلاج النفوس .

ويشرف فن الوعظ والإرشاد على بقية فنون الخطابة بالآتى:

١ - أنه وظيفة الأنبياء والمرسلين ومن على سننهم من العلماء والهداة ، الراشدين والعظماء المجاهدين .

٢ - إنه يتعلق بأشرف الأمور وأخطرها وهى الأمور الروحية .

٣ - التحلى بالفضيلة والتخلى عن النقيصة ، ثم الفوز بالسعادة الدائمة وسعادة الدارين .

كما أن للوعظ والإرشاد أثرهما فى تهذيب النفوس ، فمن المعلوم أن إذا لم يعالج المرض ولم يسعف استفحل وزاد ألمه على صاحبه وربما يقضى على حياته ، وكذلك المرض الروحى الذى يمرض القلوب والنفوس الذى يأتى من الغى والضلال

والانهماك فى اللذات والشهوات والتهاون بالأوامر والنواهى وعدم المبالاة بأنواع الفسوق والفجور وسيئات البدع وارتكاب كل ما لا يرضاه العقل والشرع من الأفعال الخارجة عن ضوابط الشرع والدين ، فمن هذه الأفعال تمرض القلوب قال عز وجل : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ وذلك بإصرارهم على المعاصى وتسويف التوبة ، حتى يطبع على قلوبهم فلا تقبل الخير ولا تميل إليه ، وكان هذا هو الصدأ الذى يكون على القلوب من كثرة الذنوب ، ولا دواء لها إلا بالشرع وأموره التى يذكرهم بها ويعلمونهم بها الواعظين الراشدين الناصحين من الكتاب والسنة ، فبهذا النصح والإرشاد تصح النفوس وتبرأ القلوب وتسلم من المخاطر وترجع إلى صوابها ورشدها .

وبالوعظ والإرشاد تتهذب النفوس وتتنبه العقول من غفلتها وتصحو من رقدتها قال الحكماء: "الموعظة موقظة للقلوب من سنة الغفلة ومنقذة للبصائر من سكرة الحيرة ، ومحيية لها من الموت (موت الجهالة) ومستخرجة لها من ضيق الضلالة" فالإرشاد هو العلاج الوحيد ، والدين الحنيف هو الدواء المفيد لشفاء أمراض القلوب ، ولا ريب أنه إذا تركت هذه الأمراض بلا علاج استفحل أمرها ، ومتى أهمل تطهيرها من أدران النقائض والرذائل عظم خطرها وانتشر الفساد وهلك العباد ، ويحيا المجتمع بانتشار الوعاظ والخطباء فيه ، فالواعظ الماهر والخطيب الحكيم يستطيع أن يصحح القلوب من أمراضها بما وهبه الله من نور الحكمة والبرهان وقوة بيان ، فإنه ينبه العقول من غفلتها ويطهر النفوس ، وينير أمامها الطرق الموصلة إلى الرشد حتى ترجع عن غيها وتعود إلى الصلاح ، وتتحلى بالفضائل والأخلاق الحميدة ، فتكون لها سعادة الدارين . ونسأل الله العفو والعافية .

* * * * * * * *

القصاص فى الإسلام

كما ذكرنا هم الذين يقصونه على الناس ويكون من علمهم التفسير والأثر والخبر عن الأمم الماضية وغيرهم ، حيث ينقلون ذلك موعظة واعتبارا ، كما كانوا يقصوا على المقاتلين أخبار الشهداء وفضائلهم ، وما وعدوا به فى الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ليحمسوهم بذلك على قتال العدو ، وحتى لا يفزعوا منه ، وكان ذلك دأب الحجاج الثقفى أمير العراق لبنى أمية فى حروبه ؛ لأن أكثر من قاتلهم كانوا من المستمتين ديانة أو حمية كالخوارج ، والناقمين عليه وعلى بنى أمية من العرب .

ولم يكن القصص فى زمن النبى عليه الصلاة والسلام ، ولا زمن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وذلك لاجتماع كلمة المسلمين ، وقرب عهدهم بالنبوة ، وإنما كان القصص فى عهد معاوية رضى الله عنه بدايته حين كانت الفتنة بين الصحابة ، وكان قاصرا على الموعظة الحسنة والتذكير ونحوه ، أخرج الزبير بن بكار فى أخبار المدينة عن نافع وغيره من أهل العلم قالوا: لم يقص فى زمان النبى ﷺ ولا زمان أبى بكر ولا زمان عمر ، وإنما القصص محدث أحدثه معاوية حين كانت الفتنة ، وأخرج ابن أبى شيبة والمروزى عن ابن عمر قال: لم يقص فى عهد النبى ﷺ ، ولا عهد أبى بكر ، ولا عهد عمر ولا عهد عثمان ، إنما كان القصص حين كانت الفتنة ، وفى التخريج الكبير للعراقى من رواية الزهرى عن السائب فيما أخرجه أحمد والطبرانى إلى قوله: "زمن أبى بكر" ثم قال: "وأول من قص تميم الدارى استأذن عمر بن الخطاب أن يقص قائما فأذن له" ، وعلى ذلك قال بعض العلماء: إنه كان قليلا أو لعله كان قليلا فى زمن عمر وعثمان ثم كثر بعدهما ، وأول من قص من الصحابة هو الأسود بن سريع ، وكان يقول فى وعظه إذا ذكر الموت وخاطب الميت ومن قوله:

فإن تنـج منهـا تنج من ذى عظيمـة ... وإلا فإنـــى لا إخالـك ناجيـــا

وأول من قص من التابعين فى مكة عبيد بن عمير الليثى ، وقد حضر مجلسه عبد الله بن عمر وسمع منه ، فكان ذلك داعيا لإقبال الناس فى استماع القص لمكان ابن عمر من الدين والورع ، وقد أقرته كذلك عائشة رضى الله عنها ، حدث عطاء قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير عليها فقالت: من هذا . فقال: أنا عبيد بن عمير قالت:

قاص أهل مكة ؟ قال: نعم ، قالت: خفف فإن الذكر ثقيل ، وقد اتخذ معاوية رضى الله عنه قاصا كان يجلس إليه إذا فرغ من صلاة الفجر ، وأول من لزم القص فى المسجد (مسجد المدينة) مسلم بن جندب الهذلى إمام أهل المدينة وقارئهم وفيه يقول عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: من سره أن يسمع القرآن غضا فليسمع قراءة مسلم بن جندب ، ثم كان أول من قص بالبصرة بمسجدها هو جعفر بن الحسن رضى الله عنه ، وأول من أقرأ القرآن فيه .

لم يكن القص فى القرن الأول مرذولا ؛ لأن فنونه إنما كانت ترجع إلى القرآن وسنة النبى ﷺ ، ولم يكن يشوبه شىء إلا ما كان يسمونه بالعلم الأول وهو ما يتعلق بأخبار الأمم السابقة ، وأكثره كان عن من أسلم من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام الذى أسلم عند هجرة النبى ﷺ ، وكعب الأحبار الذى أسلم فى خلافة عمر بن الخطاب فكان القصص مما يتعلق بالأمم وأخبار الأنبياء .

ولما كان القرن الثانى وانتهى عصر كبار الوعاظ والقصاص من التابعين ، نشأت الطبقة التى أخذت عنها العامة ، وقد اضطربت الفتن وكثر الكلام وفشت الأكاذيب فى الحديث وأخبار العرب والسيرة ، فصار هم القاص وهدفه أن يجىء بالغرائب والرقائق ؛ لأن أهل العلم انصرفوا إلى حلقات الرواية ، ولم يبق فى حلقات القصاص إلا العامة ، فمن ثم ساءت المقالة فيهم كما عرضنا سابقا ، وصار القاص عند أولى العلم أحمق محرفا ، إلا قليلا ممن استوعبوا وظهروا هؤلاء بعد الحسن البصرى رحمة الله عليه ، وكان أولهم موسى بن سيار الأسوارى ، قال الجاحظ: وكان من أعاجيب الدنيا كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، حيث كان يجلس فى مجلسه العرب عن يمينه والفرس عن يساره فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، ولم يكن فى الأمة بعد أبى موسى الأشعرى أقرأ فى محراب من موسى بن يسار ، ثم عثمان بن سعيد بن أسعد ، ثم يونس النحوى ، ثم المعلى ، ثم قص فى مسجده بالبصرة أبو على الأسوارى وابتدأ لهم فى تفسير سورة البقرة ، فما ختم القرآن حتى مات حيث كان له تأويلات واسعة ، فكان ربما يفسر آية فى عدة أسابيع ؛ لأنه كان يحفظ الكثير من الأحاديث الدالة على تفسير نفس الآية أو فى نفس دليلها وموقفها التى نزلت فيه ، وكان يقص فى فنون

كثيرة من القصص ويجعل للقرآن الكريم نصيبا طيبا من ذلك .

وقد اختلف الكثير من السلف فى مدح وذم القصاص فبعضهم يحرض على الحضور عندهم ، وبعضهم ينهى عنه ذلك ، ومن هنا نقول : إن القصص نوعان :

النوع الأول: القصص المذموم ، والثانى : القصص المحمود ، والنوع الأول هو الاشتغال بالقصص والحكايات عن الأمم السابقة التى يتطرق الاختلاف والزيادة والنقصان وتخرج عن القصص الواردة فى القرآن الكريم وتزيد عليها ، فإن ذلك مما يندر صحته خصوصا ما ينقل عن بنى إسرائيل مما لا يقره عقل ولا يؤيده نقل كإسرائيليات الخازن ، وبدائع الزهور فكان هذا مذموما لما فيه من الكذب ، وإن كان فيه صواب فالأسلم البعد عنه ، فإن من فتح الباب على نفسه اختلط عليه الصدق والكذب والصواب والخطأ والنافع والضار ، فمن هنا نهى عنه . قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : ما أحوج الناس إلى قاص صادق ، فإن كانت القصة من قصص الأنبياء والمرسلين عليهم السلام فيما يتعلق بأمور دينهم وكان القاص صادقا صحيح الرواية فلست أرى به بأسا .

والنوع الثانى: الاشتغال بحكاية أحوال تومئ إلى هفوات أو مساهلات يقصر فهم العوام عن درك معانيها ، أو عن كونها هفوة نادرة الوقوع ومردفة بما يكفرها ، ومتداركة بحسنات تغطى عليها كما هو المعهود فى حضرات السلف ، فإن العاصى يعتصم بذلك فى مساهلاته وهفواته ويمهد لنفسه عذرا فيها ، ولكى يكون هذا النوع محمودا لابد أن يكون القاص فيه لا ينقص ولا يزيد عن ما جاء فى كتاب الله ، والأحاديث الصحيحة الواردة عن النبى ﷺ حتى لا يضر السامعين بشىء أو يعلمهم خطأ فى الدين ، فإن واظب على الشريعة وما جاء فيها بسند صحيح فلا بأس به وإلا فيكون مذموما .

وللخلاص من خطر القص قال العلماء : لا يجوز لقاص أن ينقل حديث رسول الله ﷺ من غير معرفة بالصحيح والضعيف أو السقيم ، وإن اتفق أنه نقل حديثا صحيحا كان آثما فى ذلك ؛ لأنه ينقل مالا علم له به ، ولا يحل له النقل من كتب التفاسير ؛ لأن فيها الأقوال المنكرة والصحيحة ، ومن لا يميز الصحيح من الضعيف لا

يحل له الاعتماد على الكتب ، فلا يحل لأحد بهذا الوصف أن ينقل حديثا من الكتب بل ولو فى الصحيحين ما لم يقرأه على من يعلم علم الحديث وأهله فقد حكى الحافظ أبو بكر اتفاق العلماء على أنه لا يصح لمسلم أن يقول: قال رسول الله ﷺ : كذا وكذا حتى يكون عنده هذا القول مرويا ولو على أقل وجوه الروايات ؛ لذلك لا ينبغى أن يقص على الناس إلا العالم المتقن فنون العلم الحافظ لحديث رسول الله ﷺ وبروايته الصحيح منه والضعيف ، والعالم بالتاريخ الإسلامى ولسيرة السلف الصالح والزهاد ، وكذلك أن يكون عالم باللغة العربية جيدا على الأقل أثناء إلقاء درسه للناس .

وقبل أن نترك هذه المسألة لابد أن نعلم أن الإسرائيليات ثلاثة أنواع: نوع مقبول بلاشك وهو ما اشتمل عليه الكتاب وصحت به السنة ، ونوع مردود بلا شك وهو ما لا يصدقه العقل ولا يشهد به النقل ، والثالث مجهول الحال وهذا الذى يجب علينا قبل الحكم عليه أن نضعه أولا فى ميزان الشرع والعقل ، فإن أيده الشرع وصدقه العقل قبلناه وإلا تركناه وراء ظهورنا ، ورجعنا إلى كتاب الله عز وجل وسنة النبى الكريم ﷺ ففيهما الكفاية قال الله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ .

* * * * * * * * *

آداب الدعاة وصفاتهم

الدعوة إلى الله هى وظيفة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، والسادة العلماء نواب عن الأنبياء فى هذا الأمر العظيم ، فهم أمناء الله تعالى على شرعه والحافظون لدينه والقائمون على حدود الله ؛ لذلك هم قادة الناس ودليلهم للسير إلى طريق السعادة فى الدنيا والآخرة ، ولما كان العلماء والدعاة قادة للخلق وعليهم مسئولية بالغة الأهمية ، فلهم آداب وصفات لابد أن تكون فى الداعى إلى دين الحق والواعظ الناصح للناس فى توضيح أمور دينهم ، ومعرفتهم الصواب والخطأ فى حياتهم وفيما يختلفون فيه ، وهذه الصفات نذكرها كالتالى:

الصفة الأولى:

هى العلم بالقرآن الكريم والمراد به الرجوع إليه فى كل شىء والنظر فيه قبل كل شىء إلى كونه هدى وموعظة وعبرة ، ثم النظر والرجوع إلى السنة المحمدية وما صح من أقوال الرسول ﷺوسيرته وسيرة الخلفاء الراشدين والتابعين الصالحين ، مع معرفة أسرار التشريع مع الصدق فى نشرها ، فإن مكانة التبليغ عن الله تعالى لم تكن إلا من اتصف بالعلم مع الصدق ، والمرشد وارث لهذه المكانة والمنزلة الرفيعة ، ولابد أن يكون متمكن فى تعليم ذلك على الوجه الصحيح ، فلا يخطأ فى حديث أو آية أو شرح معلومة فقهية ومسندة بحديث صحيح ، أو بآية من القرآن الكريم ، ولا يعجز عن إقناع الناس المتطلعون إلى معرفة أسرار وأحكام الدين والشريعة فيكون الإذعان له أتم ، والقبول منه أكمل ، والجاهل عن العلم بأمور الدين فإنه ضال ومضل بل لا يصلح أصلا إذ لا تمييز لجاهل بين الحق والباطل ، أو معرفة الصواب من الخطأ ، ولا عنده القدرة على تهذيب النفوس ، وكيف ذلك وهو يريد من يهذب نفسه ، أصلا ؟ قال الحسن البصرى: العامل على غير علم كالسائر على غير طريق ، والعامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح والقاعدة تقول: من سلك طريقا بغير دليل ضل ، ومن تمسك بغير أصل ذل .

والداعى الكاذب لا خير فيه ولعنة الله على الكاذبين وجعل الله القول من غير علم من الفواحش فقال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا**

لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وقال عز وجل: **﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾** وهذا بيان من الله تعالى أنه لا يجوز للعبد أن يقول هذا حلال وهذا حرام إلا بما علم أن الله تعالى أحله أو حرمه .

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «**من سئل فأفتى بغير علم فقد ضل وأضل**» وقال بعض العلماء: من العلم ألا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم، فحسبك جهلا من عقلك أن تنطق بما لا تفهم .

وأخرج البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه: «**من علم شيئا فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم**» .

الصفة الثانية :

العمل بما يقول للناس من علم فلا يقول علم لا يعمل هو به أى لا يأمر بالشيء ما لم يكن هو أول عامل به ، ولا ينهى عن الشيء ما لم يكن هو أول تارك له ليفيد وعظه ويثمر إرشاده ، وإن كان يأمر وينهى وهو لا يعمل أولا بما يقول فهيهات أن ينتفع بعلمه أو بما يقول طالما هو يقول المعلومة للناس مثل الببغاء يكرر الكلام ولا يعمل به ؛ فبذلك يكون فاقد الرشد فى نفسه يرشد غيره قال مالك بن دينار: إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته من القلوب كما يزل القطر عن الصفا ، ومثل هذا يسخر الناس منه واستهزؤا به واتهموه فى دينه وعلمه ، وزاد حرصهم على ما نهوا عنه .

والدعوة إلى الله ودينه مبنية على القدوة الحسنة التى يأخذها المتعلم من المعلم ، فإن كان المعلم والداعى قدوة حسنة نفذت دعوته فى النفوس ودخلت القلوب وطهرتها من الأمراض التى سكنت فيها من الجهل والبعد عن الدين ، وإلا كان الداعى والعالم غير ذلك لا يسير على نهج الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ونهج الصحابة والتابعين والواعظين منهم الراشدين قولا وفعلا حسنا قبل القول ، فميله عن طريقهم لا يكون داعيا أبدا ولا عالما ، بل يكون جاهلا حتى لو كان يجيد معرفة الدين دون تطبيق ذلك أولا على نفسه قبل أن يطلبه من الناس فعله ؛ ولذا قيل فى المعنى:

لا تنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويشتفى بالقول منك وينفع التعليم

وقال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ وقال رسول الله ﷺ : «**مثل الذى يعلم الخير ولا يعمل به مثل الفتيلة تضىء للناس وتحرق نفسها**» (رواه الطبرانى بسند حسن) .

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ فهذا وعيد شديد من الله لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهو فى نفسه مقصر ويرتكب المنكر ، كم يكذب أو يخلف ما وعد به ، وعن أسامة بن زيد بن حارثة رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه**» متفق عليه .

إذن فحق الواعظ أن يتعظ ثم يعظ ، ويبصر ثم يبصر ويهتدى ثم يهدى ، ولا يكون دفترا يفيد ولا يستفيد ، وسراجا يضىء للناس ويحرق نفسه ، بل يكون كالشمس تفيد القمر الضوء ولها أفضل مما تفيده ، وكالمسك يطيب غيره وهو طيب فى نفسه .

الصفة الثالثة :

وهى الحلم فلابد أن يكون الداعى إلى الله حليم ذو صدر واسع فكمال العلم فى الحلم ، ولين الكلام مفتاح القلوب ، فبذلك يستطيع الداعى والواعظ أن يعالج أمراض القلوب والنفوس وهو هادئ النفس لا يستفزه الغضب ، ولا يستثيره الحمق فتنفر منه الناس وتشمئز منه قلوبهم ونفوسهم ، وانظر إلى ما قاله الله تعالى لسيدنا محمد ﷺ وهو إمام الدعاة: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ فلو كان الداعى إلى دين الله والواعظ سيئ الخلق قاسى القلب سريع الغضب لا يملك نفسه ، صدره ضيق لا يتحمل أحد من تلاميذه ، أو الذين يلقى إليهم الدرس فأغلظ لهم فى القول تفرقوا عنه وانصرفوا من حوله ، وبذلك يكون قد حرمهم من الهداية وحرم نفسه من الثواب العظيم الذى يكون للعالم الداعى إلى دين الله ، ويهتدى على يديه العاصين وذوى النفوس المريضة المحتاجة إلى داعى رحيم حليم واسع الصدر يتحمل هذا وذاك ، ولا

ينهر أحد فى سبيل أن يصل إلى مراده ، وهو نشر دعوته فى سبيل الله ، وتعليم كل جاهل بدينه يعلمه ويعرفه ماذا له وماذا عليه ، أليس بأمر عظيم يحتاج منك أيها الداعى والواعظ إلى أن تكون حليم هادئ البال والأعصاب ، حقا إنه أمر يستحق منك ذلك فكن كذلك حتى تكون داعيا وواعظا بمعنى الكلمة .

الصفة الرابعة :

القوة فى الإلقاء والتحدث عن الحق فى الجهر دون مهابة أحد ، ولا تأخذه فى نصره دين الله لومة لائم ، فلابد أن يكون شجاعا قويا فى الدعوة إلى الله عز وجل عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: «**بايعنا رسول الله ﷺ على أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم**» (متفق عليه) ، وقال رسول الله ﷺ : «**إذا رأيت أمتى تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم**» (رواه الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما) .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**لا يحقرن أحدكم نفسه**» قالوا: يا رسول الله ، وكيف يحقرن أحدنا نفسه ؟ قال: «**يرى أن لله عليه مقالا ثم لا يقول فيه فيقول الله عز وجل يوم القيامة: ما منعك أن تقول فى كذا وكذا ؟ فيقول خشية الناس فيقول: فإياى أحق كنت أن تخشى**» (رواه ابن ماجة) . فإن كان جبانا عجز عن الأخذ بناصر الحق وعجز عن تغيير المنكر ، وعن تقرب إلى الناس بأنواع المداهنة وتودده إليهم بطرق الود والمودة والفطنة العلمية ، وكذلك الرحمة عليهم فى إلقاء النصح والإرشاد لتغيير منكر يفعلوه ، فالطبيب الرحيم هو الذى إذا عرف المرض فى أى شخص كان بادر إلى علاجه بما يستأصله حرصا على سلامة المريض وهو لا يبالى بكراهة المريض للدواء ، وكرها للعلاج ، وأما إذا عمل الطبيب حساب ذلك وتساهل مع المريض حتى استفحل أمر مرضه مما يؤدى إلى موت المريض ، فإنه بذلك ليس بناصح بل غاش ، ولا يكون حكيما بل يكون بذلك سفيها .

ومعنى المداهنة أى السكوت على المنكر لداعى الهوى لا لأجل الدين ، وهذا ما يفعله السفيه وليس الحكيم الناصح ، فإذا سكت العلماء على المنكرات لداعى الدين كأن يكون فى الإنكار محذور يزيد على محذور السكوت سمى سكوتهم مداراة وهى مطلوبة شرعا .

فلابد أن يستخدم الداعى الكلام الحسن الطيب فى تغيير المنكر وبقوة وشجاعة ، والشجاعة هنا أن القدرة على الحديث فى هذا الأمر دون حرج ، وليس معناها أن يتهجم على الناس بألفاظ غليظة وأفعال تجعل الناس ينفرون من الداعى ، وبذلك لم يتم المقصود من دعوته وهى تغيير المنكر وعلاج نفوس الناس المريضة روحياً ، وهذه صفة لابد أن يمعن الداعى النظر فيها ، وينظر أيضا إلى نفسه وأسلوبه فى مخاطبة الناس هل هو مقبولا عندهم بأسلوبه أم أنهم يجزعون منه ، فإن كانوا يجزعون فعليه من تغيير أسلوبه معهم .

الصفة الخامسة :

أن يكون الداعى الواعظ الناصح عفيفاً لا ينظر إلى ما فى يد الناس وييأس منه ، فمن يئس مما عند الناس استغنى عنهم فيبقى سيداً محبوباً جليلاً مهيباً ينتفع به ، أما كان غير ذلك ولم تكن فيه صفة العفة وتطلع إلى ما فى أيدى الناس ، فقد باع دينه بدنياه وصار لديهم محقراً ممقوتاً ثقيلاً مرذولاً ، وهذا بلا ريب هو السقوط الذى لا خلاص منه والفقر الذى لا غنى معه .

وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ، أوصنى وأوجز فقال : «**عليك باليأس مما فى أيدى الناس فإنه الغنى ، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر ، وصل صلاتك وأنت مودع ، وإياك وما يعتذر منه**» (رواه العسكرى والحاكم) .

وقال أبو الحسن البصرى رحمة الله عليه : لا يزال الرجل كريماً على الناس حتى يطمع فى دينارهم ، فإذا فعل ذلك استخفوا به وكرهوا حديثه وأبغضوه .

فالواجب على الواعظ الراشد نزاهة النفس عن شُبه المكاسب ، والاكتفاء بالميسور عن ذل المطالب ، فإن شبه المكتسب إثم وكد الطلب ذل ، والأجر أجدر به من الإثم ، والعز أليق به من الذل .

الصفة السادسة :

القناعة فى الدنيا والرضا بما هو مقسوم له ، فإن كان حريصا على الدنيا منهمكا فى طلبها كانت حاله هذه داعية الترغيب فى حبها وحب الدنيا رأس كل خطيئة ،

وبذلك يكون الداعى مفسدا لا مصلحا وضارا لا نافعا ، كان محمد بن واسع البصرى رحمه الله يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول: من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد ، وقال بعض الحكماء: وجدت أطول الناس غما الحسود ، وأهنأهم عيشا القنوع ، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع ، وأخفضهم عيشا أرفضهم للدنيا ، وأعظمهم ندامة العالم المفرط .

وقال سفيان الثورى: العالم طبيب هذه الأمة ، والمال داؤها ، فإذا كان يجر الداء إلى نفسه فكيف يعالج غيره ؟ والعيان أصدق شاهد على ذلك فإنك ترى أنه على قدر قناعة العلماء فى الدنيا تكون مكانتهم فى نفوس الناس والتفافهم حولهم والاستماع لنصائحهم والانقياد لإرشادهم وعلى قدر تعلق العلماء بالدنيا تكون الناس زهادة فيهم ، وتنزع الثقة منهم والنفرة منهم فلا يسمعون لهم قولا ولا يقبلون منهم نصيحة أو إرشاد ، فلابد للواعظ الناصح أن يكون بصيرا على نفسه ويزهد فى الدنيا وحبها ، حتى يكون مسموع النصيحة والإرشاد عند الناس .

الصفة السابعة:

وهذه صفة لا غنى عنها فى الداعى وهى قوة البيان والفصاحة ، وإلا كان النفع بعيدا بل كان مثال الخزى والعار على الإرشاد وأهله ، حيث إن كلما اللسان أبين ؛ والقلب أشد استبانة ، كان ذلك أقوى وأكمل ، وقد سأل موسى عليه السلام ربه حجة البيان والإفصاح حين بعثه ربه إلى فرعون بإبلاغ رسالته فقال حين ذكر العقدة التى كانت فى لسانه ما جاء فى الآية الكريمة: ﴿ **وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي** ﴾ وقال أيضا ما جاء أيضا فى الآية الكريمة: ﴿ **أَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي** ﴾ وكذلك الآية: ﴿ **وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي** ﴾ ، رغبة منه عليه السلام فى غاية الإفصاح بالحجة والمبالغة فى وضوح الدلالة لتكون النفوس والعقول والقلوب إليه أسرع إلى الإيمان به ، ودعوته إلى الله سبحانه وتعالى .

وذكر الله عز وجل عظيم منته فى تعليم البيان فقال سبحانه وتعالى: ﴿ **الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾ فالفصاحة والبيان هما لا غنى عنهما فى شخصية الواعظ الناصح ، فبدونهما لا يستطيع تبليغ ما يريد إلى قلوب وعقول سامعية ومن كان بارعا فيهما مع صدق قوله وعمله نال التفاف الناس حوله وسماع

نصائحه ، وبذلك يكون داعيا إلى الله ودينه الحنيف .

الصفة الثامنة :

أن يكون قوى الثقة بالله فى وعده والثقة فى الحصول على الفائدة مهما طال به العلاج وعظمت المصاعب أمامه ، فإذا تمكن ذلك منه انبعثت همته وقوى نشاطه وتنبه إلى انتهاز كل فرصة بما يناسبها موقنا بأنه لم يظهر تأثيره اليوم ، فغدا يظهر مؤمنا بأن الباطل زهوق ، ولابد من يوم يتغلب فيه الحق على الباطل .

ورسول الله ﷺ وهو سيد وإمام الداعين إلى الله لم يجزع أبدًا ، ولم يئن عزمه عن الدعوة إلى الله جل شأنه ، فكان يقابل عناد أهل الضلال والعناد وكانوا يقابلونه بالإنكار وإيقاع الأذى به وبأصحابه المجاهدين ، بل ثابروا عليها ، وفى نهاية الأمر كان الظفر والنصر لهم لرسول الله ﷺ وأصحابه على هؤلاء المعاندين الكافرين ، وحقق الله لرسوله ما وعد قال عز وجل: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾** ونصر الله هو العمل بدينه والدعوة له وتحمل الأذى والمصاعب من أجل إعلاء كلمتى الحق والدين فلابد أن ينصر الله هؤلاء القوم لأنهم نصروه .

الصفة التاسعة :

التواضع وعدم العجب بالنفس والمظهر والمكانة فذلك بالواعظين الناصحين أليق ، ولهم أوجب ؛ لأن التواضع يجمع الناس حول الدعاة والعجب يجعلهم ينفرون منهم وهو بكل أحد قبيح ، وبالواعظين المرشدين أقبح ؛ لأنهم هم قدوة للناس وإليهم ينظرون ويقلدون وكثيرا ما يداخل بعض العلماء الإعجاب لتوحدهم بفصيلة العلم ، فلابد لهؤلاء أن يعلموا جيدا أن التواضع لهم واجب عليهم الاتصاف به ومجانبة العجب بهم أحرى ؛ لأن العجب نقص ينافى الفضل ، لاسيما مع قول الرسول ﷺ: «**إن العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**» . وقد روى ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**قليل العلم خير من كثير العبادة ، وكفى بالمرء علما إذا عبد الله عز وجل ، وكفى بالمرء جهلا إذا أعجب برأيه**» ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**» (رواه مسلم) .

وقال عليه الصلاة والسلام لأبى ثعلبة حين ذكر آخر هذه الآمة وما تؤول إليه من الحوادث: «**إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذى رأى رأيه فعليك نفسك**» (رواه أبو داود والترمذى وحسنه) .

وقال سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه: وجدنا الكرم فى التقوى والغنى فى اليقين والشرف فى التواضع ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون فيه ليتواضع لكم من تعلمونه ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم ، وقال بعض الحكماء: من تكبر بعلمه وترفع وضعه الله به ، ومن تواضع بعلمه رفعه الله به ، وقال ابن المبارك: رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك فى نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك عليه بدنياك فضل ، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك فى الدنيا حتى تعلمه أن ليس له بدنياه عليك فضل ، وأخيرا قال ابن العميد:

من شاء عيشا هنيئا يستفيد به ... فى دينه ثم فى دنياه إقبالا
فلينظرن إلى من فوقه أدبا ... ولينظرن إلى من دونه مالا

يا أخى الداعى إياك والعجب ، وكن متواضعا يحبك الناس ويلتفون حولك راغبين فى علمك ، وتكون ذو دعوة إلى الله ناجحة ، وتكون أيضا سعيدا فى دنياك وأخراك بإذنه تعالى .

الصفة العاشرة:

عدم البخل بالتعليم عن ما يريد العلم منه ، ولا يمتنع عن أن يعلم أو يجيب عن علم نافع ، فإن البخل به ظلم وإثم ، وكيف يكون الداعى الراشد الناصح بخيلا وقد أكرمه الله بالعلم وجاد عليه به وأتاه الله من غير بذل ؟ وكيف يجوز له الشح بما لو بذلوه لزاد ونما وإن كتمه تناقص وانتهى ، وقال الله تعالى: **﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾** ، وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «**لا تمنعوا العلم أهله فإن ذلك فساد دينكم والتباس بصائركم**» ثم قرأ الآية: **﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾** .

وروى البخارى وابن ماجة وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: «**لولا أية فى كتاب الله تعالى ما حدثت أحدا بشئ أبداً**» وقرأ الآية السابقة . والكتم وكتمان العلم ترك إظهار الشئ قصدا مع مساس الحاجة إليه وتحقق الداعى إلى إظهاره ، والبينات الواضحة الآيات الدالة على الحق ومن ذلك ما أنزل على موسى وعيسى فى أمر سيدنا محمد صلوات الله عليهم أجمعين ، والهدى كل ما يهدى إلى وجوب إتباعه ﷺ والإيمان به وهى الآيات الشاهدة على صدقة صلوات الله عليه والعطف باعتبار التغاير فى المفهوم ، ويلعنهم الله يبعدهم عن رحمته ، ويذيقهم عذابا أليما ويلعنهم اللاعنون يدعو عليهم بالإبعاد عن رحمة الله كل من يتأتى منه اللعن من الملائكة والجن والإنس والآية كما نرى تدل على ضرورة وجوب إظهار علم الشريعة وحرقة كتمانه .

وروى عن النبى صلوات الله وسلامه عليه: «**من علم علما فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من النار**» (أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «**من سُئِلَ عن علم فكتمه جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار**» (رواه الطبرانى) .

وروى عن النبى ﷺ قال لعلى كرم الله وجهه: «**يا على ، لأن يهدى الله بك رجلا خير مما طلعت عليه الشمس**» (رواه الجميع إلا واحد) .

الصفة الحادية عشرة:

الإمساك عن فضول الكلام وكثرة الإشارة ، والحركة فيما يستغنى عن الحركة فيه فلابد أن يكون ذو وقار ورزانة ، والإصغاء عند الاستفهام له بسؤال ، والتوقف عند الجواب وعدم التسرع ، والتحفظ من التبذل بالهزل القبيح ، ومخالطه أهله وحضور مجالسه ، وعليه أيضا ضبط لسانه من الفحش ، والمزاح السخيف وخاصة فى المحافل ومجالس المحتشمين المحترمين ، فلا كرامة لمبتذل ، ولا عظمة لمن يسرف فى المزاح ويفحش فيه ، والإقلال من الظهور بين الناس بغير حاجة ، والترفع عن الجلوس فى قوارع الطرق والأسواق من غير ضرورة ، فإن الإكثار من ذلك مخل بكرامته ، فإن أعظم الناس قدرا عند الخلق من ظهر اسمه وخفى شخصه .

الصفة الثانية عشرة:

أن الداعى والواعظ يكون كبير الهمة عالى النفس يستصغر ما دون النهاية من معالى الأمور ويترفع عن الدنايا ويغضب عند الأحساس بالنقص ، ويغار لانتهاك الحرمات ليتحقق فيه مقام الوراثة فإن الواعظ مصلح داعى إلى الله تبارك وتعالى ، وكلما كان الداعى أقوى نفسا وأعلى همة كان فى ذلك أمضى وعليه أقدر ، ومهما نقص فى ذلك نقص من تأثيره فى نفوس السامعين له .

الصفة الثالثة عشرة:

عليه بالصبر فى الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، فإن الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين نجحت دعوتهم إلى الله بالصبر ، وظفروا بنصر الله لهم بالصبر والتحمل فى سبيل الله ، قال تعالى: ﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ** ﴾ وقال الله تعالى: ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ** ﴾ أمره الله تعالى بالثبات فى مقام الدعوة إليه ، والصبر على ما كان يصيبه فى الله من أذى المكذبين المعاندين من قومه ، والاقتداء فى هذا الثبات بأرباب الجد والصبر على القيام بأمر الله من رسله الذين لم يضعف من عزائمهم ، فى مقام الإرشاد ما كان ينزل بهم من ضروب الأذى وأنواع الشدائد ؛ ولذلك لابد للواعظين أن يقتدوا بأرباب الدعوة إلى الله وهم رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ويسيروا فى نفس طريقهم الذى ساروا فيه بالصبر والاحتمال على الشدائد والصعاب التى وجدت فى طريقهم لتبليغ دعوة الله ، فلابد على كل واعظ وداعى إلى الله أن يتحلى بالصبر وقوة الاحتمال حتى يستطيع الاستمرار فى تعليم الناس وفى تغيير المنكر الذى يحتاج تغييره إلى صبر وقوة وإيمان ورجاحة عقل وحسن خلق ، فبدون ذلك يترك الواعظ سريعا ساحة العلم من غير أن يترك فيها بصمة له فى قلوب الناس بعلمه ينتفعون بها فى الدين والدنيا . قال الله تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ .

الصفة الرابعة عشرة:

التقوى والأمانة والتحرز بطاعة الله عن مساخطه ، فإنها صفة المورث الذى هو خلف عنه قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ**

لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان يقول: «**اللهم إنى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى**» (رواه مسلم) ، فلا يصح أن يكون فاسقا فى دينه قبيحا فى سيرته ، فإن الداعى الواعظ بمنزلة كبيرة ومرتبة خطيرة فمتى لم تكن له تقوى تحجزه عن ارتكاب المآثم وأمانة تكفه عن اقتحام المحارم كان الضرر به أكثر من الانتفاع بل كان شرا على نفسه وعلى الناس ، وأيضا فإنه لا يقبل قول الفاسق فى الديانات فتتلاشى على يديه وظيفة الإرشاد ، والفاسق لا يجوز أن يلى شيئا من أمور المسلمين فلا يكون إماما ولا قاضيا ، ولا شاهدا ولا يقدم للصلاة فعلى الداعى الحذر كل الحذر من هذه الصفة وأن يكون تقى أمين على دين الله .

وهناك أمور لابد أن يضعها الداعى فى الاعتبار وهى:

١- أن يكون الواعظ الناصح عالما بمن يوجه إليهم الدعوة وعالما بشئونهم واستعدادهم وطبائع بلادهم وأخلاقهم وما هو العرف الذى يتعاملون به فى أحوالهم الاجتماعية ، فقد روى أن من أسباب ارتضاء الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين خلافة أبى بكر ؛ لأنه كان أعلمهم بأحوال قبائل العرب وتاريخ كل قبيلة وأخلاقها من الشجاعة والجبن والأمانة والخيانة ، ومدى قوتهم وضعفهم وغناهم وفقرهم ، فكل هذا والعلم به يجعل الداعى قريب من فهم عقول وقلوب الناس ، وحتى يتخير طريقته معهم فى الإقناع على تغيير المنكر أو الإصلاح فيما بينهم .

٢- وكذلك يكون عالما بالتاريخ العام والمواقف والأحداث العامة ماضيها وحاضرها ، ليعرف الفساد فى العقائد والأخلاق والعادات فيبنى دعوته على أساس صحيح ، ويعرف كيف تنهض الحجة ويبلغ الكلام غايته من التأثير ، وكيف يمكن نقل هؤلاء المدعوين من حال إلى الحال ؛ ولهذا كان القرآن الكريم مملوءا بعبر وقصص التاريخ ليتأثر الناس بما كان قبلهم ، ويعرفون دينهم جيدا وكيف يعبدون الله الواحد الأحد حق عبادته .

٣- أن يعلم علم النفس ومبادئه ليعرف قوى النفس وخواطرها وميولها وتصرفها ؛ كى يستطيع أن يتعامل معها خاصة فى بعض حالات النفوس الشديدة المرض والسوء والبعد عن الدين .

٤- أن يكون ملما بعلم تقويم البلاد فيفيده ذلك فى البلاد التى هو غريب عنها ويسافر إليها ، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أعلم أهل زمانهم بالتاريخ وما يسمى الآن بتقوم البلاد وعلم الجغرافية ، ولذا أقدموا على الفتوحات ومحاربة الأمم فانتصروا عليهم بالعلم لا بالجهل .

٥- معرفة مذاهب الأمم وتقاليدهم الدينية ليتيسر للداعى بيان ما فيها من الباطل ؛ فإن من لم يتبين له بطلان ما هو عليه لا يلتفت إلى الحق الذى عليه غيره ، وإن دعاه إليه ، ومن لم يقف على ما عند الناس من المذاهب والتقاليد الدينية لا يستطيع أن يخاطبهم على قدر عقولهم .

٦- العلم باللغات المختلفة وخاصة للعالم والداعى الذى يسافر بلاد غيره بلاده ليدعو لدين الله الحق ، وقد ورد فى صحيح البخارى ، أن رسول الله ﷺ أمر بعض الصحابة بتعليم اللغة العبرانية لكى يدعو اليهود ويعرفون التخاطب معهم ، فعن زيد بن ثابت أن النبى ﷺ أمره أن يتعلم كتاب اليهود حتى كتب للنبى ﷺ كتبه وقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه .

فالواجب أن يكون فى كل جماعة تبعث للدعوة أن يكون فيها من المسلمين العارفين باللغات من يكفيها شر الحاجة إلى ترجمة الأجنبى .

٧- معرفة علم الاجتماع الذى يبحث فيه عن أحوال الأمم فى حضارتها وشئونها الداخلية والخارجية ، ومعرفة معاملات الناس والأفراد فيما بينهم من محبة أو عداوة ، وأسباب ذلك كى يستطيع الإصلاح بين الأمم والإصلاح بين الناس ، وهذا العلم مستمد من علم التاريخ وعلم الأخلاق ، فمن كان له حظ عظيم منهما وكان صحيح العقل واسع الإدراك فإنه قد يستغنى عن هذا العلم فى بناء الدعوة والإرشاد على قواعد الحكمة والسداد ، وعلى ذلك يلزم أن يكون الداعى عالما بأحوال الناس خبيرا بأمراض مجتمعهم ليدعو ويرشد كل فريق بما يناسبه من أسلوب وفكر ، فإن كان يجهل أحوال الناس وعللهم أخطأ كثيرا فى إصلاح القلوب وعلاج النفوس .

٨- أن يتحلى بالورع وباتقاء الشبهات ، والبعد عن مواضع الريبة فإن ذلك أبرأ لدينه وأسلم لعرضه ؛ لأن حال الداعى يؤثر فى القلوب أكثر من مقاله ، وهكذا كانت صفة النبى عليه الصلاة والسلام والصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فى صحيح

البخارى من حديث أنس رضى الله عنه قال: مر النبى ﷺ بتمرة مسقوطة فقال: «**لولا أن تكون صدقة لأكلتها**» .

وقدم على عمر رضى الله عنه مسك وعنبر من البحرين فقال: والله لوددت أنى وجدت امرأة حسنة الوزن تزن لى هذا الطيب حتى أقسمه بين المسلمين فقالت: امرأته عاتكة أنا جيدة الوزن فأنا أزن لك قال: لا فقالت: لم ؟ قال: لأنى أخشى أن تأخذيه فتجعليه هكذا وأدخل أصابعه فى صدغيه وتمسحى به فى عنقك فأصيب فضلا من المسلمين وكان يوزن بين يدى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه مسك للمسلمين فأخذ بأنفه (سدها بيده) حتى لا تصيبه الرائحة ، وقال: وهل ينتفع منه إلا بريحه قال: ذلك لما استبعد ذلك منه ، وهذا من ورع المتقين ، وهكذا يكون حال الداعى إلى الله وإلى كلمة لا إله إلا الله محمدا رسول الله ، وعن الفضيل بن عياض رحمة الله أنه كانت له شاة فأكلت شيئا يسيرا من علف بعض الأمراء فلم يشرب من لبنها بعد ذلك .

والداعى الذى يقف موقف تهمة فلا يأمن من إساءة الظن به وأخرج الزبير بن بكار عن عمر بن الخطاب قال: من تعرض للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن ، وأخرج البيهقى فى الشعب عن سعيد بن المسيب قال: كتب لى بعض إخوانى من أصحاب رسول الله ﷺ من عرض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه ، وحتى أحترز هو ﷺ فروى عن على بن حسين (زين العابدين): أن صفية بنت حيى بن أخطب أخبرته أن النبى ﷺ كان معتكفا فى المسجد قالت: فأتيته فتحدثت عنده فلما أمسيت انصرفت فقام يمشى معى فمر به رجلان من الأنصار فسلما ثم انصرفا فناداهما وقال: «**إنها صفية بنت حيى**» فقالا: يا رسول الله ما نظن بك إلا خيرا ، فقال: «**إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم من الجسد ، وإنى خشيت أن يدخل عليكما**» (متفق عليه) .

هكذا يعلمنا رسول الله ﷺ الاحتراز من التهمة حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين فى أحواله ، ومن الحديث يستفاد أنه ينبغى للرجل إذا حدث زوجته أو محرمه على الطريق أن يقول: هى زوجى أو محرمى حتى لا يتهم ، وأنه ينبغى للإنسان أن يتحرز عن كل ما يوهم نسبته إلى ما لا يليق ، وخاصة العلماء والمرشدين ، فلا يجوز أن يفعلوا ما يوجب الظن بهم ، وإن كان لهم مخلص ؛ لأن ذلك سبب لعدم الانتفاع بعلمهم وإرشادهم قال الإمام على كرم الله وجهه: "إياك وما يسبق إلى العقول إنكاره

وإن كان عندك اعتذاره" .

٩- محبة الإصلاح والتفانى فى خدمة الدين الحنيف وذلك بنشر فضائله وتعاليمه بين الناس ، وتغيير المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة حتى ينهض بهم إلى الدرجات العلا ، فإن ذلك من أخلاق الدعاة الواعظين الناصحين من الأنبياء والمرسلين ، كما يتخلق الداعى بالأخلاق الحميدة التى أرشد إليها الدين الحنيف وحث على التحلى بها ، وملازمة الآداب الشرعية الظاهرة والخفية ، كالتنظيف بإزالة الأوساخ ، واستعمال السواك ونتف الإبط ، وإزالة الروائح الكريهة وتسريح اللحية ، مع المحافظة على هيبة العلم وصفته ومظاهر العلماء ، كل ذلك مما يسهل عليه بلوغ الغاية من الدعوة إلى الله تعالى ، والتهاون فى ذلك يقلل من الثقة به ، ويقلل من إقبال الناس عليه .

وكذلك عليه الإخلاص لله فى العمل ، فلا يطلب على الإرشاد أجرا ، ولا يقصد به جزاء ولا شكورا من أحد ولا يقصد به تحصيل جاه أو شهرة أو سمعة بين الناس ويعلم أن المرشد إنما يكون مقبول النصيحة إذا كان خاليا من الأغراض الدنيوية ، وإن كان يجرى لأغراض الدنيا فلا يؤثر فى قلوب الناس بكلمة واحدة البتة فمن قام بالدعوة إلى الله تعالى لشهوة من الشهوات النفسانية فذلك حظه من عمله وكان عند الله مذموما قال عز وجل: **﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾** ، أى من كان يقصد بعمله ثواب الآخرة شبهه بالزرع من حيث إنه فائدة تحصل بعمل الدنيا نزد له فى ثوابه فنعطه بالواحدة عشرة إلى سبعمائة ومن كان يقصد ثواب الدنيا نؤته شيئا منها على ما قسمنا له مع حرمانه من نعيم الآخرة فإنما الأعمال بالنيات وقال سبحانه وتعالى: **﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾** وقال النبى ﷺ: «**من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**» (يعنى ريحها - رواه الترمذى) .

١٠ - يجب على الداعى الواعظ أن يؤدى الواجب حبا فى الواجب وإرضاء لوجدانه وإطاعة خلقه الحسن ، لا إذعاناً لسلطان المادة ولا لكلمة شكر من الناس ولا

لعائد مادى ، فإن الذين يفعلون الخير لما يرجونه من الخير تجار يبيسون اليوم ما يقبضون ثمنه غدا إنما المثل الأعلى أن يصل المرء من الرقى إلى حد أن يتلذذ من أداء الواجب ووصول الخير إلى الناس كما يتلذذ من وصول الخير إلى نفسه ، وهذا هو مصدر حياة الأمم وسعادتها فى هذه الحياة فقال النبى ﷺ : «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» (رواه البخارى) .

كما ينبغى للداعى أن يتحلى بالآداب الشرعية والإخلاص فى الدعوة إلى الله تعالى حتى يكون وارثا نبويا ، وأن يعلم أنه لا يجتمع الإخلاص فى القلب مع محبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار ، فمن أراد الإخلاص يسكن قلبه فعليه بطرد حب المدح والطمع والرياء من قلبه ويزهد فى الدنيا ويحب الآخرة ، فبذلك يسكن الإخلاص قلبه ويرتقى به إلى أعلى الدرجات ويكون مسموع الدعوة مؤثرا فى قلوب الناس ونفوسهم .

وكذلك يكون الإخلاص بمراقبته لله عز وجل فى سره وعلانيته ، محافظا على الطهارة ومواظبا على قراءة القرآن ، ونوافل الصلاة ، ومداومة الصوم وغيرهما من أعمال العبادة المقربات إلى الله تعالى ويعلم أن الله مطلعا عليه فى كل شيء ظاهره وباطنه ، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَىَ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء** ﴾ (آل عمران: ٥) .

وقال عز وجل: ﴿ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** ﴾ وقال النبى عليه الصلاة والسلام: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله**» (رواه الترمذى) والكيس هو العاقل .

فيا أخى الداعى الواعظ تعلم وتعلم وافهم كل كلمة جاءت فى إعداد الواعظين وكيفية الدعوة إلى الله كى تكون نائبا للأنبياء والمرسلين فى الدعوة وتكون أهلا لذلك .

الداعى وآداب معاملة السامعين:

وآداب الداعى مع السامعين من دقائق هذه الصناعة وهى عديدة من أهمها:

١- أن يصرف من يريد إرشاده عن الرذيلة إلى الفضيلة بالإشارة فى المقال والتعريض فى الخطاب ما أمكن فإن التعريض فى ذلك أبلغ من التصريح لما فيه من مراعاة حرمة المخاطب بترك المجاهرة بالتوبيخ .

٢- التلطف فى القول والرفق فى المعاملة مع تحرى الإقناع وهو من أسباب نجاح المرشد فى مقام الدعوة إلى الخير وقال الله تعالى: ﴿ **وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ أى أحسن طرق المجادلة والمناظرة من الرفق واللين .

٣- أن الداعى يذكر سامعيه بالخير ويصفهم بجميل ، كأن يبين ماله من حسب وما فيه من فضل ، وما عليه من نعمة ، ليجذب قلبه إليه ويعده بذلك لقبول الموعظة ، إذ لا ريب أن ما يكون للإنسان من شرف ورفعة مناط التحلى بالفضائل والتخلى عن النقائض ؛ لأن الذى يرى نفسه مفضلا مكرما ذا شرف ومنزلة يترفع عن الدنايا والخسائس التى تدنس شرفه وتذهب بفضله ، أما الذى يرى نفسه ذلا ساقطا خسيسا فإنه لا يبالى ما يفعل .

٤- أن يكون له فراسة يتوسم بها حال السامعين ليعرف مبلغ طاقتهم وقدر ؛ استحقاقهم وإقبالهم على الانتفاع ، ليعطيهم ما يتحملون ويمسك عما لا يطيقون ويوجز إذا خشى الانصراف ، أو رأى عليهم مللا أو سآمة قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: إذا أنا لم أعلم ما لم أرى فلا علمت ما رأيت وقال عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما: "لاعاش بخير من لم يرى برأيه ما لم يرى بعينه" ، قيل لعمرو بن العباس: ما العقل ؟ قال: الإصابة بالظن ، ومعرفة ما يكون بما قد كان ، وإنما ركب الله العقل فى الإنسان دون سائر الحيوان ليستدل بالظاهر على الباطن ، ويفهم الكثير ، وإذا كان الواعظ الناصح بهذه الصفة لم يضع له عناء ولم يخب على يديه أحد ، وإن لم يتوسمهم وخفيت عليه أحوالهم كانوا وإياه فى عناء مكد وتعب غير مجد ، فإنه لا يعدم أن يكون منهم ذكى محتاج إلى الزيادة ، وقاصر يكتفى بالقليل فيضجر الذكى ويعجز القاصر ، ومن تردد أصحابه بين عجز وضجر ملوه وملهم ، وقد حكى عبد الله بن وهب أن سفيان بن عبد الله قال: قال الخضر لموسى عليهما السلام: يا طالب العلم إن القائل أقل ملالة من المستمع ، فلا تمل جلساءك إذا حدثتهم يا موسى ، واعلم أن قلبك وعاء فانظر ما تحشو فى وعائك وعلى هذا نقول: خير المرشدين الفطن الذى لا يقل ولا يمل . والله ولى التوفيق .

* * * * * * * *

صفات يجتنبها الواعظين

أمور كثيرة لابد أن يحذر منها الواعظين ولا يخوضون فى الحديث عنها مثل: الخوض فى دقائق علم الكلام كخلق الأفعال ، ورؤية البارى يوم القيامة مخافة اختلال يتطرق إلى عقائد العامة يصعب عليهم الخلاص منه ، فالصواب لهم الاقتصار فى أمر الدين وواجب الإسلام على أن يملئوا قلوب الناس بالتصديق الجازم بكل ما جاء به الرسول الصادق الأمين صلوات الله وسلامه ، وقبوله والإذعان له تصديقا سليما من كل شك بالمقدار الذى نطق به الكتاب وصحت به السنة ؛ فإن النبى ﷺ لم يطالب أحدا بسوى ما ذكرنا ، وكذا الخلفاء الراشدين (الراشدون) وكذا الصحابة . والحق لو تشكك إنسان فى شىء من أصول العقائد مما لابد من اعتقاده ولم يزل شكه إلا بتعلم دليل من أدلة المتكلمين وجب ذلك لإزالة الشك وتحصيل ذلك الأصل .

وفى المتشابه من آيات الصفات وأخبارها نوجز ونقول: الجميع فى الأمة الإسلامية يؤمن بأن الله تبارك وتعالى منزه عن مشابهة المخلوقات ، وقامت البراهين العقلية والنقلية على هذه العقيدة ، فكانت هى الأصل فى الاعتقاد الذى يجب أن يرد إليه غيره (وهو التنزيه) فإذا جاء فى نصوص الكتاب والسنة شىء ينافى ظاهره فللمسلمين فيه طريقان: الأول: طريقة السلف وهى التنزية الذى أيد العقل فيه النقل كقوله عز وجل: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ، وحقيقة ذلك أو فهمها نفوض فيها الأمر إلى الله مع العلم بأن الله تعالى يعلمنا بمضمون كلامه ما نستفيد به فى أخلاقنا وأعمالنا وأحوالنا ، ويأتينا فى ذلك بما يقرب المعانى من عقولنا ويصورها لمخيلاتنا كما فى قوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ونحن لا نعلم حقيقة معنى ذلك وما المراد به مع أننا نعتقد أن الله تعالى منزه عن الحلول وعن سمات الحدوث ، فهذه طريقة السلف وهى أسلم إذ لا يطالب العبد بالخوض من ذلك .

أما الثانى: طريقة الخلف وهى التأويل ، يقولون: إن قواعد الدين الإسلامى وضعت على أساس العقل ، فلا يخرج شىء منه عن المعقول ، فإذا جزم العقل بشىء وورد فى النقل خلافة يكون الحكم العقلى القاطع قرينة على أن النقل لا يراد به ظاهره ، ولا بدله من معنى موافق يحمل عليه ، فينبغى طلبه بالتأويل ولا مانع من

السير على كلا الطريقتين فى فهم وبيان المتشابه ، كما قال العلماء ؛ لأنه لابد لكلام الشارع من فائدة يحمل عليها ؛ لأنه لم يخاطبنا بمالا نستفيد منه معنى .

ونجد مما تقدم اتفاق السلف والخلف على التنزيه ، وصرف النص الموهم عن ظاهره المحال عليه تعالى ، لكنهم اختلفوا بعد ذلك فى تعيين المراد من ذلك النص وعدم التعيين بناء على الوقف على قول الله تعالى : ﴿ **وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ** ﴾ فيكون معطوفا على لفظ الجلالة ، وجملة ﴿ **يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ** ﴾ حينئذ مستأنفة لبيان سبب التماس التأويل ، أو على قوله : ﴿ **إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ ، وقوله : ﴿ **وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ** ﴾ ، استئناف ، وذكر مقابله فى قوله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ** ﴾ أى كالمجسمة ، فمنهم من يقول : إنه على صورة شيخ كبير ، ومنهم من قال : إنه على صورة شاب حسن تعالى الله عن ذلك علواً كبير ، وتعالى ربى عما يصفون فإن الله ليس كمثله شىء .

والأوجب البعد عن المخاطرة فيما لا ضرورة بل لا حاجة إليه ، والعلم بأن الله تبارك وتعالى منزه عن الحلول وسمات الحدوث ، وكل شىء يتم بقدرته وكيفية ذلك نفوض فيه الأمر لله تعالى ، ونكتفى بأن نؤمن ونيقن تماما بأن الله على كل شىء قدير ، وهذا ما يرد به الواعظ على من يشاء الخوض فى هذه الأمور .

ومما يلزم اجتنابه التحدث مع العوام بما لا تفهمه ولا تعقل ولا تتفهم معناه ، فذلك إنه يضع الحكمة فى غير موضعها وهو ظلم ؛ لأن سامعها إما أن يفهمها على غير صحتها وهو الغالب مما يؤدى إلى الفتنة التى تؤدى إلى العمل بالباطل والتكذيب بالحق ، وإما أن لا يفهم منها شيئا وهو أسلم ، ولكن المتحدث لم يعط حقها من الصون بل صار فى التحدث بها معهم ولا يبالى غير أنه ألقاها لمن لا يعقلها أو يفهمها فى صوابها ، ثم إن ألقاها لمن لا يعقلها فى معرض الانتفاع بعد تعقلها كان من قبيل التكليف بما ليس فى الوسع ، وقد نهى الرسولﷺ عن ذلك فأخرج أبو داود أن رسول اللهﷺ : «**نهى عن الغلوطات**» قالوا : وهى صعاب المسائل أو شرارها والغلوطات هى ما يغلط فيه وما يغالط من صعاب المسائل .

وروى الترمذى : أن رجلا أتى النبىﷺ فقال : يا رسول الله ، أتيتك لتعلمنى من

غرائب العلم فقال عليه الصلاة والسلام: «**ما صنعت فى رأس العلم ؟**» قال: وما رأس العلم قال: «**هل عرفت الرب ؟**» قال: نعم قال: «**فما صنعت فى حقه**» قال: بما شاء الله ، فقال رسول الله ﷺ: «**اذهب فاحكم ما هنا لك ثم تعالى أعلمك من غرائب العلم**» ، أى أن من الحكمة ألا نتعلم الغرائب إلا بعد إحكام الأصول وأمور الدين وما لنا فيه وما علينا ، وإلا وقع السامع فى الفتنة وقالوا فى العالم الحكيم: إنه هو الذى يربى بصغار العلم قبل كباره ، وقال الإمام البخارى: باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية ألا يفهموا ، وفى مسلم مرفوعا عن ابن مسعود رضى الله عنه: ما أحد يحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم ، وذلك أن يتأولوه غير تأويله ، ويحملوه على غير وجهه وهو فتنة تؤدى إلى التكذيب بالحق وإلى العمل بالباطل .

ومن حديث ابن عمر مرفوعا: «**أمرنا معاشر الأنبياء أن نكلم الناس على قدر عقولهم**» ، وقال عيسى عليه السلام: «**لا تضعوا الحكمة فى غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء فى موضع الداء**» وفى معنى ذلك ما روى عن سفيان الثورى رحمه الله أنه سئل عن العالم من هو ؟ فقال: من يضع العلم موضعه ، ويؤتى كل شىء حقه ، وقال بعض العارفين: من كلم الناس بمبلغ علمه وبمقدار عقله ، ولم يخاطبهم بقدر حدودهم فقد بخسهم حقهم ، ولم يقم بحق الله فيهم ؛ ولذا قيل كل لكل عبد بمعيار عقله ، وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك ، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار فليحذر الواعظ الشطح بكلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة معجبة وفيها عبارات هائلة وليس طائل ولا منها فائدة .

فلا ينبغى أن يشوش بذلك اعتقاد السامعين وبذكر اصطلاحات المتكلمين ، بل ينبغى على المرشد الواعظ أن يخلى طريقته وأسلوبه الذى يسلكه ، ويقتصر معهم على تعليم العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج مع بيان سر مشروعيتها من غير تدقيق فى مسائلها ولا ذكر اختلاف الآراء فيها ، والحث على الأمانة والإحسان فى المعاملات التى هم بصددها ، ويملأ قلوبهم من أنواع الرغبة والرهبة بالجنة والنار ، وبلايا الدنيا وأهوال يوم القيامة كما جاء القرآن الكريم وصرحت به السنة الشريفة والآثار الصحيحة ، ولا يحرك عليهم شبهة من الشبه الكلامية والإشكالات الفقهية ، فإنه ربما

تعلقت بقلوبهم ويعسر عليهم حلها فيقعون فى الفتنة والهلاك بسوء تصرفه .

ومما يلزم اجتنابه صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا تحتملها الألفاظ ولا فائدة فيها ، كما فعلوا الباطنية وهم جماعة من الملاحدة نسبوا أنفسهم إلى علم الباطن حيث قالوا: للقرآن والحديث ظاهر وباطن والمراد ، منهما باطنهما دون ظاهرهما ، وحرفوا الألفاظ إلى معانى أخرى غير مفهومة حتى أنهم تركوا أركان الإسلام من صلاة وزكاة وصيام وحج زاعمين أن لها معانى غير ما عمل به ، رسول الله عليه الصلاة والسلام وأصحابه فالقول بهذا خروج من ملة الإسلام لا تنفع معه صلاة ولا زكاة ولا حج ولا صيام وما أفضى إلى هذا الضلال المبين: إلا التوسع فى باب التأويل فهذا حرام فى الشرع وضرر على الناس كبير ، فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع عليه الصلاة والسلام وعن أصحابه رضى الله عنهم ، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل ، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ وسقط به منفعة كلام الله عز وجل وكلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه فإن ما يسبق منه إلى الفهم إن خرج عن جادة الشريعة لا يوثق به ، والباطن لا ضبط له ولا معول عليه فيما يخالف ظاهر الشرع بل تتعارض فيه الخواطر ويمكن تنزيله على وجوه شتى أيضا من البدع المنكرة البالغة الضرر ، وإنما قصد أصحابها الإغراب ؛ لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له .

****

ألفاظ الوعظ وأسلوبه

يكثر السجع فى كلام بلغاء العرب ومواعظ المتقدمين كالإمام على رضى الله عنه والحسن البصرى وغيرهما ، والسجع نوعان: حسن وقبيح ، فالحسن ما توافرت فيه الشروط الآتية:

أولا: أن يكون بعيدا عن التكلف والتعسف .

ثانيا: أن تكون كل سجعة دالة على معنى مغاير لمعنى غيرها .

ثالثا: أن تكون الألفاظ المسجوعة المستخدمة حلوة المذاق وبهذا يكسب الكلام حسنا وجمالا ، والسجع القبيح ما خلا من هذه الشروط الثلاث كقول الكاهن: والسماء والأرض والقرض القرض والغمر والبرض (والبرض الماء القليل وهو خلاف الغمر وهو الكثير) فمثل هذا من السجع مذموم لما فيه من التكلف والتعسف ؛ ولهذا كرهه النبى ﷺ ، فعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت لكاتب: «**إياك والسجع فإن النبى ﷺ وأصحابه كانوا لا يسجعون**» (رواه أحمد) .

وروى البخارى من رواية عكرمة عن ابن عباس قال: «**حدث الناس كل جمعة مرة**» فذكر الحديث وفيه: «**وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه فإنى عهدت النبى ﷺ وأصحابه لا يفعلون ذلك**» .

وكل هذا محمول على التكلف فى السجع فإن خلا عن التكلف وإعمال الفكر ، وكان لكمال فصاحة الداعى أو لكونه محفوظا مثلا فلا بأس به ، بل هو حسن ويدل عليه ما فى الصحيحين من حديث عبد الله بن أبى أو فى رضى الله عنهما من قوله عليه الصلاة والسلام: «**اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم**» .

وروى البخارى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين: «**أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة**» ، والهامة كل ذات سم يقتل والعين اللامة التى تصيب بسوء .

ومن أمثلة السجع الحسن قول الإمام أبى القاسم محمود الزمخشرى: يا أبا القاسم

حتام تلهو وتلعب ، وغراب البين فوقك ينعب ، وإلام تروح فى التماس الغنى وتغدو ، وسائق الردى وراءك يحذو ، ألا وإن بذل الاستطاعة واستقصاء الجد فى الطاعة ، أولى بمن يركب الآلة الحدباء بعد ساعة ، كأنى بجنازتك يسرع بها إلى بعض الأجداث ، وبأهل ميراثك هجروك بعد الثلاث ، وغادروك وأنت معفر مطروح ، فضمك لحد وضريح ، ولم يبق إلا عملك الذى لزمك فى حياتك لزوم صحبك وهو يستبقى صحبتك بعد قضاء نحبك ، فيصحبك على التخت مغسولا ويرافقك على النعش محمولا ، ويكون معك على الإكفاء فى المصلى ، ويحالفك وأنت فى الحفرة مدلى . فإذا راعتك نفخة النشر وفاجأتك أهوال الحشر وفر منك أبوك وأمك وأخوك ، وجدته يغد منك أينما تغد ، ويرد حيثما ترد ولعلك تستصحب من هذا القرين صاحب صدق يؤنسك فى وحشتك ويلقى عليك السكينة فى حين حيرتك ودهشتك ، ويمهد لك فى دار الإسلام المهاد والأثر ويوردك السلسبيل والكوثر .

وقال أيضا : أرضى الناس بالخسار ، بائع الدين والدنيا ، ق فاك مما يقرع قفاك ، قد جمع الأصل والفرع ، من تبع العقل والشرع ، إن صح السر صح العلن ، وإن لم يصح فلن ولن ن شينان شينان فى الإسلام الرشوة والشفاعة فى الأحكام ، رب زيادة هى نقصان فائدة ، والكف تنقصها الأصبع الزائدة ، قد يلد مثل الحسن مثل الحجاج ، واللؤلؤ يخرج من الماء الأجاج ، شعاع الشمس لا يخفى . سراج الحق لا يطفا ، تقول أنا صائم ، وأنت فى لحم أخيك سائم ، أعمالك نية إن لم ينضجها نية أطلب وجه الله فيما أنت صانع ، وإلا فعملك كله ضائع .

وقول الحريرى : إلام تستمر على غيك ، وتستمرئ مرعى بغيك ؟ وحتام تتناهى فى زهوك ولا تنتهى عن لهوك؟ أتظن أن ستنفعك حالك ، إذا آن ارتحالك أو ينقذك مالك حين توبقك أعمالك ، أو يغنى عنك ندمك ، إذا زلت قدمك ، أو يعطف عليك معشرك ، يوم يضمك محشرك؟ هلا انتهجت صححه اهتدائك ، وعجلت معالجة دائك ، أما الحمام ميعادك فما إعدادك ، وبالمشيب إنذارك فما إعذارك وفى اللحد مقيلك فما قيلك ؟ وإلى الله مصيرك ، فمن نصيرك ؟

وقال : فى التحذير من المغرور : يا أيها المغرور بالسلامة ، ما أعددت ليوم القيامة يوم الحسرة والندامة يوم يجعل الولدان شيبا ، يوم يدع المسرور كئيبا ، الدنيا دار تجارة

فالويل لمن تزود منها الخسارة .

وقال الأصبهانى: يا من يسعى لقاعد ويسهر لراقد ، ويا من يحرس لراصد ويزرع لحاصد ، ويبخل لباذل ويجمع لآكل ، تبنى الإيوان وعن قليل ينهدم ركناك وتبسط الرواق وفى الجدث سكناك ، قلب كقلوب الكفار ، وحرص كحرص الفار ، ينقب بالأظفار ، ولا يبقى على المأدوم والقفار . قل لى إذا وقعت الواقعة وقرعت القارعة ، أزف لك الرحيل ، واجتمع الطبيب والعليل ، واختلف الغسال والغسيل ، والعائد يغمز عينيه ، والطبيب يقلب كفيه ، حتى إذا انقطع نفسك وخفى جرسك أينفعك حينئذ حلال أصبته أم حرام غصبته ، أم نشب حرشته أو ولد حضنته أو ربع أسسته أو نبع غرسته أو حطام حرسته أو قفر حرثته ، أو فر أو ورثته ؟ كلا لا ينفعك فىء قد غنمته ، ولا يضرك شىء عدمته ، ولا ينجيك إلا خير أمضيته ، أو خصم أرضيته ، فانتبه يا نائم ، واستقم يا هائم ، لقد تهت: فى بادية لا يبلغك ندائى ، وترديت فى هاوية لا يبلغها ردائى ، يغيم هواؤك ويصحى حين لا ينفعك نصحى ، ولا تعصى الله فى أولاد سوء إذا حضرك الموت غابوا ، وما حزنوا لما أصيبوا بل فرحوا بما أصابوا ، وأن تدعهم لا يسمعوك ولو سمعوا ما استجابوا .

هذا من أمثلة السجع الحسن الذى يمكن أن يستخدمه المرشد الناصح فى دعوته وأسلوبه فيها كى يؤثر فى قلوب سامعيه .

أما الكلام المقفى الموزون وهو الأشعار فالإكثار منها فى طريقة وأسلوب المرشد الناصح مذموم قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ** ﴾ ولأن الشعر مقر الكذب كما قالوا: «**أحسن الشعر أكذبه**» وقال بعض الحكماء: لم ير متدين صادق اللهجة مفلقا فى شعره (أفلق الرجل وافتلق وشاعر مفلق أتى بالعجيب) ولذا ما أسلم منهم جماعة وكانوا مفلقين ضعف شعرهم مثل حسان ولبيد ، وقد فطن حسان من نفسه ذلك وقد اختلفوا فى مدح الشعر وذمه ، وأحسن ما قيل فيه يقول الإمام الشافعى رحمه الله حين سئل عن ذلك: الشعر كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح ، وروى مثل ذلك عن عائشة رضى الله عنها .

وأكثر ما اعتاده المرشدين الواعظين من الأشعار ما يتعلق بالتواصف فى العشق

والجمال وجمال المعشوق وروح الوصال والتشوق إليه ، والتشكى من ألم الفراق كإنشاد قول ابن الغارض :

ولقد خلوت مع الحبيب وبينا ... سر أرق من النسيم إذا سرى
عنى خذوا ولى اسمعوا وبى اقتدوا ... وتحدثوا بصبابتى بين الورى

وقول : أبى بكر البصرى من أكابر المحبين :

ولو قيل طأ فى النار أعلم أنه ... رضا لك أو مدن لنا من وصالك
لقد مت رجلى نحوها فوطئتها ... سروراً لأنى قد خطرت ببالك

فإن كان الواعظ مستخدما للشعر فى وعظ العامة فينبغى له أن لا يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة ظاهرة يرتدع بها عن خبث الباطن أو حكمة نادرة يتعظ بها فى كشف السر الكامن كقول الإمام الشافعى رحمه الله :-

دع الأيام تفعل ما تشاء ... وطب نفسا إذا نزل القضاء
ولا تجزع لحادثة الليالى ... فما لحوادث الدنيا بقاء
إذا ما كنت ذا قلب قنوع ... فأنت ومالك الدنيا سواء

وقول صالح بن عبد القدوس :

واحرص على حفظ القلوب من الأذى ... فرجوعها بعد التنافر يصعب
إن القلوب إذا تنافر ودها ... شبه الزجاجة كسرها لا يشعب
وأحذر مآخاة الدنى لأنه ... يعدى كما يعدى الصحيح الأجرب

وقال آخر فى التحذير من إطلاق النظر إلى النساء :-

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها ... فى أعين الغيد موقوف على الخطر
كم نظرة فعلت فى قلب صاحبها ... فعل السهام بلا قوس ولا وتر
يسر مقلته ماضر مهجته ... لا مرحبا بسرور جاء بالضرر

وقال آخر : فى حفظ اللسان :-

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى ... وحظك موفور وعرضك صين

لسانك لا تذكر به عورة امرئ ... فكلك عورات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك معايبا ... لقوم فقل يا عين للناس أعين
فعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ... وفارق ولكن بالتى هى أحسن

وقال آخر: فى الحث على الرضاء والتسليم:

يا هذه النفس اعلمى ... أن الأمور لها انقضاء
والحادثات جليها ... وحقيرها محض ابتلاء
والعالمون صغيرهم ... وكبيرهم فيها سواء
لا تجزعى يا نفس ... إن الله يفعل ما يشاء

وأنشد عبد الصمد بن الفضل بن عيسى بن أبان الرقاش الخطيب القاص:

أرض تخيرها لطيب مقيلها ... كعب بن مامة وابن أم داود
جرت الرياح على محل ديارهم ... فكأنهم كانوا على ميعاد
فأرى النعيم وكل ما يلهى به ... يوما يصير إلى بلى ونفاذ

(وهذا من شعره القصصى).

وخطب عبد الله بن الحسن رضى الله عنهما على منبر البصرة فى يوم العيد قال:

أين الملوك التى عن حظها غفلت ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها
تلك المدائن بالآفاق خالية ... أمست خلاء وذاق الموت بانيها

فالشعر بهذا الأسلوب والألفاظ السابق ذكرها لا بئس أن يستخدمه الواعظ على سبيل الاستشهاد لكلامه واستئناساً لما يورده من أحكام، فقد روى البخارى من حديث أبى بن كعب رضى الله عنه أن النبى عليه الصلاة والسلام قال: «**إن من الشعر لحكمة**».

****

إعداد موضوع الموعظة

لكى تكون موعظة المرشد قوية ومؤثرة وبليغة فليعمد إلى المنكرات الفاشية وخاصة ما كان منها قريب العهد ، ومازال حديثه على ألسنة الناس أو فى فكرها ، ويقدم من هذه الأحداث والمواقف المؤثرة فى النفوس أكبرها ضررا وأسوأها أثرا ، فيجعله محور خطابته وموضوع عظته ، ثم يفكر فيما ينشأ عن هذا الحادث أو المنكر من سلبيات وأضرار خلقية واجتماعية وصحية ومالية ، ويدون هذه الأفكار فى نفسه أو بقلمه ، ثم يستحضر ما جاء فيه من الآيات الحكيمة من القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة وآثار السلف الصالح وما شابه أحداث تمت فى عهدهم ، وماذا فعلوا تجاهها ، ويخرج من ذلك بدروس مستفادة يشرحها للسامعين حتى يثبت فى عقولهم وقلوبهم عظته التى يريد بثها فى قلوبهم .

ويمكنه كتابة الموضوع إن شاء كتابته مضمونه ما جاء من تلك الأحداث ، وما ورد فيها عن الشارع محذرا من الوقوع فيها حاثا على التوبة منها هذا ، إذا أراد الإقلاع عن جريمة أو التنفير من رذيلة ، وإذا أراد الواعظ الحض على الأعمال الصالحة المشروعة النافعة ، أو الحث على خلق فاضل فليفكر فى مزاياه وآثاره الحسنة تفكيرا عميقا ، وليستحضر ما يناسبه من الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح ، ثم يسلك فى الكتابة المسلك الذى ذكرناه متجنبا السجع المتكلف والمحسنات الثقيلة التى كثيرا ما تخفى الأغراض وتحجب المعانى ، وينبغى أن يكون تفكير المرشد الناصح فى جو هادئ بحيث لا يحول بينه وبين حديث النفس ومراجعة العقل أى حائل ، كما يكون تفكيره فارغا من الشواغل النفسية ومقللا من الطعام والشراب حتى لا تذهب بطنته بفطنته كما يقولون العلماء الأجلاء ، ويكون نشطا خفيف الروح حاضر الذهن سريع الخاطر حاضر البديهة .

وإذا كتب الموضوع فإن شاء حفظه وألقاه ، وإن شاء قرأ مضمونه ، وليحذر من قراءته على الناس فى ورقة فذلك يضعف قوته ويذهب بتأثيره فى القلوب والنفوس ، وإلقاء الموعظة حفظا من ذهنه أقوى فى القلوب ويجعله ذا هيبة علمية أمام السامعين مما يجعلهم يثقون فيه ويؤثر فيهم ، فعلى المرشد كتابة الموضوع ورسمه وحفظه فى ذهنه أو رسم أفكاره الرئيسية فى ذهنه ويكون ملما بالآيات والأحاديث التى سيذكرها فى

موضوع خطابته ، فإن فعل الواعظ هذا الإعداد وسار عليه جيدا آمن من الذلل والاضطراب ، ويكون موضوعه أمام سامعيه وفى آذانهم وقلوبهم بصورة ثابتة وبعظيم الفائدة ، أما بدون إعداد الموضوع واستحضاره تماما ، وتقسيمه قبل الدخول فيه فلا يأمن الواعظ أن يتخبط فيه ، ولا يبقى له مثال فى نفوس السامعين ولا يستفيدون منه شيئا .

ثم بعد ذلك ينبغى للداعى أن يراعى حال التأدية ، استعداد السامعين فيتنزل فى العبارة مع العامة على قدر عقولهم ، حيث يتخير لهم من العبارات التى تناسب عقولهم حتى يستطيعون فهم ما يقوله بسهولة ، ويثبت فى عقولهم ويصعب عليهم نسيانه ، فعليه تجنب الألفاظ البعيدة عن مداركهم ، ويتوسط مع الأوساط ، ويتأنق مع الخاصة فيكون مع جميع الطبقات حكيماً يضع الأشياء فى مواضعها ولا ينشغل بظواهر كلامه من زخرف باطل ؛ لأن مقصوده ليس البهرجة الكاذبة ، ولكن مقصوده ، توصيل الموعظة الحكيمة بشكل واضح وثابت فى عقول ونفوس سامعيه ، فلابد أن يختار المعانى النفسية وتنسيقها وشرحها بالدقة ، وصوغها فى قالب لطيف ، مستعينا فى إبلاغها لأذهان سامعيه بالحكم النثرية والشعرية ، والمواقف التاريخية اللطيفة ، ومع الفكاهات الأدبية . ومن الحكم النثرية قول الإمام الشافعى رحمه الله: أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه ، ورغب فى مودة من لا ينفعه ، ومدح من لا يعرفه ، وقال: أظلم الناس لنفسه اللئيم إذا ارتفع جفا أقاربه ، وأنكر معارفه واستخف بالأشراف وتكبر على ذوى الفضل ، وقوله: التواضع يورث المحبة ، والقناعة تورث الراحة ، وأرفع الناس قدرا من لا يرى قدره ، وأكثرهم فضلا من لا يرى فضله . وقال بعض الحكماء: لا تحمل بطنك ما لا تطيق ، ولا تعمل عملاً لا ينفعك ، ولا تثق بامرأة ولا تغتر بمال وإن كثر ، وقولهم: ثروة العاقل فى علمه وثروة الجاهل فى ماله وهمّ السعيد آخرته وهمّ الشقى دنياه .

وقولهم:- ارفع علم الحق يتبعك أهله - العقل والهوى ضدان فقرين العقل التوفيق ، وقرين الهوى الخذلان ، والنفس طالبة فبأيهما ظفرت كنت فى حزبه ، أحق من عطفت عليه بحلمك من لم يستشفع إليك بغيرك . يسار النفس أفضل من يسار المال ، ومن أحسن وهو على ظهر الأرض لن يساء إليه فى بطنها ، من كساه الحياء ثوبه

خفى على الناس عيبه .

ومن أقوال وحكم سيدنا على كرم الله وجهه :

- أدب المرء خير من ذهبه .
- بشر نفسك بالظفر بعد الصبر .
- خف الله تأمن غيره .
- خليل المرء دليل عقله .
- صاحب الأخيار تأمن الأشرار .
- عش قنعا تكن ملكا .
- وحدة المرء خير من جليس السوء .
- كما تزرع تحصد وكما تدين تدان .
- الحازم من حفظ ما فى يده ولم يؤخر شغل يومه لغده .
- شر الناس من لا يبالى أن تراه الناس مسيئا .

وقال حكيم : اجتنب سبع خصال ستريح جسمك وقلبك ، ويسلم لك عرضك ودينك : لا تحزن على ما فاتك ، ولا تحمل هم ما لم ينزل بك ، ولا تلم الناس على ما فيك مثله ، ولا تطلب الجزاء على ما لم تعمل ، ولا تنظر بشهوة إلى ما لم تملك ، ولا تغضب على من لم يضره غضبك ، ولا تمدح من لم يعلم من نفسه خلاف ذلك .

ومن الحكم المأثورة : لسان العاقل من وراء قلبه فإذا أراد الكلام رجع إلى قلبه ، فإن كان له تكلم وإن كان عليه أمسك ، وقلب الأحمق من وراء لسانه ، يتكلم بكل ما عرض له ، وقال معاذ رضى الله عنه : أنت سالم ما سكت فإذا تكلمت فعليك أو لك .

وقال بعض الحكماء : الزم الصمت فإنه يكسبك صفو المحبة ، ويؤمنك سوء المغبة ويلبسك ثوب الوقار ، ويكفيك مؤنة الاعتذار ، أجدر الناس بالصنيعة من إذا أعطى شكر وإذا منع عذر وإذا مطل صبر وإذا قدم العهد ذكر ، وقيل : ألأم الناس من إذا سأل خضع وإذا سئل منع وإذا ملك كنع .(يمسك ويمنع) ظاهره جشع وباطنه طمع ، وقيل

أيضا: أجل الناس من عفا إذا قدر وأجمل إذا انتصر ولم تطغه عزة الظفر، وأنعم الناس عيشا من تحلى بالعفاف ورضى بالكفاف وتجاوز ما يخاف إلى ما لا يخاف .

ومن الحكم الشعرية قصيدة أبى الفتح البستى ونذكر جزءا بشرحه :

زيــادة المــرء فى دنيــاه نقصـان ... وربحـــه غيـر محض الخير خسران

وقال العلماء فى شرح هذا البيت ونذكره ليتعلم الواعظ كيف يستخدم فى موعظته هذا الأسلوب الطيب: الزيادة النمو يجيء لازما ومتعديا وهذا لزم لوقوعه فى مقابلة النقصان وهو لازم ، الربح اسم ما ربحه ويجيء مصدرا أيضا وضده الخسران ، المحض الخالص الخير ضد الشر والمعنى: زيادة كل امرئ فى دنياه زيادة تشغله عن الله عز وجل نقصان فى الحقيقة ، وما ربحه من المال فى الدنيا خسران فى الحقيقة إلا إذا كان خيرا محضا وهو ما يبتغى به الدار الآخرة ، والجمع بين الزيادة والنقصان والربح والخسران طباق .

وكـــل وجـــدان حـظ لا ثبات له ... فـــإن معنـــاه فى التحقيــق فقدان

والمعنى كل نصيب من دار الدنيا أصابه المرء لا دوام له ، فإنه عند إمعان النظر عدم فلا يعول عليه ولا يركن ، والذى يعول إليه عند أولى النهى الحظوظ الأخروية ؛ لأنها الباقية ، ولو ذكرت الفاء بدل الواو ليكون تعليلا لما تضمنه البيت الأول لكان أوجه وأبلغ .

يا عامـــراً لخـــراب الدهـــر مجتهدا ... بالله هـــل لخـــراب العمر عمران؟

والمعنى: يا عامر لما خربه مرور الزمان باذلا طاقته فى كل أوان أخبرنى هل عامر لخراب عمرك موجود ؟ والجمع بين العمارة والخراب طباق وبين العمر والعمران تجنيس عام .

ويا حريصا على الأمـــوال يجمعهـا ... أنسيـــت أن ســـرور المـال أحزان

والمعنى: يا جشعا فى جمع الأموال أنساك الحرص على جمع المال كون سرور المال هموما وأحزانا ، أما فى الدنيا فكما ترى ، وأما فى الآخرة فلأنه يحاسب عليه من أين جمعه وفيم أنفقه وكذلك الجمع بين السرور والأحزان طباق .

دع الفؤاد عـــن الدنيـــا وزينتهـا ... فصفوهـــا كـــدر والوصل هجران

والمعنى : لما كان سرور المال يوجب الأحزان ينبغى أن تبعد قلبك عن حب الدنيا والافتتان بزينتها ؛ لأن ما تصورت صفوه منها بخلافه ووصلك إياها هو فى الحقيقة قطيعة .

وأرع سمعــــك أمثــــالا أفصلهـــا كمـــــا يفصـــــل يـــاقوت ومرجان

والمعنى : أن يتبين ويتخير ما يسمع آذانه بل يسمعها ما هو حلال ويبعد عن ما حرم من السمع .

أحســـن إلى الناس تستعبد قلوبهـــم فطالمـــا استعبـــد الإنسان إحسـان

والمعنى : المرء ببره يسترق الحر ويستحق الشكر ويمتلك قبول الناس وحبهم له وذلك بإحسانه لهم وحسن معاملته .

يا خادم الجسم كم تسعـــى لخدمتـــه أتطلب الربح ممـــا فيـــه خســـران

والمعنى : يا من يخدم جسمه ويطلب إرادته كثر سعيك لخدمته ، وينبغى للعاقل ألا يسعى وراء شهوته فليس فى ذلك ربح له بل فيه خسران ؛ لأن فى خدمته تقويته وهى توجب استيلاء القوة الشهوية والغضبية ، ومن غلبت عليه هذه القوة التحق بالحيوانات .

أقبل على النفس واستكمل فضائلهـــا فأنـــت بالنفـــس لا بالجسم إنسان

المعنى : لما زجر عن خدمة الجسم لسوء مغبتها أمر بتربية النفس ، وذلك بتحليتها بالأخلاق الحميدة ، والصفات الحسنة وتنزيهها عن المذمومات من الأخلاق والصفات والعلائق البدنية وشهواتها فإن الإنسان إنسان بروحه لا بجسمه .

وإن أســـــاء مسىء فليكـــن لك فى عــــروض ذلته صفـــح وغفـــران

والمعنى : أى لا تشتغل بإساءة من أساء إليك ، بل أعرض عنه واستر ذلته .

وكن على الدهر معاونا لـــذى أمـــل يرجـــو نداك فـــإن الحر معـــوان

المعنى : من كان يرجو منك عطاء يستعين به على نوائب الزمان فحقق أهله أمله لأن ذلك دأب الكريم .

واشـــدد يديك بحبـــل الله معتصما فإنه الركــن إن خانتــك أركـــان

والمعنى استمسك بعهد الله ودينه الذى رضيه لسعادة الناس ، فإن من استمسك به فقد استمسك بالركن الذى لا يشقى أبدا من لجأ إليه واعتصم به فى دينه ودنياه .

مـــن يتـــق الله يحمـد فى عواقبه ويكفـــه شـــر من عزوا ومن هانـوا

المعنى: من يطع الله بامتثال الأوامر واجتناب النواهى كان محمودا فى عواقب ذلك ، ويدفع الله عنه شر جميع الناس سواء أكانوا أعزاء أم أذلاء .

من استعـــان بغيـــر الله فى طلب ::: فإن ناصـــره عجـــز وخـــذلان

ومعنى هذا البيت واضح ومفهوم وخلاصته إن استعنت فاستعن بالله

مـــن كـــان للخير مناعا فليس له ::: علـــى الحقيقـــة إخوان وأخـدان

والمعنى: من كان دأبه منع الناس من الخير فليس له فى الواقع صاحب ولا صديق ، وكان شريرا عدوا لنفسه ولغيره ، ومن أظهر له المحبة فإما لدفع شره أو لغرض آخر وليس فى الواقع محبا ولا صديقا له .

من جاد بالمال مـال النـــاس قاطبـــة ::: إليـــه والمـــال للإنســـان فتـــان

والمعنى: من سخا بالمال أحبه الناس جميعا وانقادوا له ، فإن طبيعة المال سحر النفوس وجذب القلوب إلى صاحبه .

من سالـــم الناس يسلم من غوائلهم ::: وعـــاش وهـــو قرير العين جذلان

والمعنى: من دار مع الناس ولم يعاند معهم سلم من شرورهم وعاش مطمئنا هادئ البال فرحا مسرورا .

من كان للعقـــل سلطانـــا عليه غدا ::: ومـــا علـــى نفسه للحرص سلطانا

والمعنى: أن من كانت أعماله صادرة عن سلطان دين وعقل لم تغلب عليه شهوة ولا الحرص والطمع وكان محبوباً لدى الله والناس أجمعين .

من مد طرفا لفرط الجهل نحو الهوى ::: أغضى عن الحـق يوماً وهـو خزيـان

المعنى: من مد عينه إلى جانب هوى نفسه الأمارة بالسوء لتجاوز جهله الحد ،

وأغمض عينيه عن رؤية الحق ، وأعرض عنه فى يوم أى يوم ويكون خزيان فى ذلك اليوم مهان حيران ، فالعاقل من لا يجعل زمام عقله فى يد نفسه وهواه .

من استشـــار صـــروف الدهر قام له ::: علـــى حقيقة طبع الدهـــر برهـــــان

المعنى: من رجع إلى حوادث الزمان ومصائبه ونظر إليها بالعين السليمة ظهرت له الحجة القاطعة على طبيعة الزمان وأنه لا يؤمن غائلته .

من يزرع الشر يحصـــد فى عواقـــبه ::: ندامة ولحصـــد الـــزرع إبـــــان

والمعنى: من يعمل عملا صالحا يجد خيره فى الدنيا والآخرة وقت الحساب ومن يعمل عملا يعصى فيه الله يجد عاقبته يوم القيامة .

من استنـــام إلى الأشرار نام وفـــى ::: قميصـــه منهـــم صِلٌ وثعبـــان

صل هى الحية التى لا يفيد معها علاج والمعنى: من صاحب الأشرار وخالطهم وصل شرهم إليه من حيث لا يدرى ، ولا يقدر على دفعه .

كن ريّق البشر إن الحـــر همتـــه ::: صحيفة وعليها البشـــر عنـــوان

والمعنى: كن طلق الوجه بشاشا ولا تكن منقضبا عبوسا ، فإن عادة الكريم إدخال الفرح ابتداء على أخيه خصوصا عند اللقاء كصحيفة جاءت من قريب أو حبيب تحمل البشارة ، فإن من وصلت إليه تلك الصحيفة يحصل له الفرح والنشاط بمجرد النظر فى عنوانها بخلاف ما إذا كانت معنونة بضدها فإنه يتألم لمجرد رؤيتها .

ورافـــق الرفق فى كـــل الأمور فلم ::: يندم رفيق ولـــم يـــذممه إنســـان

والمعنى: صاحب اللين فى كل الشئون فإن اللين من بنى الإنسان لا تلحقه ندامة ولا يذمه أحد من الناس ، وإنما يذم الشديد المعاند .

ولا يغرنـــك حـــظ جره خرق ::: فالخـــرق هدم ورفق المرء بنيـــان

المعنى: لما أمر بالرفق واللين حذر من الغرور بنصيب جره إليه العنف والشدة لأنهما كالهدم والرفق كالبنيان .

أحســـن إذا كـــان إمكان ومقـدرة ::: فلـــن يدوم على الإحسان إمكـان

والمعنى: واضحا فى أن من يقدر أن يساعد ويحسن فلا يتأخر عن ذلك .

فالروض يزدان بالأنـــوار فاغمـــة ::: والحـــر بالعـــدل والإحسان يزدان

والمعنى: أحسن ما دمت متمكنا من الإحسان قادرا عليه ؛ لأن زينة الحر الكرم بالعدل والإحسان إلى الناس ، كما أن الروض زينته بالأنوار المتفتحة فنزل الحر منزلة الروض ، والعدل ، والإحسان منزلة الأنوار المتفتحة .

صـــن حـر وجهك لا تهتك غلالته ::: فكـــل حر لحر الوجـه صـــوان

والمعنى: صن ماء وجهك لا ترقه لأمر دنيوى لأن الكريم هو الذى يصون ماء وجهه ويحفظه عن كل لئيم كما يصون عرضه .

ولا ظـــل للمرء يعرى من نهى وتقى ::: وإن أظلتـــه أوراق وأفنـــان

والمعنى: أن من لم ينتفع بالعقل بنوعيه ولم يمتثل الأوامر ويجتنب النواهى فليس يعد فى زمرة الإنسان وإن كانت تظله أوراق الأشجار وأغصانها ، وإن كانت صورته صورة الآدمى ، فإنه فى الحقيقة ليس بآدمى ؛ لأن كل شىء خلق لغاية ولم تحصل عنه تلك الغاية كان فى حكم المعدوم .

والنـــاس أعوان من والته دولتـــه ::: وهـــم عليه إذا عادته أعـــوان

والمعنى: العون إذا استعمل باللام كان معناه المحبة وإذا استعمل بعلى فمعناه البغض ، الموالاة ضد المعاداة وهى المصادقة من قولك: وليه يليه إذا أحبه وصادقه ، ومن الولى ضد العدو ، الدولة فى الحرب أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى ، يقال: إذا كانت لنا عليهم الدولة والدولة بضم الدال فى المال يقال: صار الفىء دولة بينهم يتداولونه يكون مرة لهذا ومرة لهذا والإدالة: الغلبة يقال: اللهم أدلنى على فلان وانصرنى عليه .

سحبـــان من غير مال بأقل حصـــر ::: وبأقـــل مـــن ثراء المال سحبـان

سحبان: رجل من بلغاء العرب يضرب به المثل فى الفصاحة والبلاغة والمعنى:

أن الرجل الفصيح البليغ مع الفقر لا يؤبه به ولا يسمع له ، والرجل العيى الذى لا يكاد يبين مع الغنى موقر محترم وهذا من فساد الزمان .

لا تـــودع الســـر وشاء به مذلا ::: فمـــا رعى غنما فى الدو سرحـــان

والمعنى: لا تقل سرك عند من هو معروف بإفشاء الأسرار ؛ لأنه لا يؤتمن عليه كذئب فى فلاة لا يؤمن على الغنم ، بل الغالب أنه يمزقها ويفرقها شبه السر بالغنم والوشى بالذئب ، فكما أن صاحب الغنم يريد حفظها كذلك صاحب السر ينبغى له أن يحفظه من واش يفشيه ، بين الناس كتفريق الذئب الغنم .

لا تحســـب الناس طبعا واحدا فلهم ::: غرائز لســـت تحصيهن ألـــوان

والمعنى: لا تظن أن الناس طبيعة واحدة وغرائز متحدة ؛ لأن غرائزهم متنوعة وطبائعهم مختلفة ، فإذا اقتضت طبيعة بعضهم حفظ السر فلا تظن أن كل أحد أمين عليه .

مـــا كـــل مـــاء كصـــداء لـــوارده ::: نعـــم ولا نبـــت فهـــو سعـــدان

والمعنى: ليس كل إنسان من دأبه إخفاء سر صديقه بل إخفاء أسرار الأحرار شيمة الكرام الأبرار ، كما قيل فى صدور الأحرار قبور الأسرار كما ليس كل ماء كماء صداء فى السلامة والعذوبة لوارده ، ولا كل نبت كنبت سعدان فى المنفعة لراعيه .

ـ لا تخدشن بمطـــل وجـــه عارفـــة فالبـــر يخدشـــه مطـــل وليـــان

المعنى : لا تجرحن بأظفار مطلك وجه معروفك وإحسانك لأن المماطلة تشين البر والمعروف وقال بعض الحكماء: خير المعروف من لم يتقدمه مطل ولم يتبعه من ، فخير البر عاجله ، وأفضل الإحسان ما سلم من المن والأذى .

لا تستشير غير نـــدب حـــازم يقـــظ قد استوى فيـــه إســـرار وإعـــلان

المعنى: لا تستشر فى أمورك إلا من توفرت فيه هذه الخصال الأربعة الخفة فى الحاجة وضبط الأمور والتيقظ والصراحة فى الحق .

فللتدابيـــر فرســـان إذا ركضـــوا فيها ابروا كمـــا للحـــرب فرســـان

والمعنى: لما نهى عن استشارة من لم يتوفر لديه شروط الاستشارة تخيل أن المخاطب يحسب أن أهل التدبير انعدموا وأهل الاستشارة فقدوا فأزال هذا التوهم بقوله: فللتدابير أى أن أهل الاستشارة باقون ولها رجال إذا ركضوا فى ميزان الرأى

نفعوا من يرجع إلى رأيهم ، كما أن للحرب فرسان إذا جالوا فى ميدان القتال غلبوا على أعدائهم وظفروا بهم .

وللأمـــور مواقيـــت مقـــدرة وكل أمـــر لـــه حـــد وميـــزان

المعنى: لما كان للأمور أوقات مقدرة وأزمان معينة فيكون لها نهاية عينها الله تعالى لحصولها ولا يحصل قبل بلوغها فإذا لا فائدة فى العجلة فليس تحمد كما لا يحمد البحران قبل نضج مادة المرض .

كفى من العيش ما قد سد مـن عـوز ففيـه للحـــر قنيـــان وعينـــان

والمعنى: كفاك من المال ما أزال فقرك فلا تطلب كثرة المال لأن بذلك القدر راحة للحر وغنى عن الكثرة مع التعب .

وذو القناعـة راض مـن معيشتـــه وصاحب الحرص إن أثـرى فغضبـان

والمعنى: صاحب القناعة راض بما قسم الله له من أسباب عيشه بخلاف الحريص فهو غضبان غير راضى بما قسم الله له وإن أكثر عليه نعمته .

حســـب الفتـى عقله خلا يعاشره ::: إذا تحامـــاه إخـــوان وخـــلان

والمعنى: إذا اجتنب الفتى إخوان السوء وأحباب زور فعقله يكفيه عنهم فالرجوع إليه عند الحاجة أولى .

هما رضيعـــا لبان حكمـــة وتقى ::: وساكنـــا وطن مال وطغيـــان

المعنى: الحكمة والتقوى أخوان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، والمال والطغيان يسكنان فى وطن واحد لا يفارق أحدهما صاحبه .

إذا نبا بكريـــم موطـــن فلـــه ::: وراءه فى بســـط الأرض أوطـــان

والمعنى: إذا لم يوافق الكريم مسكنه لحصول الهوان له من الأرذال فأرض الله واسعة أمامه فليرتحل إلى بلد موافق ، وفى هذا يقول الأدباء فأقم بدار ما أصبت كرامة . وإذا نبا بك منزل فتحول .

يا ظالـــما فرحـــا بالعز ساعـــده ::: إن كنـــت فى سنة فالدهر يقظـان

المعنى: يا من يظلم الناس مستعينا بعزه ، إن كنت فى غفلة فالله تعالى ليس بغافل فيحاسبك على ظلمك حسابا عسيرا فى الدنيا والآخرة .

ما استمرأ الظلم لو أنصفت آكلـه ::: وهـل يلذ مذاق المـرء خطبـان

والمعنى: لو أنصفت الناس من نفسك ونظرت إلى العاقبة علمت أن ما أكله الظالم مما أخذه ظلما ، لم يسغ من حلقه بل ينغص فيه ولا يجد له لذة فى الحقيقة ، فهو بمنزلة الحنظل الذى لا يجد المرء لذة فى تناوله .

يا أيهـا العالـم المرضى سيرتـه ::: أبشـر فأنـت بغير الماء ريـان

المعنى: يا من اتصف بالعلم النافع وحسنت سيرته فى الناس بشر نفسك بحسن الحال والاستغناء عن الناس فإنك حينئذ غنى النفس خفيف على القلوب حبيب لدى الله والملائكة والناس أجمعين .

ويا أخـا الجهل لو أصبحت فى لجج ::: فأنـت ما بينها لاشـك ظمـآن

والمعنى: يا من رسخ فى الجهل ولم يبذل طاقته فى الخروج من ظلمته لو صرت فى لجج لم تنتفع بمائها ، فأنت فيها على حالك قبلها إذ لا شعور لك بالعطش ؛ لأن جهلك يحول بينك وبين الشعور به ، فالعلم حياة ونور والجهل موت وظلمة .

لا تحسبـن سـروراً دائما أبـدا ::: مـن سـره زمن ساءته أزمـان

والمعنى: يا من اغتر بشبابه وسكر من كأسه ولم يتدبر فى عواقب أمره أجب عن هذا السؤال وهو: أن السكران يجد طريقا إلى الهداية وسبيلا إلى الاستقامة على الحق ؟ والحق لا . . . .

لا تغتر بشبـاب رائـق خضـل ::: فكـم تقدم قبل الشيـب شبـان

المعنى: لا تغتر بعنفوان شبابك وقوتك فكثيرا سبق الموت القوى الضعيف والصغير الكبير .

ويا أخا الشيب لو ناصحت نفسك لم ::: يكـن لمثلك فى الإسراف إمعـان

المعنى: النصح والصدق والإخلاص ومنه التوبة النصوح والمعنى واضح .

هب الشيبة تبلى عـــذر صاحبهـــا ::: وما عـــذر أشيب يستهويه شيطـــان

المعنى: افرض أن حداثة السن عذر يقبله الناس ولا يلومونه على ما فرط منه ، وإن لم تصلح عذرا فما عذر من ابيض شعر رأسه وجاءه نذير الموت ، يزين له شيطان أنواع الفساد ويدفعه إلى الشرور ، فطوبى لمن ملك زمام نفسه ولم يغلب هواه على عقله ؛ لأن الهوى ملك غشوم وسلطان ظلوم .

كـــل الذنـــوب فإن الله يغفرهـــا ::: إن شيـــع المـــرء إخـــلاص وإيمان

والمعنى: الإخلاص فى الطاعة وترك الرياء .

وكـل كســـر فـــإن الله يجبـــره ::: ومـــا لكســـر قنـــاة الدين جبران

والمعنى: أن الله تعالى يغفر الذنوب إذا كان للعبد إخلاص وإيمان ؛ لأن الدين يصلح كله ثلمة وخلل فى العمل ، وأما كسر قناة الدين فخلل واقع فى أصله ولا يرجى له إصلاح .

خذهـــا سوائـــر أمثال مهذبـــة ::: فيهـــا لمـــن يبتغى التبيان تبيـــان

والمعنى: تنقية وتهذيب النفس والتنبيه على العيوب ، والرجل المهذب يطلب حسن الأخلاق .

ما ضر حسانها والطبـــع صائغهـــا ::: إن لـــم يصغها قريع الشعر حسـان

المعنى: إذا سمعت كلاما فلا تنظر إلى حال قائله ، ولكن انظر إلى كثرة طائلة كما قال على كرم الله وجهه: «**لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال**» .

والأبيات الشعرية السابقة كانت من قصيدة أبى الفتح البستى ، ومن تمعن فيها تعلم الكثير فى إعداد موعظته .

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ: «**أنه ذكر رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال: ائتنى بالشهود أشهدهم فقال: كفى بالله شهيداً قال: فأتنى بالكفيل قال: كفى بالله كفيلا ، قال صدقت فدفعها إليه إلى أجل مسمى**» فخرج الذى استلف فى البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبا يركبها حال كونه يقدم عليه (بفتح الدال) على الذى أسلفه «**للأجل الذى**

أجله فلم يجد مركبا» ، زاد فى رواية أبى سلمة : **«وغدا رب المال إلى الساحل يسأل عنه ويقول : اللهم اخلفنى وإنما أعطيت لك فأخذ الذى استلف خشبة فتقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه الذى استلف منه ، ثم زجج موضعها أى سمرها بمسامير كالزج وهو النصل ، ثم أتى بها إلى البحر فقال : اللهم إنك تعلم أنى كنت تسلفت فلانا ألف دينار فسألنى كفيلا فقلت : كفى بالله كفيلا فرضى بك ، وسألنى شهيداً فقلت : كفى بالله شهيدا ، فرضى بك ، وإنى جهدت أن أجد مركبا أبعث إليه الذى له فلم أقدر ، وإنى أستودعكها وفى رواية : استودعكتها ، فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ، ثم انصرف وهو أى والحال أنه فى ذلك يلتمس مركبا يخرج إلى بلده أى بلد الذى أسلفه فخرج الرجل الذى أسلفه ينظر لعل مركبا قد جاء بماله ، فإذا بالخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطبا فلما نشرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الرجل الذى كان أسلفه فأتى بالألف دينار فقال : والله ما زلت جاهدا فى طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبا قبل الذى أتيت فيه قال : هل كنت بعثت إلى بشىء؟ قال : أخبرك أنى لم أجد مركبا قبل الذى جئت فيه قال : فإن الله قد أدى عنك مالك (المال) الذى بعثت فى الخشبة فانصرف (بصيغة الأمر) بالألف دينار التى أتيت بها حال كونك راشدا»** أى مهتديا .

انظر أيها الواعظ إلى ما فى هذه الرواية من صدق مع النفس والغير وصدق مع الله ، والحرص على أداء الأمانة والوفاء بالعهد وحب الحلال وبغض الحرام ، فهذا درس وموعظة تثبت فى الأذهان والقلوب .

وعنه رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : **«إن ثلاثة من بنى إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أراد الله أن يبتليهم ، فبعث إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال : أى شىء أحب إليك ؟ فقال : لون حسن وجلد حسن ويذهب عنى الذى قد قذرنى الناس فمسحه فذهب عنه قذره وأعطى لونا حسنا قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل أو قال : البقر فأعطى ناقة عشراء فقال : بارك الله لك فيها . فأتى الأقرع فقال : أى شىء أحب إليك قال : شعر حسن ، ويذهب عنى هذا الذى قد قذرنى الناس فمسحه فذهب عنه ، وأعطى شعرا حسنا فقال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : البقر فأعطى بقرة حاملا قال : بارك الله لك فيها . فأتى الأعمى فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله**

بصرى فأبصر الناس فمسحه فرد الله إليه بصره قال: فأى المال أحب إليك قال: الغنم فأعطى شاة ولدا: فأنتج هذان المشار إليهما صاحب الإبل والبقر وولد هذا فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم ، ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته فقال: رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ، ثم بك أسألك الذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ بى فى سفرى فقال: الحقوق كثيرة فقال: كأنى أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيرا فأعطاك الله ؟ قال: إنما ورثت المال كابرا عن كابر فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله ؟ إلى ما كنت ، وأتى الأقرع فى صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا ورد عليه مثل ما رد عليه فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت ، وأتى الأعمى فى صورته وهيئته فقال: رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها فى سفرى فقال: كنت أعمى فرد الله إلى بصرى فخذ ما شئت ودع ما شئت ، فوالله لا أجهدك اليوم بشىء أخذته لله عز وجل فقال أمسك مالك فإنما ابتليتم ، فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك» (متفق عليه) .

فهذه الرواية تعلمنا الاعتراف بالابتلاء والصبر عليه وإنه من الله عز وجل وإن كشفه الله فنسب الفضل إلى صاحب الفضل الله تبارك وتعالى وأن لا نكابر بالنعمة بعد الحرمان وطالما الإنسان ابتلاه الله وصبر واحتسب فإن الله مخلصه مما هو فيه فيحمد الله على السراء والضراء ويعترف بفضل الله عليه فى جميع الأحوال .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**انطلق ثلاثة نفر مما كان قبلكم حتى أواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم: قال رجل منهم: اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا فنأى بى طلب الشجر يوما فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلا أو مالا فلبثت والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمى فاستيقاظا فشربا غبوقهما اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه**

من هذه الصخرة فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه - قال الآخر - اللهم إنه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس إلى - فأردتها على نفسها فامتنعت منى حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت فلما قعدت بين رجليها قالت اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلى وتركت الذى أعطيتها اللهم إنت كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها - وقال الثالث: اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءنى بعد حين فقال يا عبد الله أد إلى أجرى قلت: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق فقال: يا عبد الله تستهزئ بى فقلت: لا أستهزئ بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون» (متفق عليه) .

ونتعلم من هذا تقوى الله فى أعمالنا ونكثر من فعل العمل الصالح وفعل الخير ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى وليس رئاء الناس فالعمل الصالح لوجه الله تعالى ينصر صاحبه فى الدنيا والآخرة فهذا أيضا درس من دروس وموضوعات الموعظة الحكيمة .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**اشترى رجل من رجل عقارا فوجد الذى اشترى العقار فى عقاره جرة فيها ذهب فقال له ، الذى اشترى العقار: خذ ذهبك إنما اشتريت منك الأرض ولم أشترى الذهب ، وقال الذى له الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها فتحاكما إلى رجل فقال الذى تحاكما إليه: ألكما ولد ؟ قال أحدهما: لى غلام وقال الآخر: لى جارية قال: أنكحا الغلام الجارية وأنفقا على أنفسهما منه فتصرفا**» (متفق عليه) وهكذا تكون الأمانة والمحبة فى الله .

وعن أنس رضى الله عنه قال: مات ابن لأبى طلحة من أم سليم فقالت لأهلها أى لقرابتها الذين عندها وشعروا بوفاة ابنها: لا تحدثوا أبا طلحة بوفاة ابنه لئلا يتنغص عيشه وهو صائم فلا ينال حاجته من الطعام حتى أكون أنا أحدثه فجاء ، فقال: ما فعل ابنى؟ قالت أم سليم: هو أسكن ما كان أى أهدأ حالا فإنه كان قلق واضطراب للنزع ، فذهب ذلك حينئذ وظن أبو طلحة أنها تريد أنه زال ألمه وأخذ فى العافية ، وفى عبارتها

التوجيه ، فقربت إليه العشاء ، فأكل وشرب ثم تصنعت له بتحسين الهيئة بالحلى ونحوه أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك الوقت ، وهذا يدل على قوة صبرها وكمال يقينها ، فوقع بها (جامعها) ، فلما أن رأت قد شبع وأصاب منها قالت: يا أبا طلحة أرأيت (أخبرنى) لو أن قوما أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم ؟ قال: لا ، قالت: فاحتسب ابنك (أى اطلب ثواب ابنك وأجر مصيبتك فيه من الله) ولا تدنسها بما يحيط الثواب فإنه كان عندك عارية استرده مالكه ، قال أنس: فغضب أبو طلحة ، وقال لأم سليم: تركتينى حتى تلطخت (أى تقذرت بالجماع) ، ثم أخبرتنى يابنى فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك فقال النبى ﷺ: «**بارك الله لكما فى ليلتكما**» قال: أنس فحملت أم سليم وولدت غلاما سماه النبى ﷺ عبد الله ورزق عبد الله هذا تسعة أولاد صالحين كلهم قد قرءوا القرآن لدعائه صلوات الله وسلامه عليه لهما بالبركة .

نتعلم من هذا الحديث التسلية عن المصائب ، وكيف نتحملها وقوة الإيمان والصبر على النوائب وأجر هذا الصبر كما نالته أم سليم من دعاء النبى ﷺ لهما بالبركة ، فاستجاب الله له كرامة للنبى ﷺ ، ولعملها الصالح فعوضها ابنا آخر وأنجب أولاد تسعة أتقياء حافظين القرآن الكريم .

ومن الفكاهات الأدبية: التى يمكن استخدامها فى موضوع الموعظة وأسلوبها نذكر منها الآتى: روى أن الهرمزان أحد قواد الفرس دخل مستسلما على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال: يا عمر ، كنا وإياكم فى الجاهلية على بعد من الله جل وعلا فغلبناكم ؛ لأنه لم يكن معنا ولا معكم ، فلما كان الله معكم غلبتمونا فقال عمر: إنما غلبتمونا باجتماعكم وتفرقنا (أى ولما جمع الله تعالى بالإسلام بين قلوبنا غلبناكم) .

وروى: عن ميمون بن مهران أن جاريته جاءت ذات يوم بإناء فيه مرق حار وعنده أضياف فعثرت ، فصب المرق على رأسه ، فأراد ميمون أن يضربها فقالت له الجارية: يا مولاى اعمل بقول الله تعالى ﴿ **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ** ﴾ فقال لها: قد فعلت فقالت: أعمل بما بعده ﴿ **وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ** ﴾ قال: قد عفوت عنك قالت الجارية: ﴿ **وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ قال: قد أحسنت عليك فأنت حرة لوجه الله

تعالى ولك ألف درهم . وهذا غاية فى الحلم والكرم والعفو عند القدرة والعمل بآيات الله عز وجل .

ومنها: أنه كان لمالك بن دينار جار يهودى فحول اليهودى مستحمه إلى جدار البيت الذى فيه مالك بن دينار ، وكان الجدار متهدما ، فكانت تدخل النجاسة ، وكان مالك ينظف البيت كل يوم ولم يقل شيئا ، وأقام على ذلك مدة وهو صابر على الأذى فضاق صدر اليهودى من طول صبره على هذه المشقة فقال: يا مالك ، قد آذيتك كثيرا وأنت صابر ولم تخبرنى ولم تشكنى إلى أحد فقال: قال رسول الله ﷺ: «**مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**» .

فندم اليهودى وأسلم وحسن إسلامه .

وروى: أن يهوديا شكا على بن أبى طالب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، فلما مثل بيد يديه قال الفاروق لعلى: اجلس يا أبا الحسن مع خصمك مجلس الخصومة فظهرت دلائل الامتعاض على وجهه فلحظ ذلك أمير المؤمنين ، فقال له: أكرهت يا على أن تجلس أمام خصمك؟ قال: لا ولكنك ناديتنى بكنيتى فرفعتنى عليه فكرهت ذلك (أى أراد التسوية بين الخصمين فى القضاء) . فانظر هداك الله إلى رجل يمتعض ؛ لأن الحاكم نداه بكنيته أمام خصمه فشعر بذلك رفعة عليه (يا أبا الحسن) وهذا مما تغتبط به الناس وترتاح له ، ولكن عليا رضى الله عنه وكرم الله وجهه كان حريصا على الحق فى نفسه ناصرا له فى مجتمعه ، ولو كان ذلك على نفسه .

وحكى: عبد الله بن عبد الرحمن قال: كنت عند سهل بن عبد الله التسترى الصوفى ، وهو يتكلم على الناس فوقف علينا غلام جميل فمد بعض الناس عينه ينظره ، ووافقه جماعة فى النظر فقال سهل: مهلا أيها الناس تغترون بحلم الله عنكم وإمهاله لكم فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ، واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه فإنكم هاجتم على ما نهاكم عنه ، فإن عدتم إلى أمره أقام لكم على حلمه ، وإن تماديتم فى شهواتكم لم آمن عليكم عقوبة تأتى إليكم ، فإنه ذو مغفرة وذو عقاب أليم ، فغلبهم البكاء ، وأعلنوا التوبة والإنابة إلى الله تعالى .

وروى: أن خدم بعض الملوك التقطوا طفلا وجدوه مطروحا فى الطريق ، فأمر الملك أن يضموه إلى أهل بيته وسماه أحمد اليتيم ، فلما نشأ ظهرت عليه أمارات النجابة والذكاء فهذبه وعلمه ، ولما حضرته الوفاة أوصى ولى عهده به فضمه إليه واصطفاه ، وأخذ عليه العهد أن يكون له وفيا وخادما أمينا ، وبعد ذلك قدمه فى أعماله فصار حاكما على جميع حاشية الأمير ومتصرفا فى شئون قصره وفى بعض الأيام أمره أن يحضر شيئا من بعض حجراته فذهب ليحضره فرأى بعض جوارى الأمير الخاصة به مع شاب من الخدم يزنيان فتوسلت إليه الجارية أن يكتم الخبر ، ووعدته كل ما يطلب وراودته عن نفسه لتأمن شره فقال لها: معاذ الله أن أخون الأمير وقد أحسن إلى ثم تركها وانصرف على أن يكتم السر ، لكن الجارية أوجست فى نفسها خيفة وتوهمت أحمد اليتيم يفش أمرها فانتظرت الأمير حتى حضر ثم ذهبت إليه باكية شاكية فسألها ما خبرها فقالت: إن أحمد اليتيم راودها عن نفسها وكان يريد أن يقهرها على الزنا ، فلما سمع الأمير ذلك غضب واشتد غضبه فعزم على قتله ثم دبر له قتله فى الخفاء حتى لا يعلم الناس بسبب ذلك القتل فقال لكبير خدمه: إذا بعثت إليك أحداً يطلب منك كذا أو كذا فاقطع رأسه وابعث به إلى لأطمئن ثم ادفن الجثة فأجاب الخادم بالسمع والطاعة ، وفى يوم من الأيام أحضر الأمير أحمد اليتيم وقال له: اذهب إلى فلان الخادم وقل له يعطيك كذا وكذا فامتثل الأمر وذهب إلا أنه لقى فى طريقه بعض الخدم فأرادوا أن يحكموه بينهم فى أمر ، فاعتذر وقال: إنه مكلف بقضاء أمر الأمير فقالوا: نبعث فلاناً الخادم نائباً عنك ليحضر ما تطلب حتى تفصل فى شأننا فأجابهم إلى ما طلبوا ، فأرسلوا واحداً منهم وهو الشاب الذى سبق له الزنا بالجارية ، فلما ذهب وأخبر الرئيس بالرسالة أخذه إلى المكان الذى أعده ثم قطع رأسه على غرة وجاء به إلى الأمير . فلما أبصره زال عنه ما كان يجده من انقباض نفسه ، ولكنه لما رفع الغطاء عنه رأى رأسا غير رأس أحمد اليتيم ، فسأله عن الذى قتله فقال هو فلان قال: ألم يكن أحمد ؟ قال: لا فأمر بإحضار أحمد فسأله عما فعل فأخبره بما كان فقال الأمير: أتعرف لهذا الخادم ذنبا ؟ قال: نعم ، إنه فعل كذا وكذا مع فلانة وقد سألونى بالله وبك أن أكتم الخبر ، فلما سمع الأمير ذلك أمر بقتل الجارية ، وعاد إلى ما كان عليه من محبة أحمد وإكرامه .

وكانت هذه عاقبة الوفاء للوفى ، وعاقبة الخيانة للخائن ، والجزاء من جنس العمل ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ .

ضرب الأمثال فى العظة: حيث لها أثارها الكبيرة فى النفوس والمقصود منها أنها تؤثر فى العقول مالا يؤثره وصف الشىء ذاته ، والترغيب فى الإيمان إذا كان مجردا عن ضرب مثل له لم يتأكد وقوعه فى القلب وإذا كره فى الكفر بمجرد الذكر لم يتأكد قبحه فى العقول كما يتأكد إذا مثل بالظلمة أو بشجرة خبيثة ، وفرق بين قوله لإنسان وهو يعظه: إنك لا تجزى على السيئة حسنة فلا تغر نفسك ، وأقلع وأنب إلى ربك ، وبين أن يقول له فى أثره: إنك لا تجنى من الشوك العنب ، وإنما تحصد ما تزرع وكذا قوله: إن الدنيا لا تدوم ولا تبقى وبين قوله: الدنيا ظل زائل وعارية تسترد ووديعة تسترجع ويتذكر قول النبى عليه الصلاة والسلام: «**من فى الدنيا ضيف ، وما فى يديه عارية والضيف مرتحل والعارية مؤداة**» .

وينشد قول لبيد:

وما المـــال والأهلـــون إلا ودائـــع ::: ولابـــد يومـــا أن ترد الودائـــع

وقول غيره:

إنمـــا نعمـــة قـــوم متعـــة ::: وحيـــاة المـــرء ثـــوب مستعار

وما إلى ذلك مما ينبئك أيها الواعظ الناصح عن صيغ التمثيل ويخبرك عن حال المعنى معه ، ونذكر لك بعض الأمثال على النحو التالى:

١ - فى ثبوت الحق وزهوق الباطل قول الله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ ﴾ أى مثل ذلك الضرب البديع المشتمل على نكت رائقة ﴿ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾ ، أى مثل الحق ومثل الباطل وبين ذلك بقوله: ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ ﴾ من السيل وما يوقد عليه من المعادن فيذهب جفاء ، أى يرمى به ، وأما ما ينفع الناس من الماء الصافى وخالص المعادن فيمكث فى الأرض ينتفع به أهلها ، يبين الله الأمثال فى كل باب إظهارا لكمال اللطف والعناية فى الإرشاد والهداية ، فإنه تبارك وتعالى مثل الحق فى إفادته وثباته بالماء الذى ينزل من جهة السماء

فتسيل به الأودية على قدر الحاجة والمصلحة حسبما اقتضته مشيئته تعالى وحكمته ، فينتفع به من وجوه شتى ، ويمكث فى الأرض بأن يبقى بعضه فى منابعه ويسلك بعضه فى عروق الأرض إلى العيون والآبار ، وبالسبيكة التى تؤخذ من نحو الذهب وباقى المعادن للانتفاع بها فى الحلى وعمل الأوانى وآلات الحرب ، ويدوم ذلك مدة طويلة ، ومثل الباطل فى عدم نفعه وسرعة زواله بزبد الماء والمعادن ، والزبد هو رغوات فوق الماء سرعان ما تنتهى .

٢ - فى سرعة انقضاء الدنيا قال تعالى: **﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾**، أى اذكر لهم ما يشبهها فى زهرتها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يطمئنوا ولا يعكفوا عليها ، وأنها كماء أنزلناه من السماء فالتفت بسببه نبات الأرض وخالط بعضه بعضا لكثرته ، فصار النبات إثر بهجته ونضارته مهشوما مكسرا تفرقه الرياح ، وهذا حال النبات المنبت بالماء يكون أخضر براقا ، ثم هشيما تطيره الرياح كأن لم يكن وكذلك الدنيا .

٣ - وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا منتنة**» (يحذيك أى يعطيك - الكير الرق الذى ينفخ به فى النار) .

٤ - وروى أيضا من حديث أبى موسى عن النبى ﷺ قال: «**إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قوما فقال: يا قوم ، إنى رأيت الجيش بعينى وإنى أنا النذير العريان فالنجاء النجاء فأطاعه طائفة من قومه فادلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى فاتبع ما جئت به ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق**» .

وهذا التمثيل معناه واضح من النبى ﷺ .

٥ - ومن حديث النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «**مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا:**

لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا» ، فالقائم فى حدود الله ينجو والمنكر لها يقع الجميع منهم فى العقوبة .

٦- وأخرج ابن جرير والحاكم من حديث جابر قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوما فقال: «**إنى رأيت فى المنام كأن جبريل عند رأسى وميكائيل عند رجلى يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلا ، فقال: اسمع سمعت وأعقل عقل قلبك ، إنما مثلك ومثل أمتك مثل ملك اتخذ دارا ثم بنى فيها بيتا ، ثم جعل فيها مأدبة ، ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ، ومنهم من ترك ، فالله هو الملك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنة ، وأنت يا محمد رسول الله ، فمن أجابك دخل الإسلام ومن دخل الإسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل منها**» .

٧ - إذا أردت أن تبين أن العمل الصالح هو الصاحب النافع فاضرب لهم مثلا رجلا كان له أصحاب ثلاثة ، لا يقوى على مفارقتهم ، وكان يميل إلى اثنين منهم ميلا شديدا ، ولا يركن إلى الثالث إلا قليلا مع أنه كان حسن الطوية خالص النية فاتفق له ذات يوم أنه اتهم بتهمة خطيرة فقبض عليه وزج به فى أعماق السجون وهو فى الواقع برىء فأخبر أصحابه بأمره وطلب منهم أن يذهب أحد منهم معه إلى دار القضاء ويشهد له بما يعلم كى ينجو من السجن فاعتذر الأول قائلا: إنه يتعذر علىّ الانتقال لكثرة مشاغله ، والثانى ذهب معه إلى باب المحكمة ، ثم أحجم عن الدخول خوفاً من غضب الحاكم عليه واتهامه بالتزوير فى الشهادة لمكان الصحبة ، وأما الثالث الذى كان قليل الميل إليه فإنه لم يتأخر عن الذهاب معه والدخول أمام القضاء ، فلما مثل بين يدى الحاكم شهد لصاحبه بالحق وعلم الحاكم صدقه فى الشهادة . فقبل شهادته وعطف قلبه على صاحبه المتهم فحكم ببراءته وأخلى سبيله فالمراد بالأصحاب الثلاثة المال والبنون والعمل الصالح ، فإن لكل امرئ فى الحياة أصحابا ثلاثة : ما له وأهله وعمله لا يستغنى عنها ، فإذا فاضت روحه فارقته أمواله التى هى أعز أحبابه ، وأما أهله فإنهم يذهبون معه إلى باب القبر ثم يتركونه ويعودون إلى منازلهم ، يتنازعون ما ترك ، وأما أعماله التى لا يعرف ما يترتب عليها من حسن العاقبة فإنها لا تفارقه إلى أن يقف بين يدى أحكم الحاكمين وتشهد لصاحبها لا عليه ، فيشمله الله بعدله ورحمته ويدخله فسيح

جنته فقال رسول الله ﷺ: «**يتبع الميت ثلاث: أهله وماله وعمله ، فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله وماله ويبقى عمله**» (متفق عليه) .

ومثل الدنيا: الدنيا شبه ملجأ أقامه ملك قوى غنى ليأوى إليه أبناء السبيل المسافرون ، وقد أعد فى هذا الملجأ كل وسائل الراحة من أغذية وأكسية وأوان وفرش وجميع ما يحتاج إليه اللاجئ من المسافرين ، وأباح لهم الانتفاع بكل ما فيه انتفاع العارية ثم يتركها لمن يأتى بعده ، فيأخذها فرحا مسرورا وعند الرحيل يتركها راضيا شاكرا للملك حسن صنيعه فكان النازلون على قسمين: قسم انتفع بها على أنها عارية ثم سلمها منشرح الصدر شاكرا وهم العقلاء المتبصرون ، وقسم ظن أن هذا الملجأ وطن له وأن جميع ما فيه من متاع ليس عارية تسترد بل منحة مؤبدة ، فكانوا لا يخرجونها من أيديهم إلا بكسر اليد ونزع الروح وهم الحمقى عمى البصائر .

ومثل فى كيفية توزيع الجزاء فى الآخرة على الحسنات والسيئات وهو يقول الواعظ: الناس ينقسمون فى الآخرة إلى أربعة أقسام: هالكين ومعذبين وناجين وفائزين ، ومثال ذلك فى الدنيا أن يستولى ملك قوى على إقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون ، ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون ، ويخلى سبيل بعضهم فهم الناجون ، ويخلع على بعضهم فهم الفائزون ، فإن كان الملك عادلا لم يقسمهم كذلك إلا استحقاق فلا يقتل إلا جاحدا لاستحقاق الملك معاندا له فى أصل الدولة ، ولا يعذب إلا من قصر فى خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته ، ولا يخلى إلا معترفا له برتبة الملك ، لكنه لم يقصر ليعذب ، ولم يخدم ليخلع عليه ، ولا يخلع إلا على من أبلى عمره فى خدمته ونصرته وتتفاوت الخلع بتفاوت الدرجات فى الخدمة ، والإهلاك أيضا يكون بجز الرقبة ، أو تنكيلا بالمثلة بحسب درجات المعاندة ، وتعذيب المعذبين فى الخفة والشدة وطول المدة وقصرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم ، فكذلك الناس فى الآخرة يتفاوتون فى الجزاء بحسب تفاوت الأعمال فهناك الهالكين والمعذبين والناجين والفائزين وهم أصحاب الأعمال الصالحة ابتغاء وجه الله تعالى .

* * * * * * * * *

طرق الإرشاد

هذه الطرق كثيرة ومتنوعة تتنوع بتنوع الأحوال والأمراض الاجتماعية ، ولكنها ترجع إجمالا إلى طريقين : الترغيب والترهيب كما يشير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الإسراء : ٩ ، ١٠) فإن قوله عز وجل : ﴿ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وما بعده من بيان لهداية القرآن بالترغيب والترهيب ، فالترغيب بوعد الطائعين الحافظين لحدود الله تعالى بعظيم الخير ، وتبشيرهم بحسن المثوبة والترهيب بوعيد المخالفين الذين تعدوا حدود الله ، وإنذارهم بشديد العذاب وسوء العاقبة .

الترغيب :

وهو ما يساعد الناس ويحثهم إلى محبة الله ومحبة طاعته عز وجل لنيل السعادة فى الدنيا والآخرة ، وهو على ركنان الأول : الترغيب فى جنس الطاعات ، والثانى : الترغيب فى أنواع الطاعات .

أولا : الترغيب فى جنس الطاعات :

بما جاء فى ذلك من الكتاب والسنة كقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ تجد فى هذه الآية الكريمة وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ونصروا دينه أن يجعلهم خلفاء فى الأرض متصرفين فيها كما استخلف بنى إسرائيل فى مصر والشام بعد إهلاك فرعون والجبارين ، وأن يجعل دينهم ثابتا مقررا بحيث يستمرون على العمل به ويرجعون إليه فى كل ما يأتون وما يذرون ، وأن يبدلهم بعد الخوف أمنا بتأييدهم بالنصر على الأعداء كما كان الحال للمها جرين ؛ إذ فتح لهم بلاد الشرق والغرب وصاروا إلى حال يخافهم كل من عداهم وبذلك رغبهم فى الطاعة .

وقوله الله تبارك وتعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ والمعنى أن للذين أحسنوا أعمالهم فى الدنيا جزاء حسنا

مكافأة لهم فيها على إخلاصهم فى العمل وجزائهم الحسن فى الدار الآخرة ، خير وأعظم مما أوتوا فى الدنيا من جزاء حسن ، وهذا كان جزاء المخلصين فى الأعمال لوجه الله عز وجل .

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وذلك ترغيبا فى العمل الصالح فإن الله تعالى وعده بأحسن الحال فى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى: ﴿ فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ﴾ ، فيعيش حياة طيبة هنية ، وإن كان معسرا فإن معه الإيمان القوى والقناعة والرضى بما قسمه الله له ، فله أجر عظيم ، أما الفاجر الجاحد ولو كان موسرا فلا يدعه الحرص وخوف الفوات لمن يتهنأ بعيشه فهو دائما فى عناء ونكد ، هذا فى الدنيا ، ولجزاء الآخرة خير وأعظم ، وليعلم أن العيش عيش الآخرة .

وقوله الله سبحانه وتعالى ترغيبا فى التقوى: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ ، فوعد الله تعالى المؤمنين الصادقين فى طاعة الله وتقواه أن يمنحهم الهداية فى قلوبهم يفرقون بها بين الحق والباطل ، ويمنحهم النصر الذى يفرق بين المحق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين والمنافقين كقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، والتقوى والعمل الصالح يورث العلم والحكمة وينير البصيرة ، وبذلك يستطيع المرء أن يفرق بين الحق والباطل والنافع من الضار ، كما بهما يمنحه الله نصرا وظفرا على الأعداء .

وقول الله عز وجل ترغيبا فى الدين والتمسك به: ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا ﴾ أى أن لو استقام المرء على ملة الإسلام لوسع الله عليه الرزق ، ودلل بذلك بالماء الغزير حيث إن الماء أصل السعة والخيرات كلها فى الدنيا .

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ ، وكما قال العلماء: البرهان ما يبرهن به على المطلوب ، والمراد

رسول الله ﷺ سمى به لما معه من المعجزات التى تشهد بصدقه بل هو نفسه برهان على صدق دعواه وحقيقة ما جاء به ، يظهر ذلك لكل ما من عرف حياته قبل البعثة وبعدها ، فإنه برهان بسيرته العملية كما أنه برهان فى دعوته العلمية ، فقد نشأ يتيما أميا لم يعن بتربيته عالمٌ ولا حكيم ولا سياسى ، ومع هذا قام فى كهولته يدعو الناس جميعا إلى توحيد الله وطاعته ، ويعلمهم حقيقة الإيمان الصحيح بالله عز وجل .

وكل ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ودنياهم من تقويم العبادات ونظام المعاملات ومكارم الأخلاق كل ذلك على أساس الحجج الكونية والبراهين العقلية فلا غرابة أنه يسمى هو نفسه برهانا ، والنور المبين هو القرآن الكريم فإنه كالنور النير فى نفسه المنورَ لغيره .

وقوله تعالى : **﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾** أى قالوا ذلك إقرارا بوحدانية الله وإيمانا بربوبيته وثبتوا على هذا الحق واليقين بالله ولزوم طاعته فإنهم بذلك لا يجدوا ما يخوفهم أو يحزنهم وأن الله تبارك وتعالى كتب لهم الأمن من كل هم وغم وهذا من إيمانهم الثابت بالله والسير القويم فى الطريق المستقيم الذى يرضى الله ورسوله عليه الصلاة والسلام .

وقوله عز وجل **﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾** بمعنى سيحدث لهم فى القلوب مودة ويزرع فيها محبة يعيشون بها فى الدنيا مطمئنين مكرمين لما لهم من الإيمان وصالح العمل ، وفى صحيح البخارى عن النبى ﷺ قال : إذ أحب الله العمل ، وفى صحيح البخارى عن النبى صلى الله عليه سلم قال : «**إذ أحب الله عبدا يقول لجبريل عليه السلام : إنى أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله أحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له المحبة فى الأرض**» وذلك لا يكون إلا لمن تكمل بالإيمان وتحلى مكارم الأخلاق وصالح الأعمال ، وهذا ما عد منه الله تعالى للمؤمنين العاملين الأعمال الصالحة ابتغاء وجه الله تعالى بأن يجعلهم محل رحمته وإحسانه وموضع عطف الملائكة وقبول الناس أجمعين وهذا هو الترغيب فى الإيمان والعمل الصالح .

وقوله تعالى : **﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾** أى كتاب الله ورسول الله ﷺ وقال :

«**فمن اتبع هداى فلا يضل**» فى الدنيا «**ولا يشقى**» فى الآخرة فهذا هو وعد الله عز وجل لمن يتبع الهدى قال ابن عباس رضى الله عنهما: فمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة يعنى أى الشقاء فى الآخرة هو عقاب من ضل فى الدنيا عن طريق الدين الحنيف فمن اتبع كتاب الله وأطاع أوامره وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال ومن عقابه فقال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا** ﴾ أى ضيقا فى الدنيا .

وقال الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ فهذا وعد الله المجاهدين فى سبيل الله أن يزيدهم هداية إلى طرق الخير وتوفيقا لسلوكها ، كما قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى** ﴾ .

وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال: «**يا غلام إنى أعلمك كلمات**» (وفى رواية مسلم ينفعك الله بهن) .

احفظ الله يحفظك . . إلى آخر الحديث . أى احفظ دين الله بحفظ أوامره ونواهيه فتقف عندها بالامتثال والاجتناب فلا يراك حين نهاك ولا يفقدك حيث أمرك فهو إذا حفظ الله حفظه فى نفسه وأهله وماله مصدقا لقوله تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** ﴾ وباقى الحديث يرغب فى طاعة الله والاستعانة به فى كل أمر والإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره وأن كل أمر وفعل يحدث هو بإذن الله تعالى وبأمره ولحكمة يعلمها الله عز وجل .

ثانيا : الترغيب فى أنواع الطاعات :

مثل الصلاة والصدقة والالتزام بهما ، وكذلك الصوم والحج والجهاد وبر الوالدين ، وإصلاح ذات البين. مع أنواع الفضائل كالشجاعة والعفة والصدق والوفاء والأمانة والحلم والتواضع والكرم والصبر والإخلاص وحب الخير للناس كما يرغبهم فى إتقان الصنائع التى تفيد المجتمع والوطن ، ويحث على الإقبال عليها حيث يؤدى هذا إلى رفع الحركة الاقتصادية التى تعز بها الأمم وترقى الشعوب .

ومن أنفع وسائل الدعوة الحكيمة إلى خير الأعمال والأخلاق والصفات الحميدة هو تذكير الناس إلى الأمم السالفة الصالحة الذين رفعوا منار العلم والدين ونشروا الخير

وصالح الأعمال والعدل والمساواة حتى يعلم الناس أين هم ؟ ومن هم ؟ لعلهم يخشون أن يكونوا شر خلف لخير سلف ، وتندم الأمة على سوء حالها فتقلع عما هى عليه من شرور الأعمال وفساد الأخلاق حتى تكون مثل الأمم السالفة الصالحة ، فهذه أقرب وسيلة تهيب بها إلى خير الأعمال والتحلى بحميد الأخلاق ذلك أن تذكيرها بشرفها السالف ، وتشخيص مجدها الرفيع وعزها المنيع أمام عيونها يدعوها بلاشك إلى التأسى بهم فيما كان لهم من صالح الأعمال وحميد الخصال ، فكانوا يبذلون أرواحهم وأموالهم مخلصين فى سبيل الله والحق ، ففازوا بالسعادتين وخلدوا لأنفسهم أحسن الذكرى عبر التاريخ والعصور ، فعلى الواعظ استخدام طريقة ذكر أحوال السلف الصالح فى أنواع الطاعات والعبادات وتصويرها أمام سامعيه ، فبذلك يؤثر فى نفوسهم وقلوبهم تأثيرا عظيما خاصة وأنه فى أثناء حديثه يقارن بينهم وبين السلف الصالح حتى يدفعهم إلى التآسى بهم ، والعمل بما كانوا يعملون من أنواع الطاعات السابق ذكرها .

الترهيب :

وهو تحذير الناس من كل المعاصى صغيرها وكبيرها ، وحمل الناس على ترك الذنوب وله أربعة طرق وهم كالآتى :

أولا : ذكر آيات التحذير من المعاصى :

فيذكر ما فى القرآن الكريم من الآيات المخوفة للمذنبين ، وكذلك ما ورد من الأخبار والآثار ، والله تبارك وتعالى قدر حذر عباده من معصيته وأعلمهم قوة سطوته وجبروته ، وجعل النفوس العاصية الفاسدة ذات الأخلاق المذمومة محل سخطه وموضع انتقامه فى الدنيا والآخرة كما جعل الأجساد القذرة الظالم أصحابها لأنفسهم عرضة للأمراض القاتلة فى الدنيا والله ، حاكم عادل لا يظلم أحد فقال تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ ، أى أنه تعالى لو يؤاخذ الناس جميعا بما اقترفوا من السيئات والمعاصى كما فعل بالأمم السالفة ما ترك على ظهر الأرض أحد من بنى آدم .

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ

سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ . أى من يخالف الرسول فيما جاء به من الحق من بعد ما ظهر له المعجزات الدالة على صدق رسالته ، ويسلك طريقا غير طريق المؤمنين وهو طريق الدين الحنيف نجعله واليا لما تولاه من الضلال ونخذله وندخله جهنم يوم القيامة .

وقوله تعالى : **﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾** . أى أنهم لما تكبروا عن ترك ما نهوا عنه لعنهم وغضب عليهم وجعلهم قردة أزلاء مبعدين خاسئين . والخسوء هو الطرد صاغرين أى مستذلين كالقردة المستذلة المطرودة من حضرة الناس ، وروى ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد أنه قال : ما مسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار ومثل هذا قوله تعالى : **﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾** فالمسخ معنوى لا صورى على الصحيح ، وليس فى تفسير الآية حديث مرفوع إلى النبى ﷺ نص فيه على كون ما ذكر مسخا لصورهم ، وأنهم قد تحولوا من أناس إلى قردة وخنازير .

وقوله تعالى : **﴿ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾** .

وقوله : **﴿ وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾** والآيات فى هذا الباب كثيرة .

وروى أحمد والترمذى والنسائى وغيرهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**إن المؤمن إذا أذنب ذنبا نكتت نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب واستغفر صقل قلبه ، وإن لم يتب زادت حتى تعلو قلبه**» ، فذلك الران الذى ذكره الله تعالى فى قوله : **﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾** ، أى كثرة أفعالهم التى تغضب الله من الخطايا والسيئات ، وقلوبهم بذلك أصبحت فى غلف من ظلمات المعاصى حتى لم يبقى منفذ للنور يدخل إليها منه .

وقال رسول الله ﷺ : «**إن الله يغار وإن المؤمن يغار وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم الله عليه**» ، (الصحيحين) . وقال عليه الصلاة والسلام : «**لا أحد أغير من الله فلذا حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل**» (الصحيحين) والغيرة الحمية والأنفة والمراد بها فى حقه تعالى لازمها وهو الانتقام .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون من المفلس ؟**» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال: «**إن المفلس من أمتى يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه فطرح فى النار**» (رواه مسلم) والحديث معناه واضح فى ترهيب الناس عن الأفعال والصفات المذكورة فى الحديث الشريف ، وعلى الواعظ تقريب معنى مقصوده إلى أذهان سامعيه حتى يتأكد من وصول ما يريد إلى قوى الفهم منه وإلى الضعيف .

وعن حذيفة رضى الله عنه أنه قيل له: هل تركت بنو إسرائيل دينهم أى حتى عذبوا بأنواع العذاب الأليم كمسخهم قردة وخنازير وأمرهم بقتل أنفسهم ؟ قال: لا ولكنهم كانوا إذا أمروا بشىء تركوه ، وإذا نهوا عن شىء ركبوه حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه ، وقال بلال بن سعد: لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت ، وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه: إذا عظمت الذنب فقد عظمت حق الله تعالى وإذا صغرته فقد صغرت حق الله ، وما من ذنب عظمته إلا صغر عند الله ، وما من ذنب صغرته إلا عظم عند الله ، وقال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ * إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾ .

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن وهب قال: إن الرب سبحانه وتعالى قال فى بعض ما يقول لبنى إسرائيل: «**إنى إذا أطاعنى العبد رضيت عنه ، وإذا رضيت عنه باركت فيه ، وفى آثاره وليس لبركتى نهاية ، وإذا عصانى العبد غضبت عليه ، وإذا غضبت عليه لعنته ولعنتى تبلغ السابع من ولده**» ، وهذا مدلوله أيضا قوله تعالى: ﴿ **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا** ﴾ فإن كان لك خوف على صغارك وأولادك الضعفاء فاتق الله فى أعمالك لاسيما فى أولاد غيرك ، فإن الله تعالى يحفظك فى ذريتك ، وييسر لهم من الحفظ والخير والتوفيق ببركة تقواك ، وأما إذا لم تتق الله فى أولاد الناس ولا فى

حرمهم فاعلم أنك مؤاخذ بذلك فى نفسك وذريتك وأن ما فعلته كله يفعل بهم .

وروى الطبرانى فى الأوسط من حديث عائشة مرفوعا : «**عفوا تعف نساؤكم ، ويروا آباؤكم تبركم أبناؤكم**» وقال بعض الأدباء :

إذا طاب أصل المرء طابت فروعه ::: ومن عجب جادت يد الشوك بالورد
وقد يخبث الفرع الذى طاب أصله ::: ليظهر فعل الله فى العكس والطرد

وهذا ما فسره القائل : قد نجد فى فرع العصاة صالحا كابن أبى طالب وبالعكس كابن نوح وابن آدم القاتل .

ثانيا : حكايات الأنبياء والصالحين :

وهذا بقص ما جرى لهم وعليهم من المصائب والبلايا بسبب هفواتهم إن وجدت ، فذلك شديد التأثير ظاهر النفع فى قلوب الناس السامعين للعظة فعن أبى بن كعب رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «**قام موسى النبى خطيبا فى بنى إسرائيل يذكرهم أيام الله**» وأيامه هى نعماؤه وبلاؤه «**فسئل أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا أعلم من جميع الناس فى اعتقاده فلم يكن ذلك كذبا**» فعتب الله عليه تنبيها له وتعليما لمن بعده ولئلا يقتدى به غيره فى تزكية نفسه فيهلك ، والمراد بالعتب هو عدم الرضا بذلك ؛ ولذا أمره بالذهاب إلى الخضر للتأدب لا للتعليم ، إذ لم يرد العلم إليه تعالى كأن يقول : الله أعلم ، فأوحى الله إليه إن عبدا من عبادى بمجمع البحرين هو أعلم منك ، وهذا بشىء مخصوص وهو ما علمه من الغيوب وحوادث القدرة مما لا يعلم الأنبياء منه إلا بما أعلموا به كما قال سيد المرسلين سيدنا محمد ﷺ : «**إنى لا أعلم إلا ما علمنى ربى**» ، وإلا فلا ريب أن موسى عليه السلام أعلم من الخضر بوظائف النبوة وأمور الشريعة وسياسة الأمة ، ويدل هذا قول الخضر فى هذا الحديث : «**إنى على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت وأنت على علم علمكه لا أعلمه**» ، فانظر كيف عوتب موسى عليه السلام على حكم بناه على ظنه واعتقاده وامتحن من أجله بالذهاب إلى الخضر ، وموسى أفضل منه تأديبا له واعتبارا لغيره وهذا يحدث لنبى فما بال المذنبون المقصرون ماذا يفعل الله بهم (والحديث من صحيح البخارى) .

وروى البيهقى فى الشعب من حديث أنس رضى الله عنه : «**أتى جبريل يعقوب**

عليه السلام وقال: إن الله يقرئك السلام ويقول لك: أتدرى لم أذهبت بصرك وقوست ظهرك وصنع إخوة يوسف به ما صنعوا ؟ إنكم ذبحتم شاة فأتاكم مسكين وهو صائم فلم تطعموه منها شيئا ، فكان يعقوب إذا أراد الغذاء أمر مناديا ينادى: ألا من أراد الغذاء من المساكين فليتغذ مع يعقوب ، وإن كان صائما أمر مناديا فنادى ألا من كان صائما من المساكين فليفطر مع يعقوب» (وأخرجه الحافظ المنذرى فى كتاب الترغيب والترهيب من رواية الأصبهانى فى باب كفالة اليتيم) .

وكذلك لما قال يوسف عليه السلام لصاحب الملك: اذكرنى عند ربك قال تعالى: ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ فعوقب بطول السجن برجوعه إلى غير الله تعالى مع أن الاستغاثة بالخلق فى دفع الظلم جائزة فى الشريعة ، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فهذا وإن كان جائزا لعامة الناس إلا أن الأولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الالتفات إلى غير الله تعالى وأن لا يشتغلوا إلا بالالتجاء إليه فى السراء والضراء وعند الشدائد والبلايا .

وأيضا من ذلك ما جرى لسيدنا سليمان بن داود عليهما السلام قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ فإن أوضح ما قيل فى فتنته عليه السلام ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**قال سليمان بن داود عليهما السلام ، لأطوفن الليلة على مائة امرأة كلهن تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله فقال له صاحبه: قل إن شاء الله فلم يقل: إن شاء الله ، فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، والذى نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون**» (متفق عليه) .

ومعنى الحديث: لأطوفن أى لأجامعن ، وصاحبه: أى قرينه من الملائكة ، أو وزيره من الإنس ، ولم يقل إن شاء الله: أى بلسانه لا إباء عن التفويض إلى الله تعالى ، بل لشغل أو نسيان عراه فصرفه عن الاستثناء القدر السابق أن لا يكون ما تمنى كما هو لائق بمنصب النبوة وشق الرجل هو الجسد الذى ألقى على كرسيه (والحديث فى الصحيحين) .

ومثل هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن الحكيم ورود الأسمار ، بل

الغرض منها العظة والاعتبار ليعلم المرء أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع عظمة مكانتهم وجلالة قدرهم عند الله تعالى لم يتجاوز الله عنهم فى هفواتهم الصغيرة ، فكيف يتجاوز عن غيرهم فى كبائر الذنوب فليعتبر بذلك العبد ، ويكون على غاية الحذر من الوقوع فى معصية الله ، وأن يحرص على طاعة ما أمره الله به والابتعاد عن ما نهى الله عنه حتى يفوز بسعادة الدارين ويأمن غضب الله فى الدنيا والآخرة ويكون من الفائزين برضا الله ورحمته يوم القيامة .

ثالثا : معرفتهم بعقوبة الذنوب فى الدنيا :

وذلك بأن يبث فى أذهان سامعيه أن عقوبة الذنوب متوقعة أن تتم للعاصين فى الدنيا وأن يقرر فى أذهانهم أن كل ما يصيب العبد من المصائب والبلايا ، فهو بسبب جناياته التى صدرت منه - فإن الذنوب كلها يعجل شؤمها فى الدنيا غالبا قال عز وجل **﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾** ، مثل الجدب وقلة الأمطار وخراب الزراعة والخسارة فى التجارة ونزول الأفات بالناس والدواب وكثرة الحرق والغرق ، ومحق البركة من كل شىء بشؤم معاصيهم ليذيقهم بعض جزاء تلك الجرائم وفى الآخرة باقى العقاب .

وقال تعالى: **﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾** ، أى لو أنهم صدقوا بما أوحى إلى الأنبياء ولم يصروا على ما فعلوا من الذنوب لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب ، ولكن لم تغنهم الآيات والنذر فعاقبناهم بما كانوا يفترون من الكفر وأنواع المعاصى .

وقال تعالى: **﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾** ، أى ما ينزل بكم من المكاره كالآلام والأسقام بالنفس والأهل والولد والعاهات بالمزروعات والمواشى فهو بسبب معاصيكم التى ارتكبتموها ، ويعفو عن ذلك من الذنوب فلا يعاقب عليها هذا بالنسبة للعاصين أما ما ينزل بالطائعين من المحن والبلايا فلأسباب أخرى ، منها تعريضهم لثواب الصبر عليها ورفع درجاتهم .

وعن أبى بكر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«كل الذنوب يؤخر الله**

منها ما شاء إلى يوم القيامة ، إلا عقوق الوالدين ، فإن الله يعجله لصاحبه فى الحياة قبل الممات» (رواه الحاكم) .

وقال تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ** ﴾ ، فهؤلاء غمرهم الله عز وجل بنعمه ومنحهم حياة طيبة ، فلما أعرضوا عن واجب الشكر سلبهم الله النعمة ، وأرسل عليهم سيلا جارفا أغرق أموالهم وخرب بلادهم .

وروى الحاكم بإسناد صحيح أن النبى ﷺ قال: «**إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**» ، والكلام هنا فى المسلم وليس غيره ؛ لأن يرى أن الكفرة والفسقة أكثر مالا وأحسن صحة عن المسلم المرحوم بسبب ذنب ارتكبه ، والله أخص المسلم بذلك العقاب فى الدنيا ليرفع درجته فى الآخرة وبه عرف أنه لا تنافى بينه وبين خبر: «**إن الرزق لا تنقصه المعصية**» ، ولذا وجه بعض الحكماء والعلماء الخبر بأن لله تعالى لطائف يحدثها للمؤمن ليصرف وجهه إليه عن اتباع شهوته ، فإذا اشتغل بذلك عن ربه حرم رزقه فيكون زجرا له عما أقبل عليه ، وتأديبا له حتى لا يعود لمثله .

فعادة الله فى خلقه أن العبد متى مال قلبه إلى شىء والتفت خاطره إلى شىء جعل ذلك الشىء منشأ للآفات ، فحينئذ ينصرف وجه القلب عن عالم الحدوث إلى عالم القدوس ، فإن آدم عليه السلام لما تعلق بالجنة جعلها محنة عليه حتى زالت الجنة ، فبقى آدم مع ذكر الله عز وجل ، وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ووهبه له تعلقت شعبة من قلبه بمحبته ، والله تعالى قد اتخذه خليلا ، والخلة مقام يقتضى إفراد المحبوب بالمحبة ، فلما أخذ الولد شعبة محبة من الوالد جاء اختبار الله له ليرى الإخلاص فى الخلة كما هو أم نقص عجبه الولد فأمره الله بذبح محبوبه (ولده) فلما أقدم على ذبحه وبهذا كانت محبة الله عنده أعظم من محبة الولد ، وظهر الإخلاص فى محبة الله وخلته ، فلم يبق فى ذبح الولد مصلحة فقد حصل المقصود فنسخ الأمر وفدى الذبيح وصدق الخليل الرؤيا وتم مراد الله تعالى .

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ إذن الخسارة فى الدنيا والآخرة للذين ينشغلون بالمال والبنون عن ذكر الله وطاعته وحسن عبادته ، والفائزون هم الذين يعملون لأخراهم من الأعمال الصالحة ويذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ولا يشغلهم شىء عن هذه الطاعة والذكر فأولئك حقاً هم الفائزون .

وحكى عن بعض العارفين أنه كان يمشى فى وسط الوحل جامعا ثيابه محترزا عن الوقوع ، حتى زلقت رجله وسقط فقام وهو يمشى ويبكى ويقول: هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع فى ذنب وذنبين فعندها يخوض فى الذنوب خوضا ، وهو إشارة إلى أن الذنب تعجل عقوبته بالإنجرار إلى ذنب آخر ؛ ولذا قال بعض الحكماء: إنى لأعرف عقوبة ذنبى حتى فى فأر بيتى ، وقال الفضيل رحمه الله: ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك أورثتك ذلك . وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله: لا يفوت أحد صلاة الجماعة إلا بذنب يذنبه فدقائق العقوبات على قدر جلائل الدرجات ، والمصائب والبلايا تكون على الغير صابرا ومحتسبا إلى الله تكون نقمة ، وعلى المسلم الصابر طهارة له ونعمة فقال البعض: كل بلية اقترنت بالصبر كانت نعمة .

رابعا : ذكر عقوبات كبائر الذنوب كالقتل والزنا وغيرها :

حيث لابد للواعظ أن يذكر ما ورد فى الكتاب والسنة من العقوبات على آحاد الذنوب كالقتل والزنا وأكل الربا وأكل مال اليتيم وشرب الخمر والميسر والسرقة والقذف والغيبة والنميمة ، كما يلزم تحذير الناس من أنواع الرذائل الخلقية والأخلاق المذمومة كالجبن والشر والكذب والخيانة والغدر والنفاق والرياء والكبر والبخل والشح والجزع عند البلايا ، والحقد والحسد ، والحث على الأمانة فى العمل وإتقانه ، والنهى عن كل ما يضر بالأمة فى دينها ودنياها فينبغى للواعظ الناصح أن يكون كالطبيب الحاذق يستدل أولاً بالنبض على العلل الباطنة ويشتغل بعلاجها والمرشد يستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات ويقتدى بما كان عليه ، إمام الدعاة المرشدين سيدنا محمد الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه والسلف الصالح والتابعين ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا قال للنبى ﷺ : أوصنى قال: **«لا تغضب» فردد مرارا قال: «لا**

تغضب» (رواه البخارى) ، وقال له آخر: أوصنى يا رسول الله فقال صلوات الله وسلامه عليه: **«عليك باليأس مما فى أيدى الناس فإن ذلك هو الغنى ، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر ، وصل صلاة مودع ، وإياك وما يعتذر منه»** ، (رواه العسكرى فى الأمثال ، والحاكم وغيرهما وصحح إسناده) ، فكأن النبى عليه الصلاة والسلام توسم فى السائل الأول مخايل الغضب فنهاه عنه ، وفى الثانى مخايل الطمع فى الناس وطول الأمل وعدم حضور القلب فى الصلاة ، وكثرة الاعتذار لإخوانه فنهاه عنها .

وكتب معاوية إلى عائشة رضى الله عنهما: أن اكتبى لى كتابا توصينى فيه ولا تكثرى (وذلك حين تولى الإمارة) فكتبت إليه: من عائشة إلى معاوية ، سلام عليك أما بعد فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس سخط الله برضا الناس وكله الله إلى الناس والسلام عليك»** (رواه الترمذى والحاكم) ، إنها رضى الله عنها تعرضت للآفة التى يكون عليها أو بصددها الولاة من مراعاة الناس وطلب مرضاتهم ، وهذا ما فطنته رضى الله عنها فى بداية إمارة معاوية .

فالمرشد الفطن الناصح هو الذى يصرف عنايته إلى تفرس الصفات الخفية من الأحوال التى يراها أمامه ومن الصفات التى يلمحها ، وظواهرها فيمن أمامه ، وذكر النصائح اللائقة بالمقام والأشخاص ليكون اشتغاله بالمهم ، فإن ذكر جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكن ، والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عنه إضاعة للوقت ، فإن كل المرشد يتكلم فى مجتمع لا يدرى عنه شىء وهو غريب عنه فعليه الوعظ فى الأمور الشرعية العامة التى يشترك فيها عموم الناس والمسلمين . فروى أن رجلا قال لأبى سعيد الخدرى رضى الله عنه: أوصنى ، قال: **«عليك بتقوى الله عز وجل فإنها رأس كل خير ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بالقرآن فإنه نور لك فى أهل الأرض ، وذكر لك فى أهل السماء ، وعليك بالصمت إلا من خير ، فإنك بذلك تغلب الشيطان»** .

وقال رجل للحسن البصرى: أوصنى قال: " أعز أمر الله يعزك الله " ، وقال ابن مسعود رضى الله عنه: مكارم الأخلاق من عمل أهل الجنة ، وصنائع المعروف تقى مصارع السوء وأهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة - أى يغفر لهم يوم

القيامة وتبقى حسناتهم جمة ، فيعطونها لمن زادت سيئاته على حسناته ، فيغفر له فيدخل الجنة ، فيجتمع لهم الإحسان إلى الناس ومعروفهم لهم فى الدنيا والآخرة ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : صاحب المعروف لا يقع وإن وقع وجد متكا - وقال لقمان لابنه : يا بنى لا تركن إلى الدنيا ولا تشغل قلبك بها ، فإنك لم تخلق لها وما خلق الله خلقا أهون عليه منها ، يا بنى لا تضحك من غير عجب ، ولا تمش فى غير أرب ، ولا تسأل عما لا يعنيك ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك ، فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت ، يا بنى ، من يرحم يُرحم ، ومن يصمت يسلم ، ومن يقل الخير ، يغنم ، ومن يقل الشر يأثم ، ومن لا يملك لسانه يندم . يا بنى ، زاحم العلماء بركبتيك ، وأنصت إليهم بأذنيك ، فإن القلب يحيا بنور الحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل السماء ، ولا تجادلهم فيمقتوك ، وخذ من الدنيا بلاغك ، وأنفق فضول كسبك لآخرتك ، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا ، وعلى أعناق الرجال كلا ، ولا تجالس السفيه ولا تخالط ذا الوجهين .

وروى البيهقى فى الشعب قال : اراد موسى أن يفارق الخضر فقال له موسى : أوصنى ، قال : كن نفاعا ولا تكن ضرارا ، وكن بشاشا ولا تكن غضابا ، وارجع عن اللجاجة ، ولا تمش فى غير حاجة ، ولا تعير امرأ بخطيئته ، وابكى على خطيئتك يا ابن عمران .

فهكذا ينبغى أن يكون وعظ الناس وإرشاد من لا يدرى خصوص حاله ، فهذه المواعظ مثل الطعام ، يشترك الكافة فى الانتفاع بها متى كانت المواعظ من مرشد من ناصح أمين حكيم ، فإذا خرجت الكلمة من القلب دخلت فى القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان .

****

بيان الخوف من الله وما ورد فى فضله

وعلى الواعظ الناصح أن يحذر الناس من المعاصى بالخوف من الله عز وجل فبين لهم الخوف وما ورد فى فضله ، ويذكر لهم ما يورث الخوف مع ذكر أحوال الأنبياء والملائكة والصحابة والسلف الصالح ، وكيف يخافون الله وما معنى الخوف من الله عندهم؟

معنى الخوف من الله :

الخوف من الله عز وجل تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته من العلم والقدرة والعزة والجلال ، وأنه لو أهلك العين لم يبال ولم يمنعه مانع ، فهو القادر على كل شىء ويفعل ما يشاء وقتما يشاء ومن هو كذلك فيجب الخوف منه ، وذلك كخوف الملائكة قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ، قال عنه العلماء: هو خوف الإجلال ، وتارة يكون بكثرة اقتراف العبد المعاصى ، وتارة يكون بهما جميعا ، وأخوف الناس من الله من عرف عيوبه وعرف حلال الله تعالى ، وعلم صفات الله وأنه جل شأنه غنى عن العالمين ، فعلى قدر علمه يكون خوفه من ربه قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾ وهم العارفون بأنفسهم وبربهم والخشية أشد الخوف فقالﷺ : «**والله لأنا أعلمهم بالله واشدهم له خشية**» ، وإذا امتلأ القلب بالخوف من الله تعالى ، فإن أثر ذلك يفيض من القلب على الجوارح يكفها عن المعاصى ويدفعها إلى الطاعات ولذا قيل: ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه ، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه ، وقال آخر: من خاف شيئا هرب منه ومن خاف الله هرب إليه .

فضل الخوف من الله :

وهو ما ورد فيه الكثير والكثير ، ودلالة على فضله أن الله تعالى جمع للخائفين بين الهدى والرحمة والعلم والرضوان ، وهى مقامات أهل الجنان فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ، وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾ وقال: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أمر الله بالخوف منه وجعل الإيمان منشأه وعلته ، وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى﴾ .

وروى ابن حبان فى صحيحه والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال فيما يرويه عن ربه: «**قال الله سبحانه وتعالى: وعزتى وجلالى لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين ، إن أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإن خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة**» ، وأخرج ابن أبى الدنيا أن النبى ﷺ قال: «**إذا اقشعر جسد العبد من مخافة الله عز وجل تحاتت عنه خطاياه كما يتحاتت عن الشجرة اليابسة ورقها**» .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه: «**رأس الحكمة مخافة الله**» ؛ لأنها تمنع النفس عن المعاصى ، والحكمة هنا نور يقذفه الله فى قلب المؤمن التقى يفرق به بين الحق والباطل والضار والنافع ، وقال الفضيل رحمه الله: من خاف دله الخوف على كل خير ، وقال يحى بن معاذ: «**مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقرُ دخل الجنة**» ، أى لو خاف النار كما يخاف الفقر لهرب من أسباب دخول النار إلى أسباب دخول الجنة . وقال أبو سليمان الدرانى: كل قلب ليس فيه خوف الله نهو خراب ، وقيل للحسن البصرى رحمه الله: يا أبا سعيد ، كيف نصنع ؟ نجالس أقواما يخوفونك حتى تكاد قلوبنا تطير فقال: والله إنك إن تخالط أقواما حتى يدركك أمن خير لك من أن تصحبَ أقواما يؤمنونك حتى يدركك الخوف .

وقال رسول الله ﷺ: «**لا يلج النار أحد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع ، ولا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى منخرى مسلم أبدا**» (رواه الترمذى وقال: حسن صحيح) .

ما يورث الخوف من الله :

الخوف من الله منه خوف العلماء وأرباب القلوب السليمة والبصائر النافذة العارفين من صفاته عز وجل ما يوجب الهيبة والحذر قال تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ ، وقال: ﴿ اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ ، ومنه خوف العامة من الناس وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار ، وأنهما دارى جزاء على الطاعة والمعصية ، ويضعف هذا الخوف بسبب الغفلة وضعف الإيمان ، وتلك الغفلة تزول بالوعظ وملازمة الفكر فى أهوال يوم القيامة وأصناف العذاب فى الآخرة ، مع مجالسة الخائفين

ومشاهدة أحوالهم ، فإن فاتت المشاهدة فالسماع لا يخلو عن تأثير ، ومن ثم غلب الخوف على الأنبياء والرسل والعلماء والأولياء وغلب آمن المكر على الظلمة الأطغياء ، حتى كأنهم حوسبوا وفرغ منهم فلم يخشوا سطوة العقاب ولا نار العذاب ، قال تعالى: ﴿ **نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ ، وانظر إلى رسول الله ﷺ مع كونه سيد المرسلين ، كان أشد الناس خوفا فقال عليه الصلاة والسلام: «**أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية**» ، وفى صحيح البخارى عن أم العلاء وهى امرأة من الأنصار: أنهم اقتسموا المهاجرين أول ما قدموا عليهم بالقرعة قالت: فطار لنا (أى وقع) فى سهمنا عثمان بن مظعون من أفضل المهاجرين وأكابرهم ومتعبديهم وممن شهد بدرا ، فاشتكى فمرضناه حتى إذا توفى وجعلناه فى ثيابه ، دخل علينا رسول الله ﷺ فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتى عليك لقد أكرمك الله تعالى: فقال لى رسول الله ﷺ: «**وما يدريك أن الله أكرمه ؟**» فقلت: لا أدرى بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ: «**أما عثمان فقد جاءه اليقين والله إنى لأرجو له الخير**» ، وقال عليه الصلاة والسلام بعد ذلك: «**ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل بى**» قالت: فوالله لا أزكى أحدا بعده ، وقالت: وأحزننى ذلك فنمت فرأيت لعثمان عينا تجرى فجئت رسول الله ﷺ فقال: «**ذاك عمله**» .

ولما توفى عثمان هذا قبَّل ﷺ خده وبكى حتى سالت دموعه الكريمة على خد عثمان وبكى القوم فقال النبى ﷺ: «**اذهب عنها (أى الدنيا) أبا السائب لقد خرجت عنها ولم تتلبس بشىء**» ، وسماه عليه الصلاة والسلام السلف الصالح ، وهو أول من قبر بالبقيع رضى الله عنه ، فتأمل زجره ﷺ عن الجزم بالشهادة على الله فى عثمان هذا مع كونه شهد بدرا وقوله: «**وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر وقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» .

وكان عثمان هذا له صفات حميدة وأعمال صالحة وطاعات ووصفه النبى ﷺ بالسلف الصالح ، ورغم ذلك زجر من أجزم بالشهادة على الله فى عثمان ، ونتعلم من هذا أنه ينبغى للعبد وإن عمل من الطاعات ما عمل أن يكون على حيز الخوف والخشية من الله تعالى وعذابه وأليم عقابه ، فإنه لا يجب عليه لأحد من خلقه شىء فقال تعالى: ﴿ **قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي**

الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ .

وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه يقول: «**شيبتنى هود وأخواتها الحاقة والواقعة وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت ، والغاشية**» (روى من عدة طرق) ، وقال العلماء: لعل ذلك لما فيهن من التخويف العظيم والوعيد الشديد وما فيهن من ذكر أحوال الآخرة ، وعجائبها وأهوالها وأحوال الهالكين والمعذبين ، مع ما اشتملت عليه هود من الأمر بالاستقامة كما أمر وهو من أصعب المقامات الذى لا يتأهل إلا هو عليه الصلاة والسلام وهو كمقام الشكر ولذا لما قيل له ﷺ عن مجاهدته لنفسه وكثرة بكائه وخوفه وتضرعه: أتفعل هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال: «**أفلا أكون عبدا شكورا**» .

والقرآن الكريم مليء بالمخاوف لمن يتدبر ويعقل ما فيه ، ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ لكان كافيا ، إذ شرط للمبالغة فى مغفرته أمورا أربعة يعجز العبد عن آحادها ، التوبة والإيمان الكامل والعمل الصالح ثم سلوك سبيل المهتدين من مراقبة الله وشهوده وإدامة الذكر والفكر والإقبال على الله تعالى ، وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ ، فقد نبه الله تعالى العبد إلى أن إذا تاب توبة نصوحا وآمن إيمانا كاملا وعمل صالحا كان على رجاء أن يعد من زمرة الفائزين ، ولا يغتر العبد بما قيل إن عسى من الله واجبة الوقوع فإنه أكثرى لا كلى .

وقوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ ، أى نجمعهم إلى ربهم الذى يغمرهم برحمته الواسعة وافدين عليه كما يفد الوفود على الملوك منتظرين لإكرامهم وإنعامهم ، ونسوق المجرمين كما تساق البهائم إلى جهنم عطاشا فإن من يرد الماء لا يرده إلا لعطش .

وقوله تعالى: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلاَنِ﴾ فإنه غاية فى الوعيد مستعار لقول الرجل لمن يتهدده سأفرغ لك أى سأتجرد لإيقاع بك من كل ما يشغلنى عنه والمراد التوفر

على النكاية فيه والانتقام منه ، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ ، فخوف عذاب الله هو الذى أذهب عقولهم فى نحو حال من يذهب السكر بعقله ، ولا نجاة من تلك الأفزاع والأهوال إلا بالتقوى كما أمر الله عز وجل .

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ ، فأخبر الله تعالى أنه يسأل بعضهم عن أحواله وأعماله ، وما استحق به نيل ما عند الله تعالى: فيقول الموفقون: إنا كنا فى الدنيا فى أهلنا أرقاء القلوب من خشية الله فمن الله علينا بالمغفرة والرحمة ووقانا نار جهنم .

وقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ ، والقرآن به آيات كثيرة تورث الخوف من الله تعالى .

وفى الصحيحين قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ فقال: «**يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا عباس (عم رسول الله) لا أغنى عنك من الله شيئا ، يا صفية (عمة رسول الله) لا أغنى عنك من الله شيئا ، يا فاطمة بنت محمد سلينى من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا**» .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: «**يا رسول الله والذين يأتون**» هكذا قراءة عائشة رضى الله عنها ﴿مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ ، يا رسول الله ، هو الذى يزنى ، ويسرق ويشرب الخمر وهو يخاف الله ؟ قال: «**لا يا بنت أبى بكر - أو يا بنت الصديق - ولكنه الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه**» (رواه أحمد والترمذى والبيهقى وغيرهم) .

وفيه دليل على أن الخوف يكون مع كمال طاعة العبد لكونه لا يعلم قبول عمله

لخفاء ما يطرأ على الأعمال من الآفات .

وعن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة**» (متفق عليه) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن عمله فيما فعل ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه**» (رواه الترمذى) .

وعنه أيضا رضى الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ: «**يومئذ تحدث أخبارها**» ثم قال: «**أتدرون ما أخبارها ؟**» قالوا: «**يومئذ تحدث أخبارها**» ثم قال: «**أتدرون ما أخبارها ؟**» قال الله ورسوله أعلم ، قال: «**فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول عملت كذاو وكذا فى يوم كذا وكذا ، فهذه أخبارها**» (رواه الترمذى) .

وكان ابن السماك يعاتب نفسه ويقول لها: تقولين قول الزاهدين وتعملين عمل المنافقين ، ومع ذلك الجنة تطلبين هيهات هيهات للجنة قوم آخرون ولهم أعمال غير ما نحن عاملون .

وقال بعض السلف: لو نودى ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا لخشيت أن أكون ذلك الرجل ، وكان سهل التسترى رحمه الله يقول: خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطوة وحركة وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال: ﴿ **وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ** ﴾ . ولما احتضر سفيان الثورى رحمه الله جعل يبكى ويجزع ، فقيل له: يا أبا عبد الله ، عليك بالرجاء فإن عفو الله أعظم من ذنوبك ، فقال: أو على ذنوبى أبكى ؟ لو علمت أنى أموت على التوحيد لم أبالى بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطأيا ، أى يقصد أن المآل الجنة إذا تحقق موته على التوحيد .

الخوف من سوء الخاتمة :

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدمها مثل: الابتداع فى الدين واقتراف الذنوب والكبائر

كالزنا والربا وأكل مال اليتيم والنفاق والكبر والحقد والحسد وكل ما يغضب الله من معاصى ومن الصفات المذمومة وسوء الخاتمة نوعان الأول: أن يغلب الجحود على القلب عند سكرات الموت فتفيض الروح فىحال غلبة الجحود فيكون ذلك حجابا بين العبد وبين الله تعالى أبدا ، وذلك يوجب البعد الدائم والعذاب المخلد ، وسبب الجحود ضعف الإيمان فى الأصل ، وحب الدنيا ومتى ضعف الإيمان وزاد حب الدنيا فى القلب ضعف حب الله عز وجل ، ولا يوضع فى القلب ذرة منه من كثرة حب الدنيا فى القلب ، وذلك يورث الانهماك فى اتباع الشهوات حتى يظلم القلب وتتراكم عليه ظلمات الذنوب ، فلا تزال تطفئ ما فيه من نور الإيمان على ضعفه حتى تصير طبعا ورينا ، فإذا جاءت سكرات الموت ازداد حبه لله ضعفا لشعوره بفراق الدنيا وهى المحبوب الغالب على القلب ، فيتألم القلب بفراق الدنيا وشعوره بذلك ، ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بإنكار ما قدر عليه الموت ، وكراهته من حيث إنه من الله تعالى فيخشى أن يثور فى باطنه بغض الله تعالى بدل الحب فإن اتفق زهوق روحه فى تلك اللحظة التى خطرت فيها هذا الخطرة ، فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكا مؤبدا ، فحب الدنيا رأس كل خطيئة وهو الداء العضال ، وقد عم أصناف الخلق لقلة المعرفة بالله تعالى إذ لا يحب الله إلا من عرفه ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أى إن كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عندكم أولى من طاعة الله ورسوله ومن المجاهدة لإعلاء كلمة الله فانتظروا بما تحبون حتى يأتى الله بعقوبة عاجلة أو آجلة ، وهذا وعيد شديد وتهديد شنيع للمنهمكين فى طلب الدنيا والنوع هذا أخطر النوعين لسوء الخاتمة وأسوأهما عاقبة .

أما النوع الثانى لها: وهو ما دون الأول: أن يغلب على القلب عند الموت حب شهوة من شهوات الدنيا فيتمثل ذلك فى القلب ويملئه حتى لا يبقى فيه متسع لغيره ، ومتى انصرف الوجه عن الله حصل الحجاب ، ومتى حصل الحجاب نزل العذاب ، فإن اتفق قبض الروح فى حالة غلبة حب الدنيا فالأمر خطير ؛ لأن المرء يموت على ما عاش عليه كما أنه يبعث على ما مات عليه ؛ ولهذا النوع سببان أحدهما كثرة المعاصى

والآخر ضعف الإيمان ، وذلك أن مفارقة المعاصى من غلبة الشهوات ، ورسوخها فى القلب بكثرة الألف والعادة ، وكل ما ألفه الإنسان فى عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته ، فإن كل ميله إلى الطاعات وأعمال الخير أكثر ، كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله تعالى ، وإن كان ميله إلى المعاصى واقتراف الذنوب أكثر غلب ذكرها فى قلبه عند الموت فالذى غلبت طاعاته على معاصيه بعيد عن الخطر وهو أن يكون محجوباً عن الله تعالى ، والذى غلبت عليه المعاصى خطره عظيم جدا ، ومن أراد السلامة عن ذلك فلا سبيل له إلا المجاهدة طول العمر ، فى منع نفسه عن الشهوات محافظة على القلب منها مع المواظبة على فعل الخيرات والأعمال الصالحة والبعد كل البعد عن الشر وأفعال الشر ، ويعلم المرء أنه يموت على ما عاش عليه ، ويحشر على ما مات عليه .

خوف الأنبياء والملائكة والصالحين من الله :

للأنبياء مكانة رفيعة لعلمهم بالله تعالى وقربهم منه وكذا الملائكة ؛ ولذلك اشتد بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء فجاء فى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال لى النبى ﷺ «**اقرأ علىّ القرآن**» قلت : يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال : «**إنى أحب أن أسمعه من غيرى**» ، فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت هذه الآية : ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا** ﴾ ، قال : «**حسبك الآن**» فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان ، وبكاؤه ﷺ لما تضمنته الآية من هول المطلع وشدة الأمر ، وعن عائشة رضى الله عنها : «**أن رسول الله ﷺ كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه ، فيقوم ويتردد فى الحجرة ، ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من عذاب الله**» (متفق عليه) انظر هذا هو رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو سيد الأولين والآخرين يخاف من عذاب الله فما بالنا نحن .

وروى عن أبى داود والترمذى بإسناد صحيح عن عبد الله بن الشخير رضى الله عنه قال : «**أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلى ولجوفه أزير كأزير المرجل من البكاء**» ، والأزير صوت غليان القدر وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : "كان يسمع أزير قلب إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام إذا قام إلى الصلاة من مسيرة ميل خوفاً من ربه" (رواه ابن أبى الدنيا) .

وروى الإمام أحمد: أن داود عليه السلام ما رفع رأسه إلى السماء بعد هفوته حياء من الله عز وجل ، وسببها أن الخصم لما تسوروا المحراب ودخلوا عليه من طريق غير مألوف غلب على ظنه عليه السلام أنهم يريدون قتله فهم بالانتقام لنفسه منهم ثم تبين له عذرهم فهدأ روعه وسكن غضبه ، ومال إلى الصفح والتجاوز عنهم طلبا لمرضاة الله تعالى .

وقال المسيح عليه السلام: "معاشر الحواريين خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويباعدان عن الدنيا بحق أقول لكم إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلام فى طلب الفردوس قليل" (رواه أبو نعيم) ، وعن أنس رضى الله عنه أنه ﷺ سأل جبريل عليه السلام: «**ما لى لا أرى ميكائيل يضحك ؟ فقال جبريل: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار**» (رواه أحمد بإسناد جيد) . وروى ابن أبى الدنيا: «**أن لله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار مخافة أن يغضب عليهم فيعذبهم بها**» ، فلابد لنا أن نقارن أنفسنا وحال خوف هؤلاء الأنبياء والملائكة ونحاول أن نصل إلى ما كانوا عليه من علم وخوف من الله تبارك وتعالى .

أما عن أحوال الصحابة والتابعين والسلف الصالح فى الخوف من الله عز وجل فنتأمل أحوالهم ومواقفهم من شدة خوفهم فمن شدة الخوف قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: ليتنى كنت شعره فى صدر مؤمن ، وقال يوما لطائر: ليتنى مثلك يا طائر ، ولم أخلق بشرا ، وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: لما اشتد برسول الله ﷺوجعه قيل له فى الصلاة: قال: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**» ، فقالت عائشة رضى الله عنها: إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن غلبه البكاء فقال: «**مروه فليصلى**» وفى رواية أخرى: قالت: "إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء" (متفق عليه) .

وقال عمر رضى الله عنه: عند موته: الويل لعمر إن لم يغفر له ، وروى أنه رضى الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن فكان يعاد أياما - أى يزار - من أصحابه ، وأخذ يوما تبنة من الأرض فقال: يا ليتنى كنت هذه التبنة ، ليتنى لم أخلق ليتنى لم أك شيئا مذكورا ، ليتنى كنت نسيا منسيا ، ليت أمى لم تلدنى ، وقال له ابن عباس رضى الله عنهما ما هذا الخوف يا أمير المؤمنين وقد فتح الله بك الفتوح ومصر بك الأمصار وفعل بك وفعل ؟ قال: وددت أن أنجو لا على ولا لى ، وفى رواية: لا

أجر ولا وزر ، وكان فى وجهه رضى الله عنه خطان أسودان من الدموع ، وقال رضى الله عنه: من خاف لم يشف غيظه ، ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ، ولولا القيامة لكان غير ما ترون ، ولما قرأ رضى الله عنه سورة التكوير وانتهى إلى قوله تعالى: ﴿ صُحُفُ نُشِرَتْ ﴾ ، خر مغشيا عليه ، ومر يوما بدار إنسان وهو يصلى ويقرأ سورة والطور فوقف يستمع فلما بلغ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ ، نزل عن حماره واستند إلى حائط ومكث زمانا ورجع إلى منزلة فمرض شهرا يعوده الناس ، ولا يدرون ما مرضه ولا يستبعد أن يتفق الغشى والإغماء بل الموت لمن سمع الموعظة بحق فضعف من شدة التأثر بها .

فروى عن ابن أبى وائل قال: خرجنا مع عبد الله بن مسعود ومعنا الربيع بن خيثمة فمررنا على حداد ، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة فى النار فنظر الربيع إليها فتمايل ليسقط ، ثم إن عبد الله مضى كما هو حتى أتينا على شاطئ الفرات على أتون ، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب فى جوفه قرأ هذه الآية: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ ، فصعق الربيع وغشى عليه ، فاحتملناه فأتينا به أهله قال: ورابطه عبد الله إلى الظهر فلم يفق فرابطه إلى المغرب فأفاق ورجع عبد الله إلى أهله .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه: ليتنى إذا مت لم أبعث (ولم يرد به حقيقة التمنى ، بل أظهر أن له قبائح يخاف من المؤاخذة بها بعد البعث . وفى الصحيحين من حديث أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة فصبحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله فكف عنه الأنصارى فطعنته برمحى حتى قتلته قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبى ﷺ فقال لى: «**يا أسامة أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟**» قال: قلت: يا رسول الله ، إنما كان متعوذا قال: «**اقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟**» فما زال يكررها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم ، وفى رواية فقال رسول الله ﷺ: «**أقال لا إله إلا الله وقتلته ؟**» قلت: يا رسول الله ، إنما قالها خوفا من السلاح قال: «**أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟**» فما زال يكررها حتى تمنيت أنى أسلمت يومئذ . هذا أن أسامة اجتهد فظن أن الرجل إنما اعتصم بكلمة التوحيد خوفا من السيف فلما عتب ﷺ النبى

قال له: يا رسول الله ، أعطى الله عهدا ألا أقتل رجلا يقول لا إله إلا الله .

وقال على رضى الله عنه وكرم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علته كآبة وهو يقلب يده: لقد رأيت أصحاب رسول الله ﷺ فلم أرى اليوم شيئا يشبههم لقد كانوا يصبحون شعثا صفرا غبرا بين أعينهم أمثال ركب المعزى ، قد باتوا لله سجدوا وقياما يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا ذكروا الله فمادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم ، والله كأنى بالقوم باتوا غافلين .

وقال أبو ذر رضى الله عنه: وددت لو أنى شجرة تعضد ، وقال طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه كذلك ، وقال عمران بن حصين رضى الله عنه: وددت أن أكون رمادا تنسفنى الرياح فى يوم عاصف ، وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن الخائفين فقال: قلوبهم بالخوف قرحة وأعينهم باكية يقولون كيف نفرح والموت من ورائنا ، والقبر أمامنا ، والقيامة موعدنا ، وعلى جهنم طريقنا ، وبين يدى الله موقفنا ، وكان هذا القول على حسب حاله رضى الله عنه .

ومر الحسن البصرى رحمه الله بشاب وهو مستغرق فى ضحكه جالس مع قوم فقال له الحسن: يا فتى هل مررت بالصراط ؟ قال: لا ، قال: فهل تدرى إلى الجنة تصير أم إلى النار ؟ قال: لا ، قال فما هذا الضحك ؟ قال: فما رؤى ذلك الفتى بعدها ضاحكا .

فهذا بعض من كثير من مواقف وأحوال مخاوف الخلفاء والأولياء والعلماء والصالحين رضى الله عنهم أجمعين ، ونحن اليوم الخوف لنا أوجب وأجدر منهم أين نحن من هؤلاء ؟ ورغم مكانتهم وأعمالهم الصالحة وتقواهم العالية إلا أنهم كانوا يخافون من الله ومن لقاء الله فما بالنا نحن الآن علينا الرجوع إلى الله بالطاعة الخالصة لله تبارك وتعالى ، علينا بالمعاملة الحسنة للناس الخالية من الحقد والطمع وحب النفس والمال ، علينا بحب الناس لله وفى الله ، علينا بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، علينا بكثرة الذكر ليلا ونهارا ، وفى كل وقت حتى نأمن سوء الخاتمة ، وعلينا تخيل عذاب الله لنا وقدرته علينا حتى نخاف من هذا اليوم الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

الأعمال الصالحة نجاة يوم القيامة :

فالأعمال الصالحة هى التى تأمن سوء الخاتمة فطالما المرء مشغولا دائما بالعمل الصالح والطاعة والذكر يكون دائما خائفا من الله ويعمل ليوم القيامة ، حتى يكون من الفائزين برحمة الله تعالى ، فيجب على كل مسلم المبادرة والمسارعة بالعمل الصالح صافيا لله تعالى ابتغاء وجهه الكريم ، وليس رئاء الناس أو ليقول عنه فلان فعل كذا وكذا ، فقال الله تعالى: ﴿ **وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ ، أى بادروا إلى ما يؤدى إليهما من أداء الواجبات وترك المنهيات وقال تعالى: ﴿ **فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ** ﴾ بمعنى المبادرة والمسارعة على فعل الخير وأعمال الطاعة التى تقرب إلى الله ورضا الله عز وجل ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**بادروا بالأعمال سبعا هل تنتظرون إلا فقرا منسيا** (أى شاغلا عن أمور الأخرة) **أو غنى مطغيا أو مرضا مفسدا أو هرما مفندا أو موتا مجهزا أو الدجال فالدجال شر غائب ينتظر ، والساعة فالساعة أدهى وأمر**» (رواه الترمذى) .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما قال النبى ﷺ لرجل وهو يعظه: «**اغتنم خمسا قبل خمس: حياتك قبل موتك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك**» (رواه البيهقى) . وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**» أى من الشواغل الدنيوية المانعة عن أمور الآخرة والأعمال الصالحة من الطاعة وترك المنهيات التى إذا فعلها تجلب عليه غضب الله فى الدنيا والآخرة ، فعلى الإنسان أن يستغل صحته ووقته فى طاعة الله وذكره والقيام بالأعمال الصالحة التى تنفعه فى الدنيا والآخرة ، والحديث تشبيه المسلم المكلف بالتاجر والصحة والفراغ برأس المال بأن كلا من أسباب الربح ، فمن عامل الله بامتثال أوامره ربح ، ومن عامل الشيطان باتباعه ضيع رأس ماله وخسر ، والحديث رواه البخارى والترمذى .

قال ابن عمر رضى الله عنه: خرج رسول الله ﷺ والشمس على أطراف السعف فقال: «**ما بقى من الدنيا إلا كما بقى من يومنا هذا فيما مضى منه**» (رواه ابن أبى الدنيا والترمذى والسعف هو غصون النخل) .

وقال جابر بن سمرة رضى الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول: «**صبحكم ومساكم بعثت أنا والساعة كهاتين وقرن بين إصبعيه**» (رواه سلم).

وخطب الإمام على رضى الله عنه على المنبر فقال: «**اتقوا الله عباد الله وبادروا آجالكم بأعمالكم**» أى استكملوا أعمالكم قبل حلول آجالكم «**وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم**» أى اشتروا ما يبقى من النعيم الأبدى بما يفنى من لذة الحياة الدنيا وشهواتها المنقضية «**وترحلوا فقد جدبكم**» ، أى إعداد الزاد وهو الأعمال الصالحة وتقوى الله قبل الرحيل والانتقال إلى الله ولقاءه يوم الحساب يوم الفزع الأكبر «**واستعدوا للموت فقد أظلكم**» ، أى قرب الموت منكم حتى كأن له ظلا قد ألقاه عليكم ولا عدة له إلا صالح العمل «**وكونوا قوما صيح بهم انتبهوا**» أى كونوا قوما حذرين وانتبهوا من نومكم وغفلتكم وهبوا لطلب النجاة «**واعلموا أن الدنيا ليست بدار**» أى ليست الدنيا دار بقاء «**فاستبدلوها بدار الآخرة فإن الله سبحانه لم يخلقكم عبثا ولم يترككم سدى**» ، وما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة ، وإن غائبا يحدوه الجديدان الليل والنهار لحرى بسرعة الأدبة" والمقصود بالغائب هو الموت يسوقه الليل والنهار بكرورهما عليك وما أسرع مرهما الانتهاء إلى الغاية "وإن قادما يقدم بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة " والقادم أيضا هو الموت إما بفوز وإما بشقوة وعدته الأعمال الصالحة ، فتزودوا فى الدنيا من الدنيا ما تحرزون به أنفسكم غدا فاتقى عبد ربه نصح نفسه قدم توبته وغلب شهوته فإن أجله مستور عنه وأمله خادع له والشيطان موكل به يزين له المعصية ليركبها ويمنيه التوبة ليسوفها حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها فيا لها حسرة على ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجة وأن تؤديه أيامه إلى شقوة . نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمه ، ولا تقصر به عن طاعة ربه غاية ولا تحل به بعد الموت ندامة ولا كآبة .

* * * * * * * * *

القرآن الكريم والدعوة إلى الله

القرآن الكريم فيه مواضع كثيرة تعلمنا وترشدنا إلى الطريق المستقيم ، وإلى الهداية إلى الله سبحانه وتعالى ، وهى سنة الله فى الهداية لمن أرادها له أن يأخذ بهذه الأسباب والأصول فمن الأصل الأول قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يفيد أن المرء إذا آمن بهذا الكتاب الكريم واهتدى به وامتثل أوامره واجتنب نواهيه سلك طريق الهداية وترقى فيه وذلك أن الإنسان إذا آمن بالله فقد أشرق روحه بنور المعرفة مما فى القرآن الكريم من نور وهداية ، ثم إذا واظب على صالح الأعمال حصلت له ملكة راسخة فى الإقبال على الآخرة ، وفى الإعراض عن الدنيا وزينتها ، وكلما كانت هذه الأحوال أكثر كان استعداد النفس لتحصيل سائر المعارف أشد فكانت بذلك معارج المعارف أكثر وإشراقها أقوى ، ولما كانت لا نهاية لمراتب المعارف ، والأنوار العقلية لا جرم لا نهاية لمراتب هذه الهداية المشار إليها قوله تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى ومرتبة أعلى فكلما اتقى زاد هداه ، وكلما اهتدى زادت تقواه قال سبحانه وتعالى: ﴿ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ بمعنى أن الله تعالى يهدى بالقرآن الكريم من طلب رضاه بالإيمان به إلى طرق السلامة من العذاب والعقاب والنجاة من الضلال ، وينقذهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان والهداية بتيسيره وتوفيقه تعالى ، فالنور والكتاب المبين هو القرآن لما فيه من كشف ظلمات الكفر والضلال والزيغ وتوضيح ما خفى على الناس من الحق ، والصراط المستقيم هو أقرب طريق إلى الله عز وجل .

وقال الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاء رِزْقًا ﴾ تبارك وتعالى البديع أبدع الآيات الكونية الدالة على شئونه العظيمة الموجبة لتفرده بالألوهية وجعلها أمام أبصارنا وعقولنا ؛ لنستدل بها على كمال قدرته تعالى وبالغ حكمته فنوحده تعالى ونخصه بالعبادة والتعظيم اللائق بذاته جل شأنه كما ينزل الله تعالى لنا ما هو سبب أكيد فى رزقنا وحياتنا وهو المطر وأفرده بالذكر مع كونه من الآيات المذكورة ، لانفراده بعنوان كونه من آثار رحمته وجلائل نعمته الموجبة للشكر

وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى﴾ أمر الله عز وجل رسوله صلوات الله وسلامه عليه بتذكير عباده وتنبيههم من غفلاتهم وإرشادهم إلى طريق الخير وطريق الصواب ، والاستعداد لامتثال أوامر الله والعمل بها .

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يشرح القلب ويلطفه بالإيمان لازدياد الطاعة والخير ، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ الله أولا للإيمان بكل ما يجب الإيمان به فلما آمنوا هداهم بالإيمان هداية بعد هداية فإنه تعالى يوفقهم ويسددهم للاستقامة على سلوك السبيل المؤدى إلى حسن الثواب والفوز بالجنة ، كما يهديهم بإيمانهم إلى إدراك الحقائق البديعة بحسب القوة العملية كما فى حديثه صلوات الله وسلامه عليه: «**من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم**» ، فإن العمل بدين الله مع رعاية سنن الله فى خلقه يورث العلم والحكمة وينير البصيرة وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ أى يزيد المؤمنين المهتدين هدى وذلك أن بعض الاهتداء يجر إلى بعض كالإيمان يجر إلى الإخلاص فيه وآيات الهدى والاهتداء فى القرآن الكريم كثيرة ، ومن الأصل الثانى وهو اقتضاء الفجور والكبر والكذب للضلال كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ تخصيص الإضلال بهم مترتبا على صفة الفسق وما هم عليه من القبائح المذكورة بعده إيذان ذلك هو الذى أعدهم للإضلال وأدى بهم إلى الضلال والمراد من الفاسقين هنا العاتون الماردون فى الكفر الخارجون عن حدوده ممن حكى عنهم من إنكار كلام الله والاستهزاء به فمن يريد طاعة الله ومن أراد الله به خيرا يبعد عن هذا الصنف من الناس وعن صفتهم ويحذر كل الحذر أن يكون منهم ويتعلم من هذه الآيات الخوف من الله فيبدأ قلبه يرق إلى نور الإيمان وطريق الهدى ويبعد عن طريق الضلال .

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ولم يكفهم الضلال ونقض العهد مع الله بل أصروا على ذلك وعلى عدم النصح لهم وعدم دخول ثقب نور من نور الإيمان إلى قلوبهم ، وبهذا الإصرار لعنهم الله تعالى

وأبعدهم عن رحمته بأن خذلهم وخلاهم وشأنهم بسبب كفرهم العارض ، وإبطالهم لاستعدادهم بسوء اختيارهم بالمرة بعد أن خلقهم على الفطرة والتمكن من قبول الحق .

وقوله تعالى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ، فأخبر أنه تعالى عاقبهم على تخلفهم عن الإيمان لما جاءهم وعرفوه واعرضوا عنه ، بأن قلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلا يفقهونه ، وأبصارهم عن إجتلائه فلا يبصرونه ، وذلك بعد ما علم الله تعالى فساد استعدادهم ونفورهم عن الحق وعدم تأثير اللطف فيهم أصلا ، ويطبع على قلوبهم حسبما يقتضيه استعدادهم كما بينه الله عز وجل فى قوله : ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ، أي ندعهم في طغيانهم متحيرين لا نهديهم هداية المؤمنين ، كما قال سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ ، فأمرهم بالاستجابة له ولرسوله بحسن الطاعة حين يدعوهم إلى ما فيه حياتهم من العلوم الدينية والجهاد لإعلاء كلمة الله ، ثم حذرهم من التخلف والتأخر عن الاستجابة الذى يكون سببا للحيلولة بينهم وبين قلوبهم .

والخلاصة : فإن من تدبر آيات الهداية والإضلال يعلم أن الله تعالى إنما يهدى من هو مستعد للهداية بسبب إنابته إلى ربه وأخذه فى سبيل تعرف الحق واستعماله مواهبه فيما خلقت له ، وأن من تكبر عن معرفة الحق وأعرض عن كتاب الله وسنة رسوله واتبع هواه جدير بأن يطمس الله على قلبه ويصرفه عن آياته ، تلك هى سنة الله عز وجل فى خلقه التى أساسها الحكمة والعدل .

وبعد ما تقدم بقى عليك ايها الواعظ الناصح أن تعرف جملة من مواعظ الكتاب العزيز والسنة النبوية وحكمتها العالية ، وكيف تتصرف فيها على سبيل الحكمة بحسن التأدية عند القيام بواجب مهمتك فإن منهلك الصافى وبحرك الزاخر الذى لا ينضب معينه كما قال العلماء الأجلاء ، ونذكر لك أربعة دروس تضمنت أهم موضوعات الموعظة ، وأهم ما يتعرض له الإنسان ، وماذا جاء عنها من آيات الذكر الحكيم ، فاقرأ وتمعن حتى تصبح بعون الله تعالى صاحب لسان واعظ فصيح مؤثرا فى قلوب ونفوس سامعيك :

الدرس الأول : الإيمان والكمالات البشرية :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ .

لما أمر الله تبارك وتعالى رسولهﷺ بالتوجه إلى الكعبة بعد صلاته قبل بيت المقدس لمدة أكثر من عام ، كثر الخوض فى أمر القبلة وكان فى ذلك محنة للمسلمين والمشركين والمنافقين واليهود ، فأما المسلمين فقالوا : سمعنا وأطعنا وهم الذين هدى الله ولم يكن كبيرة عليهم ، وأما اليهود فقالوا : إنه خالف قبلة الأنبياء ولو كان نبيا لكان يصلى إلى قبلة الأنبياء ، وقال المشركون : كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا ، وما رجع إليها إلا أنه الحق ، وقال المنافقين : ما ندرى محمد أين يتوجه إن كانت الأولى حقا فقد تركها ، وإن كانت الثانية هى الحق فقد كان على باطل . وانتشرت أقاويل السفهاء من الناس ، وكانت محنة من الله تعالى امتحن بها عباده ليظهر من يتبع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ممن ينقلب على عقبيه فكان الذين آمنوا بالله وبرسوله وصدقوه وهداهم الله لذلك هم حقاً المؤمنين الذين اتبعوا الرسولﷺ وكان تغيير القبلة إلى الكعبة فيه سرورا لهم وراحة نفس ، رغم أن المقصود من تغيير القبلة هو توضيح معنى الإيمان بالله فأراد الله تعالى أن يبين للناس كافة أن مجرد تولية الوجه قبلة مخصوصة ليس هو البر المقصود من الدين ، ذلك أن استقبال الجهة المعينة إنما شرع لأجل تذكير المصلى بالإعراض عن كل ما سواه تعالى فى صلاته ، والإقبال على مناجاته فتولية الوجه وسيلة للتذكير بتولية القلب ، وليس ركنا من العبادة ، فليس لكم أن تذهلوا به عن سائر صنوف البر ، ولكن البر الذى يجب صرف الهمة إليه بر من آمن وقام بهذه الأعمال التى بينها الله عز وجل أى أن البر هو الإيمان وما يظهر من آثاره فى النفس والعمل .

وفى هذا الصدد يذكر الواعظ للناس حكمة تعيين الجهة فى الصلاة وحكمة

التوجه إلى بيت المقدس أولا ، ثم التحويل عن بيت المقدس إلى الكعبة ، وذلك إن كان عنده وقت أو يوجد سعة فى وقت الدرس والموعظة ، ونذكر له أقوال على سبيل المثال ويمكنه قولها وذلك مما قاله العلماء فى هذا الشأن :

١ - معلوم أن العبد الضعيف إذا وصل إلى مجلس الملك العظيم فإنه لابد أن يستقبله بوجهه ، وأن لا يكون معرضا عنه وأن يبالغ فى الثناء عليه بلسانه ، ويبالغ فى الخدمة والتضرع له ، فالقراءة والتسبيحات كالثناء ، والركوع ، والسجود ، كالخدمة ، واستقبال القبلة بمنزلة التوجه بالوجه نحو الملك لا معرضا عنه ، فمن شأن العابد أن يستقبل وجه المعبود ، ولما كان الله سبحانه منزها عن المادة والجهة واستقباله بهذا المعنى مستحيل شرع للناس مكانا مخصوصا يستقبلونه فى عبادتهم إياه وجعل استقبال ذلك المكان كاستقبال وجهه تعالى رحمة منه تعالى بعباده .

٢ - إن المقصود من الصلاة حضور القلب ، وحضور القلب لا يحصل إلا مع السكون وترك الالتفات والحركات ، وهذا لا يتأتى إلا إذا بقى فى جميع صلاته مستقبلا لجهة واحدة على التعيين ، وإذا اختص بعض الجهات بمزيد شرف فى الأوهام كان استقبال تلك الجهة أولى ؛ لأن شرفها محقق .

٣ - إن الله تعالى يحب الموافقة والألفة بين المؤمنين ، ولو توجه كل واحد فى صلاته إلى ناحية أخرى لكان ذلك يوهم اختلافا ظاهرا ، فتعيين جهة واحدة يتوجه إليها الجميع فى الصلاة يدفع ذلك الوهم ويحمل المؤمنين على الألفة والاتحاد والتعاون على أنواع البر وأعمال الخير .

٤ - تمييز المؤمنين الصادقين فى إيمانهم من غيرهم ليعلم المؤمنين من يوالون ومن يعادون قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾

٥ - أنه إذا رسخ فى أوهام الناس أو بعضهم أن هذه الجهة أشرف من غيرها بسبب أن الله تعالى خص الكعبة بإضافتها إليه بقوله "بيتى" وبناء الخليل وولده لها كان الإنسان عند استقبالها أشد تعظيما وخشوعا .

٦ - أنه لما كان بناء هذا البيت سببا لظهور دولة العرب وعزهم كانت رغبتهم فى

تعظيمه أشد .

٧ - الإسراع فى قبول ما جاء به النبى عليه الصلاة والسلام من الأوامر والنواهى ؛ لأنه لما كانت الكعبة منشأ رسول الله ﷺ كان تعظيمها تعظيما له ومن رسخ فى قلبه تعظيمه كان بقبول شريعته أجدر وإلى امتثال أوامره ونواهيه أسرع .

٨ - ومن الحكمة فى جعل القبلة لفى أول الأمر بيت المقدس أن الكعبة كانت فى أول الإسلام مشغولة بالأصنام والأوثان ، وكان سلطان أهل الشرك متمكنا فيها ، والأمل فى انكشافه عنها بعيدا ، فصرفه الله أولا عن استقبال بيت فى عبادة الشرك ، ولما قرب زمن تطهير البيت الحرام من الأصنام وعبادتها جعله الله قبلة للموحدين ليوجه النفوس إليه فيكون ذلك مقدمة لتطهيره ، وإتمام النعمة بالاستيلاء عليه ، والسير فيه على سنة الخليل إبراهيم من التوحيد والعبادة الصحيحة لله وحده .

وبعد ذلك يلفت أذهان سامعيه إلى أن الله عز وجل اشترط أموراً لا يتحقق البر بدونها .

الأمر الأول : الإيمان وهو بأمور خمسة :

الأول: الإيمان بالله: أى التصديق بأن للكون ربا قادرا عليما مدبرا حكيما ، متصفا بكل كمال منزها عن كل نقص ، ولا يكون هذا الإيمان أصلا للبر ، إلا إذا كان متمكنا من النفس بالبرهان مصحوبا بالخضوع والإذعان واستقامة العمل ، أما التصديق الذى لا يستتبع الآثار ولا يظهر فى تهذيب النفس واستقامة العمل فهو إيمان ناقص لا يوصف صاحبه بالصدق ولا بالتقوى . قال حجة الإسلام الإمام الغزالى: مثل المؤمن الذى لا يعمل والمؤمن الذى يعمل كمثل شجرة القرع إذ قالت لشجرة السرو: أنا شجرة وأنت شجرة فتقول شجرة السرو: مهلا حتى يأتى الخريف بعواصفه فتقلعك ، ويطير بك الهواء أما أنا فأبقى راسخة ، تزيل العواصف ما جف من أوراقى وتبقى الأوراق الناضرة هكذا حال المؤمن تصفيه النوائب فيخرج منها نقيا سليم العرض سليم العقيدة ، أما ضعيف الإيمان فإن النوائب تذهب بما عنده منه ويخرج منها مرذولا مثلوم العرض كسير النفس ذليلا عند الله وعند العباد ، وهنا يلفت الواعظ الناس إلى معرفة الله عز وجل بالنظر والتأمل فى الكون ومخلوقاته الدالة على أنه تعالى كامل الألوهية من

طريق القرآن الكريم ، ويذكر لهم آثار الإيمان الصادق وصفات المؤمنين ويذكر الآيات التي تدل عليهم وعلى أوصافهم كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ وقوله: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

الثانى: الإيمان باليوم الآخر: ومعناه الإيمان والتصديق به وبوجوده وما اشتمل عليه من بعث وجزاء وهو آخر أيام الدنيا ، أى متصل بآخر أيامها لأنه ليس منها حتى يكون آخرها فهو من تسمية الشيء باسم مجاوره ، وهنا يبين أن هذا الإيمان فرع ما قبله ؛ لأنه إذا آمن العبد بأنه تعالى قد أحاط بكل شيء علما ، وأنه تعالى تام القدرة على جميع المخلوقات أمن بصحة البعث والنشر والحشر ، ويملأ الواعظ قلوب السامعين رهبة من أهوال يوم القيامة بآيات وأحاديث الوعيد الشديد ، ليحملهم بذلك على التزود لسفر طويل ، والاستعداد لحساب عسير ، كما يبين لهم أن الإيمان باليوم الآخر يهون أمر الحياة الدنيا ويحقر شأنها ويجعلها عند المؤمن طريق الآخرة ووسيلة إليها لا يحب منها إلا ما كان مقربا إلى الله وسبيلا إلى سعادة الآخرة ، ولا يحرص عليها حرص من ليس له مطمع وراءه بل سيان عنده أن يبقى فيها عاملا للصالحات وأن يفارقها فرارا من شرها وتعجلا لنعيم مقيم عند الله تبارك وتعالى .

الثالث الإيمان بالملائكة: أي التصديق بوجودهم وبأنهم كما وصفهم الله تعالى: ﴿ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ والملائكة خلق روحانى عاقل عالم قائم بنفسه ، وهم من عالم الغيب فلا نبحث عن حقيقتهم ، سخرهم الله لما شاء من مصالح البشر فى الدنيا والآخرة ، وهنا يبين أن الإيمان بهم أصل للإيمان بالوحى ؛ لأن ملك الوحى روح عاقل عالم ، يفيض العلم بإذن الله على روح النبى بما

شرعه الله لعباده ؛ ولذا قدم ذكر الملائكة على ذكر الكتب والأنبياء فهم الذين ينزلون بالشرائع على المرسلين قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ وقال: ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ .

فمن أنكر وجود الملائكة أنكر وجود الوحى والنبوة ، وذلك أصل الشقاء فى الدنيا قبل الآخرة .

الرابع: الإيمان بالقرآن الكريم: أى التصديق بالكتب السماوية كلها وبالقرآن الكريم ، وبأنها كلام الله تعالى المنزل على بعض رسله وأن ما جاءت به حق لا ريب فيه ، سواء نزل مكتوبا كالتوراة أولا وكالقرآن الخاتم وهنا يبين أن الإيمان بالقرآن الكريم يستلزم العمل به والاهتداء بهديه ، فإن المؤمن الموقن بأن هذا الشىء ضار قبيح لا تتوجه إليه نفسه والمؤمن الموقن بأن هذا الشىء نافع حسن ، لابد أن تتوجه إليه إرادته فما بال مدعى الإيمان بالكتاب قد تهاونوا به وأعرضوا عن امتثال أوامره واجتناب نواهيه .

الخامس: الإيمان بالأنبياء والمرسلين: جميعا من غير تفرقة بين أحد منهم ، وهنا يبين ما يجب فى حقهم وما يستحيل وما يجوز مع ذكر حكمة إرسالهم والحاجة إلى الرسالة وشيئا من خصائصهم وأخلاقهم وسيرتهم ليتعلق الناس بهم ويهتدوا بهديهم ويتخلقوا بأخلاقهم ، وأن ما جاء فى القرآن الكريم من عصيان آدم عليه السلام ومن معاتبة جماعة منهم على أمور فعلوها ، فإنما هو من باب أن للسيد أن يخاطب عبده بما يشاء ، وأن يعاتبه على خلاف الأولى معاتبة غيره على المعصية أو يقول: إن عصيان آدم بالأكل من الشجرة مما خفى فيه سر النهى عن الأكل والمؤاخذة عليه ، وغاية ما علمناه من حكمته أنه كان سببا فى عمارة الأرض ببنى أدم ، ويبين أن الإيمان بهذه الأمور الخمسة قد جمع كل ما يلزم التصديق به ذلك أن للمكلف مبدأ ووسطا ونهاية ، ومعرفة المبدأ والنهاية هو المقصود بالذات وهو المراد بالإيمان بالله واليوم الآخر ، وأما معرفة المصالح التى فى الوسط فلا تتم إلا بالرسالة وهى لا تتم إلا بثلاثة الملائكة للوحى ونفس ذلك الوحى وهو الكتاب والنائب عن الله تعالى فى إبلاغه وهو الرسول .

الأمر الثانى : إعطاء المال لمستحقيه :

فمن الأمور المعتبرة فى تحقق مسمى البر إعطاء المال لمستحقيه فقال ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ ، أى مع حب المال ، والشح به يعطيه لمن يستحقه ويخرج زكاته ويخرج من الصدقة ، ويذكر هنا للسامعين أن الصدقة حالة الصحة أفضل منها عند القرب من الموت ، ففى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : رسول الله ، أى الصدقة أعظم أجرا ؟ قال : «**قل أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا**» ، كناية عن الموصى له والموصى به فيهما "وقد كان لفلان" أى وقد صار ما أوصى به للوارث فيبطله إن شاء إذا زاد على الثلث أو أوصى به لوارث آخر ، والمعنى هنا تصدق فى حال صحتك واختصاص المال بك وشح نفسك به بأن تقول لا تتلف مالك لئلا تصير فقيراً لا فى سياق موتك ؛ لأن المال حينئذ خرج منك وتعلق بغيرك .

وعن أبى الدرداء أنه ﷺ قال : «**مثل الذى تصدق عند الموت مثل الذى يهدى بعدما شبع**» ، فالإعطاء عند الصحة أدل على تيقنه بالوعد والوعيد من إعطائه حال المرض أو الموت ، وأن الهبة عند الموت تشبه الهبة عند الخوف من الفوت .

ثم يذكر لهم الواعظ أن ذلك حث على بذل المال فى نوافل الصدقات وأنواع البر إلى هذه المصارف الآتية :

ذوى القربى: وهم الذين يقربون منه بولادة الأبوين أو الجدين ، والقريب إذا كان أحوج فهو بذلك أولى ؛ لأنه صدقة وصلة فإنه الإنسان إذا احتاج وفى أقاربه غنى فإن نفسه تتوجه إليه بعاطفة الرحم ، والإنسان بفطرته يألم لفاقة قريبه أشد من ألمه لفاقة الأجنبى فإنه يقوى ويضعف بضعفه .

اليتامى: وهم الفقراء الذين فقدوا من يعولهم وانقطعت حيلهم وليس لهم بعد الله إلا عطف الأغنياء ، وهنا يحث الواعظ على العناية بشأن اليتامى لئلا تسوء حالهم وتفسد أخلاقهم فيكونون شرا على أنفسهم وعلى الأمة .

المساكين: من ذوى الحاجة مع العفة والكف عن المسألة ، فإنهم لما عجزوا

عن كسب ما يكفيهم وسكنت نفوسهم للرضى بالقليل عن السؤال ، طلبت مساعدتهم ومواساتهم من ذوى اليسار .

ابن السبيل: وهو المسافر فقد تشتد به الحاجة للوصول إلى أهله ، وفى الأمر بمواساته وإعانته فى سفره ، وذلك فيه ترغيب من الشارع الحكيم للحركة فى الأرض والسفر والبحث عن أسباب الرزق فى كل مكان .

السائلين: وهم صنف من المساكين ألجأتهم الحاجة إلى استنداء الأكف فكانوا لذلك موضع عطف ورحمة ، والسؤال محرم شرعا على القادر على الكسب إلا لضرورة شديدة يجب على السائل أن لا يتعداها ، ويجتهد الواعظ فيما سبق فى تحريك العواطف والقلوب نحو البر بما يحضره من وسائل الترغيب والترهيب السابق ذكرها فى هذا الكتاب .

الأمر الثالث : إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة :

وهذا لابد منه فى تحقق البر ويبين الواعظ هنا سر مشروعية الصلاة ، وأنها إذا أديت على الوجه المطلوب كان لها أحسن أثر فى جلاء القلوب وتطهير النفوس من أدران الرذائل ، ويبين أيضا حكمة الزكاة ، وأنها من أحكم الروابط بين الفقراء والأغنياء ، وما انقطعت الصلة وانعدمت الألفة بين المسلمين إلا من منعها .

الأمر الرابع : الوفاء بالعهد :

فمن الأمور التى تحقق البر الوفاء بالعهد والموفون بعهدهم الذين إذا وعدوا أنجزوا ، وإذا أنذروا أو حلفوا وفوا ، وإذا قالوا صدقوا ، وإذا ائتمنوا أدوا ويشرح هنا الواعظ لسامعيه أن الوفاء يتناول كل ما يلتزمه العبد اختيارا فيما بينه وبين مولاه من النذور والإيمان ، وما يأخذه على نفسه كذلك بينه وبين سائر العباد فى عقود المعاوضات من الشرائط ، وكذا ما ينبغى الوفاء به من الوعود العامة بين الناس وأنواع المحالفات ، ويمتدح الوفاء أهله ويحث على التخلق به ويذم الأخلاف ويحذر منه .

الأمر الخامس : الثبات عند الشدائد :

والصبر عند المكاره فإن الله سبحانه وتعالى مدح الصابرين فى البأساء والضراء ، ووقت مجاهدة العدو فى مواطن الحرب ، وهنا يذكر الواعظ فضيلة الصبر ومعناه ويسهل

على السامعين التخلق به فى جميع الأحوال بأن الله تعالى أضاف إليه جميع الخيرات وبلوغ أعلى الدرجات ، وأن الذين تحلوا بهذه الصفات الجميلة هم الذين صدقوا فى الدين واتباع الحق وتحرى وجوه البر لم تغيرهم الأحوال ولم تزلزلهم الأهوال ﴿ **وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ ، عن الكفر وسائر الرذائل .

ثم يختم الواعظ درسه ببيان الآية إجمالا ليكون ذلك أثرا باقيا فى نفوس السامعين كأن يقول : إن الله عز وجل بعث الناس على استيفاء أنواع الطاعات ووسائل السعادة ، ونبههم إلى أنه ليس البر أن تلهجوا بأمر وتتركوا ما عداه إن الخير كثير الوجوه فلا تقفوا موقف الذين قصرت أنظارهم ، فالبر كل البر أن تجمل النفس بالمعارف وأهمها الإيمان بالله وباليوم الآخر والملائكة والكتب السماوية والأنبياء ، وأن يسخر الجسم فى الأعمال الظاهرة كالصلاة والزكاة والصوم والحج وأن يكون المرء حسن العشرة فيبذل المال لذوى القربى واليتامى والمسكين وابن السبيل ، وأن يكون كريم الأخلاق فلا يخلف إذا وعد ولا يجزع عن الملمات كالفقر وشدته والمرض وحدته والقتال وصدمته ، وبذلك يتم الجمال والكمال ، ويلزم لاستيفاء ما أشرنا إليه استحضار معانى النظم الكريم ويرجع الواعظ إلى كتب الحديث الشريف وليكن كتاب رياض الصالحين والأحياء .

الدرس الثانى : حسن الخلق وصفات المؤمنين :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ (أول سورة المؤمنون) إذا أراد الله بعبد خيرا شرح صدره لما فيه فلاحه ونجاته ، واستعمل جوارحه فيما يرضيه ، والسعيد الموفق إذا جاءته الموعظة انفتح لها قلبه ونشطت للعمل عليها جوارحه ، أولئك هم أهل الهداية ، وأولئك لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . ثم يبين الواعظ للسامعين الصفات التى جاءت فى الآية الكريمة التى بينها الله سبحانه وتعالى وهى سبع صفات ويذكر كل

صفة بشرحها الوافى ليتأثر به السامعين ويحثهم بذلك على تلك الصفة :

الأولى: الإيمان بالنبى ﷺ وبما جاء به من الدين والتوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظائرها حيث قال تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ فهؤلاء الذين اختصوا من بين المؤمنين بأن جملوا بواطنهم بأنوار المعارف وكملوا ظواهرهم بالقيام بوظائف العبودية وتحلوا بمكارم الأخلاق ، قد فازوا بكل خير ونجوا من كل ضير حسبما كان متوقعا من حالهم ، فإن إيمانهم الصادق وما تفرع عليه من أعمالهم الصالحة من دواعى الفلاح بموجب هذا الوعد الكريم ، وفى هذا المقام يشبه الإيمان بشجرة طيبة ، ويذكر لهم أن المقصود هو الإيمان الصحيح الذى يظهر أثره فى تهذيب النفس واستقامة الأعمال ، وليس ينفع المرء أن يقول: أنا مؤمن وهو خبيث النفس سيئ القول . روى البخارى فى تاريخه أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، وإن قوما غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا: نحن نحسن الظن بالله تعالى وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل**» .

الثانية: الخشوع فى الصلاة بالخضوع والتذلل لله رب العالمين وعدم التفات القلب فيها إلى شىء سوى التعظيم لله تبارك وتعالى وبسكون الجوارح والإطراق بالنظر إلى موضع السجود وعدم الالتفات يمينا ويسارا وهذه الثلاثة من لوازم خشوع القلب فقد رأى بعض السلف رجلا يعبث بيده فى الصلاة فقال: لو خشع قلب ، هذا لخشعت جوارحه ، وقال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ** ﴾ .

فهؤلاء الخائفون من هيبة الله جل شأنه المتذللون له الخاضعون لجلاله قد ألزموا أبصارهم مساجدهم فكانوا هم الفائزين .

وفى هذا يبالغ الواعظ فى الحض على الخشوع فى الصلاة مبينا أن منزلته منها منزلة الروح من الجسد فكما لا عبرة لجسد بلا روح كذلك لا عبرة لصلاة بلا خشوع ، وذلك أن المصلى إنما يناجى ربه والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة ، وما الصلاة إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود أما الذكر فإنه مناجاة ولا تحقق لها إلا إذا كان اللسان معبرا عما فى القلب من التضرعات ، ولا ريب أن المقصود من الذكر والقراءة الثناء والدعاء والمخاطب هو الله تبارك وتعالى فإذا كان القلب غافلا عن جلاله وكبريائه ولسانه يتحرك بحكم العادة فما أبعده عن القبول وأما الركوع والسجود فالمقصود منها

التعظيم لله جل شأنه ومحال أن يكون مع الغفلة تعظيم .

فلم يبق إلا حركة الظهر والرأس وليس فى ذلك المعنى ما تصير الصلاة لأجله عماد الدين وفاصلا بين الكفر والإيمان ، كذلك يحذر الواعظ سامعيه من العبث والالتفات فى الصلاة بأن المصلى مشمول بإحسان الله ما لم يلتفت ، فإن التفت قطع الله عنه إحسانه فقال النبى صلوات الله وسلامه عليه : «**لا يزال الله مقبلا على العبد وهو فى صلاته ما لم يلتفت فإن التفت أعرض عنه**» (رواه أبو داود من حديث أبى ذر رضى الله عنهما) .

وعن عائشة رضى الله عنها سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات فى الصلاة فقال : «**هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد**» (رواه البخارى) .

الثالثة: ترك العبد مالا يعنيه من كل مالا يعود عليه منه فائدة فى الدين والدنيا قولا وعملا ، كالهزل واللعب وضياع الأوقات فيما لا ينفع بل ينبغى للمرء أن يشتغل فيما ينتفع به من عمل صالح لمعاده ، أو درهم حلال لمعاشه ، قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ** ﴾ . أى تاركون له فى عامة أوقاتهم وخاصة حالة اشتغالهم بالصلاة فهؤلاء قد مدحهم الله بالإعراض عما لا يفيد ، وفى هذا المقام يحذر الواعظ الناس من الكسل فى الأعمال الدينية ، وينفرهم من البطالة وأهلها بما يحضره من الشواهد الشرعية وآثار السلف الصالح فى ذلك .

الرابعة: أن يقوم أغنياء المسلمين بأداء الحق الواجب فى أموالهم إلى مستحقيه ؛ فبذلك تملك القلوب ويدوم الوئام والوفاق بين الناس ويكثر الخير وتعم البركة والرحمة قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ** ﴾ ، أى مؤدون وصفهم الله تعالى بذلك بعد أن وصفهم بالخشوع فى الصلاة دلالة على أنهم بلغوا الغاية من القيام بالطاعات البدنية على وجهها ، والمالية على أربابها ، والتجنب عن المحرمات فطوبى لهؤلاء صلحت قلوبهم فخشعوا ، وطابت نفوسهم فبذلوا وهنا يحث الواعظ الأغنياء على دفع الزكاة ويرغبهم فى ذلك ، ويرهبهم من منعها بذكر الآيات اللازمة لذلك والأحاديث ، فإن فى ذلك أثر عظيم فى نفوس سامعيه .

الخامسة: نهى النفس عن مطاوعة الهوى والشهوة بمنع الفرج عن كل ما لا

يحل ، وقصره على ما أحل الله تعالى له من الحرائر والإماء بعقد النكاح ، ففى ذلك الغنم والسلامة قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ ، فهؤلاء الذين غلبت عقولهم على شهواتهم وهى داعية لهم إلى ما لا يخفى فصانوا فروجهم ، وغضوا أبصارهم ، فلم يرسلوها على أحد إلا على الحلائل وبذلك بلغو كمال العفة ، أما من أرضى شهوته ولم يحصن فرجه ورضى لنفسه أن يكون حيوانا يقضى شهوته مع أنثاه من غير قيد أو شرط ، فذلك الجانى على حرمة الآداب المنتهك للحرمات ، وفى هذا المقام ينفر الواعظ الناس من الزنا والاستمناء باليد ، ويحذرهم من النظر إلى النساء المحرمات عليهم ، بل ومن إتيان الحلائل حال الحيض والنفاس مبينا ما فى ذلك كله من الأضرار الدينية والبدنية والمالية والاجتماعية من فقد الحياء ، وذلك غير الأمراض مثل الزهرى والسيلان والتهاب المثانة وضياع الأموال وفساد الأخلاق .

السادسة: رعاية الأمانة والعهود وحفظها ، فتلك فضيلة عظيمة جليلة وآية على شرف النفس وعلو الهمة قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ ، أى قائمون عليها حافظون لها وهنا يبين الواعظ للناس أن الأمانة تتناول كل ما يكون تركه خيانة لله أو للعبيد ، فمن ذلك سائر العبادات ، فإن العبد مؤتمن عليها ، ومنها ما يلتزمه بفعل أو قول كالودائع والعقود وما يتصل بهما ، ومنها أيضا الأسرار المأمور بكتمانها فيلزمه المحافظة عليها ، كما يبين لهم أن العهد يتناول العقود والأيمان والنذور ، وأن مراعاة هذه الأمور والقيام بها لابد منه لحصول الفلاح ودرك السعادة ، ويرغب الناس فى الأمانة والوفاء ويحذرهم من الخيانة والغش فى الصنائع والمعاملات بما يحضره من الآيات ، الأحاديث مع ضرب أمثال لما يقول .

السابعة: المحافظة على الصلاة بالمواظبة على الصلوات الخمس فى أوقاتها على الوجه الأكمل ، وتلك فضيلة مستقلة كما أن الخشوع فضيلة أخرى قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ وفى هذا المقام يحض الواعظ الناس على المحافظة على الصلاة فى الأوقات وشهود الجماعات وإتمام أركانها وشروطها ، فبذلك تتهذب النفس ويصفو القلب ويمتلئ حياء وخشية ومن هنا يرغب السامعين بأن الذين توفرت فيهم تلك الصفات السبع موعودون من الله تعالى بدار النعيم وأنهم المستحقون لها بأعمالهم قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

الدرس الثالث: النهى عن الانشغال بالدنيا:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المنافقون:) ، لابد أن نعرف ونتيقن أن الدنيا نعيمها ابتلاء وحياتها عناء ، وعيشتها نكد ، ونرى أهلها منها على وجل ، إما بنعمة زائلة أوبلية نازلة ، أو منية قاضية ومن استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن أحبها أذلته ، ومن أبصر إليها أعمته ، والدنيا الناس فيها على نوعين: الأول: فطن على أن الدنيا ظل زائل ونعيم حائل ، وأضغاث أحلام كما وصفها العلماء بل عرفوا أنها نعم فى طيها نقم ، كما عرفوا أن هذه الحياة الفانية إنما هى طريق إلى الحياة الباقية ، فرضوا منها باليسير وقنعوا فيها بالقليل ، فاستراحت قلوبهم وأبدانهم ، وكانوا عند الله هم المحمودين لم تشغلهم دنياهم عن طاعة مولاهم .

والنوع الثانى: أناس عمى البصائر لم ينظروا فى أمرها ، ولم ينكشفوا سوء حالها ، برزت لهم بزينتها ففتنتهم ، ورضوا بذلك فألهتهم عن طاعة الله وشغلتهم عن ذكره تعالى ، ومن نسى الله فقد هلك فى الدنيا والآخرة ، روى الترمذى من حديث أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه ، وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له ، فلا يمس إلا فقيرا ، ولا يصبح إلا فقيرا ، أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه بالود والرحمة وكان الله بكل خير إليه أسرع**» .

ويفيض الواعظ فى كلامه عن حقيقة الدنيا ويبين للسامعين قصر مدتها ، وانقضاء لذتها بما يحضره من أمثال حسية ومواقف من مواقف السلف الصالح ، ومن حياة الصالحين مع ذكر ما جاء فى الكتاب والسنة فى وصف الدنيا والتحذير من الافتتان بها كقوله تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا

وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ . (سورة الحديد) .

فنرى فى هذه الآية حال الدنيا الذى افتتن بها محبيها قصار النظر ، فبين الله فى هذه الآية أن الدنيا لعب ولهو لا ثمرة فيها سوى التعب ، فهى تشغل صاحبها عما ينفعه فى آخرته وزينة لا تفيد المفتون بها شرفا ذاتيا ، كالملابس الجميلة والمنازل الرفيعة ، ثم أشار الله تعالى إلى أنها مع هذه النعم والملذات التى فيها إلا أنها سريعة الزوال قريبة الاضمحلال ، كمثل مطر راق الزرع نباته الناشئ به ، ثم يهيج ويتحرك وينمو إلى أقصى ما قدر الله له ، فسرعان ما تراه مصفرا متغيرا ذا بلا بعد ما كان أخضر ناضرا ، ثم يصير من اليبيس هشيما متكسرا ، وبعد ما بين الله سبحانه وتعالى حقارة الدنيا وسرعة زوالها تزهيدا فيها وتنفيرا من الانهماك فى طلبها ، أشار إلى فخامة شأن الآخرة وفظاعة ما فيها من الآلام وعظم ما فيها من اللذات ترهيبا من عذابها وترغيبا فى تحصيل نعيمها ؛ حيث قال: ﴿ **وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ** ﴾ وذلك لمن عصاه ونتيجة لانهماكه فى نعم الدنيا .

وفى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: «**أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبى فقال: كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**» .

وعن رسول الله ﷺ أنه مر على شاة ميتة فقال: «**أترون هذه الشاة هينة على أهلها ؟**» قالوا: من هوانها ألقوها قال: «**والذى نفسى بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء**» (أخرجه الترمذى) .

لهذا حذر الله عز وجل عباده المؤمنين فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ .

أى لا يشغلكم الاهتمام بتدبير أمورها وبمصالحها عن الاشتغال بذكر الله سبحانه وتعالى من صلاة وصوم وزكاة وسائر أعمال العبادات الموصلة إلى رضا الله ورسوله ﷺ ، وإلى هناءة الدنيا وسعادة الآخرة . وعن عبد الله بن الشخير رضى الله عنه أنه قال: أتيت النبى ﷺ وهو يقرأ: «**ألهاكم التكاثر**» ، أى السورة قال النبى بعد إتمامها: «**يقول ابن**

آدم مالى مالى وهل لك يا بن آدم من دنياك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت» (رواه مسلم والترمذى وقال: حسن صحيح).

والمعنى أن ابن آدم ماله من الدنيا إلا ما انتفع به فى دنياه من الأكل واللبس أو فى أخراه بأن تصدق ، وما بقى من ذلك من مال فهو فيه بمنزلة الخادم الخازن لغيره ، وفيه تحريض على الاقتصار على ما تدعو إليه ضرورة الحياة وإدخار ما عداه عند مولاه ، فاجعل ما عندك ذخيرة لك عند الله واجعل الله ذخيرة لأولادك .

ثم يختم الواعظ مقاله بذكر الآيات الدالة على تحقير الدنيا وتعظيم الآخرة ، مع ذكر ما يناسب هذا المقام كأن يقول: قال سعيد بن جبير: الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة ، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله فنعم المتاع ونعم الوسيلة ، وكأن يقول أيضا: قال لقمان لابنه: يا بنى إنك قد استدبرت الدنيا من يوم نزلتها واستقبلت الآخرة ، فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تتباعد عنها ، وقال: يا بنى إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير فلتكن سفينتك فيها تقوى الله عز وجل ، وحشوها الإيمان بالله تعالى ، وشراعها التوكل على الله عز وجل لعلك تنجو وما أراك ناجيا وعيسى عليه السلام لم يضع لبنة على لبنة .

الدرس الرابع: القرآن يهدى إلى الخير:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ (الإسراء) فالقرآن الكريم النور الذى يهدى المؤمنين إلى الطريق المستقيم وإلى طاعة الله وإلى خير الدنيا والآخرة وسعادة الدنيا والآخرة ، وهذا القرآن والنور الإلهى الذى نزل على رسوله الكريم صلوات الله عليه اتضح به للناس سلوك المنهج القويم والصراط المستقيم بما أرشد إليه من صحيح العقائد ، وما فصل فيه من الأحكام وبين من أخلاق وآداب ، واتسع للعقول طريق الاعتبار بما فيه من القصص والأخبار فهو الضياء والنور وشفاء لما فى الصدور .

من أعرض عنه هلك ومن طلب العلم فى غيره ضل فهو حبل الله المتين ونوره المبين ، من آمن به سبق ومن قال به صدق ومن عمل به نجا ، ومن تمسك به فقد هدى

إلى صراط مستقيم ، والقرآن هو أساس الإسلام الذى ارتضاه الله عز وجل دينا لعباده ، يرشد الناس إلى سعادتهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ذلك هو المقصد الأسمى منه وأن فيه من تهذيب النفوس ودعوة الأرواح إلى ما فيه سعادتها وإخراجها من ظلمات الجهالة إلى نور العرفان .

وهنا يبين الواعظ للسامعين أنه ينبغى لكل إنسان لا فرق بين عالم وجاهل أن يتدبر آيات القرآن الكريم وينظر فى معانيها بقدر طاقته ، ومن الممكن أن يستفيد كل أحد من القرآن ما يجذب نفسه إلى الخير ويصرفها عن الشر فإن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن لهداية الخلق ، وهو يعلم كل ما هم عليه من الضعف قال تعالى: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ (سورة ص: ٢٨) .

وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ** ﴾ (سورة القمر: ٢٢) ، وكان البدوى راعى الغنم إذا سمع القرآن خر له ساجدا لما فيه من حلاوة ، ولما عليه من طلاوة ، وهل خضعت العرب للحق إلا بجاذبية القرآن . وروى ابن ماجة عن على كرم الله وجهه ورضى الله عنه أنه قال: أمر الله نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب فخرج وأنا معه ، وأبو بكر فوقفنا على مجلس عليهم الوقار فقال أبو بكر: ممن القوم ؟ . فقالوا: من شيبان بن ثعلبة فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الشهادتين وإلى أن ينصروه فإن قريشاً كذبوه فقال مقرون بن عمرو إلام تدعونا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ **إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ** ﴾ (سورة النحل: ٩٠) . فقال مقرون بن عمرو دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك .

والقرآن الكريم أنزله الله عز وجل لمقاصد خمس:

المقصد الأول: التوحيد هو أهم ما جاء لأجله الدين الحنيف فإن الناس يومئذ كانوا فى ظلمات الشرك والوثنية ، وجاء فى القرآن من آيات التوحيد الكثير ويتلو الواعظ على السامعين شيئا من تلك الآيات التى قضت على الوثنية التى كانت فاشية فى تلك الأمم قبل الإسلام وفى بدء الإسلام كقوله تعالى: ﴿ **أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ**

بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ ﴾ (سورة الأعراف: ١٩١ - ١٩٥).

وكقوله تعالى: ﴿ اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد: ٢ - ٤).

المقصد الثانى: وعد الله تعالى الطائعين له والحافظين لحدوده بجميل الجزاء وتبشيرهم بحسن المثوبة ووعيد المخالفين الذين تعدوا حدود الله تعالى وإنذارهم بشديد العذاب وسوء العاقبة ترغيبا وترهيبا والوعد والوعيد يكونان فى الدنيا والآخرة ، فقد وعد الله عز وجل أهل الاستقامة بالاستخلاف فى الأرض والعزة والسيادة والحياة الطيبة ، وأوعد المخالفين بالخزى والذل فى الدنيا كما وعد بالنعيم المقيم وأوعد بنار الجحيم فى الآخرة وبالأول ساق الطائعين إلى الجد فى الطاعة وبالثانى أوقف العصاة عند حد الأدب وهذا ما يوضحه الواعظ مع ذكر آيات الوعد والوعيد حتى يؤثر فى نفوس سامعيه ويتأكد من وصول ما يريد من العظة إلى قلوبهم .

المقصد الثالث: عبادة الله التى تجلو القلوب وتهذب النفوس ويحث الواعظ فى هذا المقام السامعين على عبادة الله وحب عبادة الله ولزوم طاعته ، ويتلوا عليهم بعض الآيات على ذلك كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ (سورة الحج: ٧٧) ﴿وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ (آل عمران: ٩٧) ، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ (البينة: ٥).

المقصد الرابع: الأخلاق الحميدة وحسن المعاملة مع الله والناس وكيفية السير فيها وكل ما يكفل صلاح المجتمع الإنسانى ويوصل الناس إلى خير الدنيا والآخرة من عقائد وأحكام وآداب ويتلو الواعظ عليهم الآيات اللازمة لذلك .

المقصد الخامس: العظة والاعتبار والنظر فى الشئون العامة التى كانت عليها الأمم الماضية لاختيار سبل المحسنين ومعرفة سنن الله فى خلقه ، بقصص من وقف عند حدود الله تعالى وخضع لأحكام دينه وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه وراء ظهورهم .

وأما التوحيد ففى قوله عز وجل: ﴿ الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، فالله هو مصدر كل نعمة وإحسان فله الحمد والثناء على هذه النعم .

وأما الوعد والوعيد ففى قوله: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ فإن معنى الدين الجزاء وهو إما ثواب للمحسن وإما عقاب للمذنب .

وأما العبادة مع الإخلاص لله تعالى ففى قوله عز وجل: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

وأما مكارم الأخلاق وحسن المعاملة ونظام الاجتماع ففى قوله تعالى: ﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ ﴾ فإنه السبيل القويم الذى اختاره الله عز وجل لعباده ، وجعل السعادة فى الاستقامة عليه والشقاء فى الانحراف عنه .

وأما العظة والاعتبار بالأمم السالفة ففى قوله تعالى: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ ، والمعنى أن هناك أقواما فى السلف أنزل الله عليهم شرائع لهدايتهم ففريق أطاع الله ورسله ففازوا برضاه ، وهم المخلصون من أهل الحق الذين جمعوا بين معرفة الحق لذاته ومعرفة الخير لأجل العمل به ، وفريق جحد وعاند الدعاة إلى الله تعالى فاستحقوا غضب الله عليهم ومقته والخزى فى الحياة الدنيا وفريق أخلوا بالاعتقادات الصحيحة وضلوا عن الصراط السوى فباؤا بالفشل والخيبة ، والقرآن الكريم فقد فصل لنا من أخبار الأمم هذا الإجمال على الوجه الذى يكفى للعبرة والاتعاظ ، فشرح لنا حال الذين حافظوا على الحق وصبروا على ما أصابهم فى سبيله ، وحال الذين قاوموا الحق عنادا وحال الذين ضلوا فيه ضلالا بعيدا ، والفاتحة قد اشتملت إجمالا على هذه المقاصد التى فصلها القرآن تفصيلا لا خفاء معه ؛ ولذا سميت الفاتحة بأم الكتاب ، ويختم الواعظ قوله ببيان فضل القرآن مستشهدا بما ورد فى ذلك من السنة النبوية الشريفة .

* * * * * * * *

نماذج من مواعظ العلماء والصالحين

وهنا نذكر لك بعون الله تعالى بعض من المواعظ الجامعة لكثير من شعب الإيمان ووجوه البر والمعاملات ، وشيئا مما يتعلق بجملة الخلائق وخاصة الإنسان حتى تعرف منزلته من بينها ، وما قدر له من العيش الرغد والحياة الطيبة بقيامه بوظائف العبودية ونزعه لكسب الفضائل ، وخصائص الإنسانية ليكون لك نبراسا تستضىء به ، ومثالا حيا تنسج على منواله فى عملك وطريقة أسلوبك :

الموعظة الأولى فى الحث على الكسب الحلال :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لأن يغدو أحكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه ويستغنى به عن الناس خير له أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه**» (الصحيحين) اعلم أن الله تبارك وتعالى رب الأرباب وخالق الأسباب جعل الآخرة دار العقاب والثواب ، والدنيا دار التشمر والاكتساب ، وليس التشمر والاجتهاد مقصورا على المعاد دون المعاش . بل المعاش ذريعة إلى المعاد ومعين عليه ، فالدنيا مزرعة الآخرة ومدرجة إليها فقال تعالى: ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ والناس ثلاث أنماط : نمط شغله معاشه عن معاده فهو من المفرطين الهالكين ، ونمط شغله معاده عن معاشه فهو من الغالين المكروهين ، ونمط الذى شغله معاشه لمعاده فهو من المقتصدين المقبولين وقال رسول الله ﷺ : «**من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى**» (رواه أحمد وغيره) .

أى لأن الانهماك فيها يشغله عن طاعة الله فيخسر الآخرة ، والانقطاع للآخرة يمنعه عن الكسب فيصير حملا ثقيلا على كاهل الأمة ومن يعوله إن كان له ، قال الحكماء: خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ولا دنياه لأخرته ، ولم يكن كلا على الناس .

وقال الله تعالى: ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (الجمعة : ١٠) .

وقال عز وجل: ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا** ﴾ (النبأ : ١٠ ، ١١) .

أى وقتا يلزم السعى فيه لتحصيل المعاش من طريقه الحلال وقال تعالى: ﴿ **فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾ (الملك: ١٥) أى سيروا فى الأرض وجوانبها وطرقها بحثا عن الرزق والسعى له وقال أيضا: ﴿ **وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ** ﴾ (المزمل: ٢٠).

أى يسافرون فى الأرض هنا وهناك لطلب ما قدر لهم من الأرزاق والأرباح فى تجارتهم وعملهم وجاء فى قول بعض السلف: إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلا الهم فى طلب المعيشة، وذلك إذا كان العبد صابرا محسنا فإن الحسنات يذهبن السيئات لاسيما إذا كان يسعى على ذرية ضعافا يصونهم عن الضياع ويكفهم عن التطلع إلى ما فى يد الناس، فهو لاشك فى سبيل الله تعالى، وكذلك إن كان يسعى على أبوين له ضعيفين.

روى أن عيسى عليه السلام رأى رجلا فقال له: «**ما تصنع ؟**» قال: أتعبد قال: «**ومن يعولك ؟**» قال: أخى قال: «**وأين أخوك ؟**» قال: فى مزرعته قال: «**أخوك أعبد منك**»، وقال لقمان لابنه: يا بنى استغنى بالكسب الحلال عن الفقر فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال: رقة فى دينه وضعف فى عقله وذهاب مروءته، أى قلة دينه وضعف عقله عن كثرة الهموم والأفكار وذهاب مروءته فلا دين لمن لا مروءة له، وقال أحد العلماء: إن فى صلاح الأموال سلامة الدين وجمال الوجه، وبقاء العز، وصون العرض.

وكان عمر بن الخطاب يقول: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة، وكان يقول: ما من موضع يأتينى الموت فيه أحب إلى من موطن أتسوق فيه لأهلى أبيع وأشترى وقال أبو سليمان الدارانى: ليست العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يقوت لك ولكن ابدأ برغيفك فاحرزهما ثم تعبد.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتجرون فى البر والبحر ويعملون فى مزارعهم وكفى بهم قدوة، وأنه لابد للعبد من حركة ومباشرة لسبب من أسباب العيش ووسيلة من وسائل الرزق فينفع نفسه وغيره ويعيش عزيزا كريما، ويشرح الواعظ مزايا التعب

فى كسب المال الحلال ، والاستغناء عن الناس وإيصال النفع والخير إلى الغير مع بيان صدقه فى قوله وعمله ، وبيان تحريم سؤال العبد للناس وهو يستطيع العمل ، روى أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عدى رضى الله عنه : أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبى ﷺ يسألانه عن الصدقة فقلب فيهما البصر ورآهما جلدين فقال لهما : إن شئتما أعطيتكما ولاحظ فيها لغنى ولا لقوى ، وما رواه الإمام مالك فى الموطأ من أنه ﷺ قال : «**أعطوا السائل ولو جاء على فرس**» ، ففيه مقال وعلى فرض صحته فهو محمول على تحقق عجزه وحاجته فالواجب التفرس فى حال السائل كما يرشد إليه حديث عبد الله بن عدى .

وروى أبو داود من حديث سهل بن الحنظلية أن رسول الله ﷺ قال : «**من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم**» قالوا : يا رسول الله وما يغنيه ، قال : «**ما يغديه ويعشيه**» وروى أن عمر رضى الله عنه سمع سائلا يسأل بعد المغرب فقال لرجل من قومه : عش الرجل فعشاه ،ثم سمعه ثانيا يسأل فقال : ألم أقل لك عشى الرجل ؟ قال : قد عشيته .

فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاه مملوءة خبزا فقال لست سائلا لكنك تاجر ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدى إبل الصدقة وضربه بالدرة وقال : لا تعد ولولا أن سؤاله كان حراما ما ضربه ولا أخذ مخلاته .

كما يبين الواعظ للسامعين أن أفضل أنواع الكسب ما كان من عمل يده ؛ إذا نصح وعمل بإتقان وإحسان ولا يغش فى عمله أمينا فى مهنته وصنعته ، فبذلك يحصل الخير والبركة وإن كان عكس ذلك فيحل عليه الشر والوبال وضيق الحال . فعن المقدام بن مُعد يكرب الكندى قال . قال رسول الله ﷺ : «**ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده فى الدروع من الحديد ويبيعه لقومه**» (البخارى) .

ويبين لهم مضار البطالة وأن الرجل بدون عمل ومن غير شغل أو اشتغاله بمالا يعنيه ، فذلك من سفه الرأى وسخافة العقل واستيلاء الغفلة وجهل بآداب الدين الحنيف وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : مكسبة فى دناءة خير من سؤال الناس .

فإن العمل الحلال بالصدق والأمانة مهما كان شأنه صغيرا أو كبيرا فهو خير من سؤال الناس ، وقال بعض الحكماء: لا تدع الحيلة فى التماس الرزق بكل مكان فالكريم محتال والدنىء عيال ، حمل على من يعوله ، ولا يليق بالرجل القادر أن يرضى لنفسه أن يكون حملا على كاهل المجتمع يتكفف الناسي ، فهذا أمر ممقوت محتقر وخير منه أحقر أنواع السعى كالاحتطاب من رؤوس الجبال والفلوات فيبيعه ويمون نفسه وعياله منه .

ويبين الواعظ لسامعيه أن شر أنواع الكسل التعلل بالأمانى الكاذبة ، والترفع عن صغير الأعمال النافعة طمعا فى نيل ما هو أشرف منها فى اعتبار بعض الأوهام فتضيع على المرء أوقاته ويمر عمره ويزداد قعوده وتخور عزيمته ، وينتهى به الأمر إلى الحمق والرذيلة . وروى أن قس بن ساعدة الإيادى كان يفد على قيصر الروم ويزوره فقال له القيصر يوما: ما أفضل العقل ؟ قال: معرفة المرء بنفسه قال: فما أفضل العلم ؟ قال: وقوف الرجل عند علمه . قال: فما أفضل المروءة ؟ قال استبقاء الرجل ماء وجهه ، قال: فما أفضل المال ؟ قال: ما قضى به الحقوق .

والخلاصة أن العمل على الحياة أساس العمران وقوام حياة المجتمع وضمان الشرف وأمان من الذلة والمهانة وخير فى الدنيا والآخرة ؛ لهذا حث عليه الدين القويم وحذّر من البطالة والكسل .

الموعظة الثانية فى النفاق:

النفاق مخالفة الظاهر للباطن والمنافق هو الذى يظهر خلاف ما يبطن فقال عنه النبى ﷺ: **«آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان»** (من حديث أبى هريرة ومتفق عليه) .

والمنافق على نوعين: الأول: وهو يظهر الإسلام وهو يخفى الكفر ، وكان هذا حال المنافقين على عهد رسول الله ﷺ وهو أخبث أنواع الكفر وأشدها ، ويسمى هذا المنافق الاعتقادى وفيهم قال الله تعالى **﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾** (النساء: ١٤٥) وقال عز وجل: **﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾** (النساء: ١٤٠) .

وفى القرآن الكريم كثير من مواقف المنافقين ومشاهدهم فى الكفر أما النوع الثانى: هو العملى وهو ترك المحافظة على أمور الدين سرا ومراعاتها علنا ، وهذا يسمى فى لسان الشرع نفاقا ، وجاء من حديث ابن مسعود: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**» (متفق عليه) .

وإنما هو كفر دون كفر وفسوق دون فسوق ، ونفاق دون نفاق ، وتتفاوت مراتبه على قدر تفاوت آثاره فى الاجتماع وخصال المنافق ثلاث وهى:

الخصلة الأولى: الكذب: فإذا حدث غيره بشىء أخبر عنه خلاف ما هو عليه قاصدا الكذب ، ولا ريب أنه من قبائح الذنوب ، وعاقبه السقوط فى الدنيا والخزى فى الآخرة ، فعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺقال: «**إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا**» (متفق عليه) .

وعن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما**» (متفق عليه) .

وقال عائشة رضى الله عنها: «**ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله ﷺ من الكذب ، ولقد كان رسول الله ﷺيطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما تبخلى من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث لله عز وجل منها توبة**» (رواه أحمد وغيره) .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن رسول الله ﷺقال: «**اضمنوا لى ستا أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا إذا ائتمنتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم**» (رواه أحمد وابن حبان وغيرهما) .

وورد أن أعرابيا بايع النبى ﷺعلى تركه خصلة من الخصال المحرمة كالزنا والسرقة فقال النبى ﷺ: «**دع الكذب**» فصار كلما هم بسيئة قال كيف اصنع إن سألنى النبى ﷺ؟ فإن صدقته حدنى وإن كاذبته فقد عاهدنى على ترك الكذب فكان سببا لترك

الفواحش كلها وحسن توبته إلى الله .

الخصلة الثانية: عدم الوفاء بالوعد: فإخلاف الوعد من علامات النفاق ، والإخلاف قد يكون فعلا كما يكون قولا قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ** ﴾ (الصف: ٢ ، ٣) .

وهذا إذا وعد غيره وفى ضميره عدم الوفاء أما إذا كان عازما حال الوعد على الوفاء ثم عرض له مانع أو بدا له رأى فلا يعد ذلك من النفاق إذا كان صادقا فيما يقوله له ثم يوضح الواعظ للسامعين مساوئ ومضار الإخلاف وآثاره السيئة فى الدنيا والدين ويحثهم على الوفاء بنحو حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ «**أن رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فدفعها إليه فخرج فى البحر فلم يجد مركبا فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار فرمى بها فى البحر ، فخرج الرجل الذى كان أسلفه فإذا بالخشبة فأخذها لأهله حطبا فلما نشرها وجد المال**» (الحديث بتمامه رواه البخارى) .

الخصلة الثالثة: الخيانة: وهى التصرف فى الأمانات على خلاف ما يقتضيه الشرع ، وهى أيضا قبيحة شرعا وعقلا ، ومن شر أنواع الخيانة الغدر فى المعاهدات وكل من تحالف مع إنسان ثم غدر كان منافقا قال تعالى: ﴿ **وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ** ﴾ (النحل: ٩١) .

وإفشاء السر من الخيانة فإنه حرام لما فيه من الإيذاء والتهاون بحقوق الناس والأصدقاء ، وهنا يحذر الواعظ سامعيه من الغدر وإفشاء السر ، فإن صاحبه يعاقب فى الدنيا قبل الآخرة ويحث الناس على التخلق بالصدق والوفاء والأمانة بنحو قول الإمام على كرم الله وجهه: إن ملاك العقل ومكارم الأخلاق صون العرض ، وأداء الفرض والوفاء بالعهد ، والإنجاز بالوعد ، ومن حاول أمرا بالمعصية كان أقرب إلى ما يخافه وأبعد مما يرجو ، وفى نهاية حديثه مع الناس يحذرهم من التساهل فى أمر هذه الخصال فتصبح لهم عادة خشية أن تفضى بهم إلى نفاق الكفر والعياذ بالله ؛ إذ كل من غلبت عليه وتهاون بها واستخف بأمرها كان فاسد الاعتقاد غالبا ، أما من وقعت منه نادرا من غير اختيار أو اعتياد فلا ، متى تاب عنها وحسنت توبته ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ**

التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

الموعظة الثالثة فى الحسد وآثاره فى المجتمع:

جاء الدين القويم بالأوامر والنواهى ووعد القائمين عليها والحافظين لها بحسن الثواب ، وتوعد المخالفين لها بالعقاب والعذاب فى الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل ٩٧).

وقال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور: ٦٣) ، ولا ريب أنه لا طيب للحياة ولا هناء للعيش إلا إذا سلمت القلوب من الأذى ، وبرئت من الأمراض التى تفسد النفس وتفسد المجتمع كالكبر والحقد والحسد ، أما بالنسبة للحسد فلا يجتمع فى قلب المرء إيمان صحيح وحسد لنعمة على مخلوق إلا كما يجتمع الصبر مع العسل ، والحسد هو كراهة نعمة الغير وتمنى زوالها عنه سواء تمنى أن تنتقل هذه النعمة إليه أم لا ، قال معاوية رضى الله عنه: كل أحد أقدر على رضاه إلا حاسد النعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها ، وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد: غم دائم ونفس متتابع.

والحسد فى عرف العامة عبارة عن نظرة العين إلى الشىء نظرة إعجاب واستحسان ، وقد يكون ذلك عن حسد فى النفس وكراهة للنعمة هذا الحسد المذموم ، وذلك المرض المشئوم هو الداء العضال الذى ابتلى به كثير من الناس اليوم ، فأظلم صدورهم وأفسد ضمائرهم وفرق شملهم ومزق وحدتهم ففشلوا وذهبت ريحهم وتلاشت قوتهم ، حتى ذلوا واستكانوا وطمعت فيهم أعداؤهم وهو أول ذنب عصى الله به لأن إبليس لعنه الله لم يحمله على ترك السجود لأبينا آدم عليه السلام إلا الحسد ، وكذلك قابيل لم يحمله على قتل أخيه هابيل إلا الحسد.

وقد حذر منه رسول الله ﷺ فقد روى أبو داود من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه ﷺ قال: «**إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**» ، والأكل هنا عبارة عن عدم القبول ، وأن حسنات الحاسد مردودة عليه ؛ ذلك أن

الحسد فى المعنى اعتراض على الله عز وجل فيما لا عذر للعبد فيه ؛ لأنه لا تضره نعمة الله علي أخيه ، والله تبارك وتعالى حكيم فى قسمة الحظوظ بين عباده ، ولا يضع الشىء فى غير محله فكأن الحساد يعترض عليه تعالى فى قسمة المعيشة بين خلقه ، فلذلك ردت حسناته ولم تبق فى صحيفة عمله وقال بعض الحكماء: الحاسد جاحد لأنه لا يرضى بقضاء الواحد ، وقال رسول الله ﷺ: «**لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا**» (رواه البخارى ومسلم) وقال أنس رضى الله عنه كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ فقال: «**يطلع عليكم الآن من هذا الفج (الطريق فى الجبل) رجل من أهل الجنة**» ، قال: فطلع رجل من الأنصار تنطف (تقطر) لحيته من وضوئه قد علق نعليه فى يده الشمال ، فلما كان من الغد قال النبى ﷺ مثل ذلك فطلع الرجل ، وقال فى اليوم الثالث فطلع ذلك الرجل فلما قام النبى ﷺ تبعه عمرو بن العاص فقال: إنى لا حيت أبى (خاصمته) فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثا ، فإن أردت أن تؤوينى إليك حتى تمضى الثلاث فعلت فقال: نعم ، فبات عنده ثلاث ليال (يرقب أحواله فى حركاته وسكناته) فلم يره يقوم من الليل شيئا غير أنه إذا تقلب على فراشه ذكر الله تعالى ، ولم يقم حتى يقوم لصلاة الفجر قال: غير أنى سمعته يقول إلا خيرا ، فلما مضت الثلاث وكدت احتقر عمله قلت: يا عبد الله ، لم يكن بينى وبين أبى غضب ولا هجرة ، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا وكذا ، فأردت أنى أعرف عملك فلم أرك تعمل عملا كثيرا يوجب تلك البشارة العظيمة فما الذى بلغ بك ذلك؟ قال: ما هو إلا ما رأيت غير أنى لا أجد على أحد من المسلمين فى نفسى غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله إياه ، قال عبد الله: فقلت: هى التى بلغت بك وهى التى لا نطيق (رواه أحمد بسند صحيح) .

وقال صلوات الله وسلامه عليه: «**إنه سيصيب أمتى داء الأمم**» قالوا: وما داء الأمم؟ قال «**الأشر: والبطر والتكاثر (من جمع المال) والتنافس فى الدنيا والتباغض والتحاسد حتى يكون البغى (أى مجاوزة الحد) والاعتداء على خلق الله ثم يكون الهرج**» ، أى القتل (رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى من حديث أبى هريرة) وفيه تحذير شديد من التشاحن فى الدنيا والتحاسد عليها فإن ذلك أصل الفتن وعنه تنشأ المصائب والبلايا .

الأسباب الداعية إلى الحسد:

والحسد كما قال ﷺ يأكل الحسنات ، والحسد يبعث على الخطايا والبلايا ، والله تبارك وتعالى أمر بالاستعاذة من شر الحاسد ، كما أمر بها من شر الشيطان الرجيم ، وأن الحاسد لا ينال من الناس إلا بغضا وذما ، ومن الملائكة إلا لعنة ، ولا ينال من الدنيا إلا جزعا وغما ، وفى الآخرة فضيحة ونكالا ؛ لذا سنذكر الأسباب التى تؤدى إلى الحسد حتى يتبعد العبد عنها ويطهر نفسه منها حتى لا يقع فى الحسد وشروره وينجى بنفسه منه ، حتى يتجنب كل هذا العقاب الذى يناله الحاسد فى الدنيا والآخرة فنقول:

العداوة والبغضاء: وهى من أهم السباب الداعية إلى الحسد فإن من آذاه إنسان لسبب من الأسباب أبغضه قلبه وغضب عليه ، ورسخ فى نفسه الحقد الذى يقتضى التشفى والانتقام ، فإن عجز عن التشفى بنفشه أحب أن يتشفى منه الزمان ، وربما ظن ذلك كرامة له عند الله تعالى ، فإذا نزلت بعدوه بلية فرح بها وشمت فيه وظنها لأجله ، وإذا أصابته نعمة ساءه ذلك لأنها ضد مراده ورغبته ، وهذا أيضا من النفاق وصفاته كما أوضحنا ، والحسد يسبب البغض وكثيرا ما يفضى إلى التنازع والتقاتل والسعى فى إزالة النعمة بالطرق الخبيثة والحيل القبيحة وهذا هو قمة البغضاء والكره .

خبث النفس: وشحها بالخير للناس فنجد بعض العاطلين من الناس والكسالى عن العمل والكسب إذا وصف عنده حال إنسان وذكر أمامه بخير يشق ذلك عليه ويؤلمه ؛ لأنه محروم من ذلك ورغم أنه هو الذى حرم نفسه من ذلك بعدم الاجتهاد والسعى وراء الكسب الحلال حتى لا ينظر إلى ما فى أيدى الناس ، وإذا وصف له بسوء وشر فرح به فهو أبدا يكره الخير للناس ويتألم منه ويحب لهم الشر والأذى كأنهم يأخذون الخير من بيته وهو من فضل الله وجوده عندهم قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ (النساء: ٥٤) ، ويقول بعض العلماء: البخيل من يبخل بمال نفسه ، والشحيح هو الذى يبخل بمال غيره على الناس ، والحسود شحيح يبخل بنعمة الله تعالى على عباده ويعادى فضل الله على خلقه ، وهذا هو حبس النفس ورذاله الطبع .

وأما المنافسة فليست من الحسد المذموم المحرم ، وإن سميت باسمه فى لسان الشرع بل هى مباحة فى الأمور الدنيوية ، وقد تكون واجبة فى الأمور الدينية فقال تعالى: ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين: ٢٦) أى فى أحوال هؤلاء الأبرار وما صاروا إليه من أنواع النعيم المقيم ، فليرغب الراغبون فى المبادرة إلى طاعة الله عز وجل وأصل التنافس التغالب فى الشىء النفيس الذى تحرص عليه نفوس الناس ويحب كل واحد أن يستأثر به ويضن به على غيره وفى هذه الآية الكريمة إشارة إلى أن التنافس يجب أن يكون فى مثل ذلك النعيم العظيم الدائم لا فى النعيم الحقير الفانى ، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٣ ، ١٣٤) .

فهذه هى المنافسة بالمسارعة إلى طاعة الله وأعمال الخير والتحلى بالأخلاق الحميدة التى تصل بصاحبها إلى رضا الله والفوز بجنته يوم القيامة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وأما الحسد عند العامة الذى هو عبارة عن نظرة العين فهو من الأسباب العادية التى قد يترتب عليها آثارها من إصابة العيون ، على ما صح فى السنة الشريفة روى البخارى من حديث عائشة رضى الله عنها قالت: " أمرنى رسول الله ﷺ(أو أمر) أن نسترقى من العين أى بسببها ، وذلك أن الحسود إذا نظر إلى شىء أو إنسان نظرة إعجاب واستحسان مشوب بحسد فقد يحصل للمنظور عاهة أو ضرر بعادة أجراها الله تعالى ، والحق أن الله تعالى يخلق عند نظر العائن (الحاسد) إليه وإعجابه به إذا شاء ما شاء من عاهة أو ألم أو هلاك ، وقد يصرفه الله عز وجل عنه قبل وقوعه بالرقية المشروعة ففى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺقال: «**العين حق**» أى أن الإصابة بها ثابتة موجودة لا يصح إنكارها ، وعن أم سلمة رضى الله عنها أن النبى ﷺرأى فى بيتها جارية فى وجهها سفعة فقال: «**استرقوا لها فإن بها النظرة**» (رواه البخارى) .

والسفعة هى سواد أو حمرة يعلوه سواد أو صفرة ، ومما ينفع لدفع شر الحاسد أن يقول العبد صباحا ومساء هذا الدعاء: «**أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة**

ومن كل عين لامة» ، كما صح به الحديث ، أو يقول : «**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**» (رواه أصحاب السنن) .

الموعظة الرابعة فى الغضب :

عندما خلق الله جل شأنه الإنسان معرّضاً للفساد والهلاك بأسباب فى داخل بدنه وأسباب خارجية عن بدنه ، أنعم عليه بما يحميه ويصونه من الفساد ويدفع عنه الهلاك ، أما الأسباب الداخلية فهو أنه ركبه من الحرارة والرطوبة ، وجعل بين الحرارة والرطوبة تضاد وعدواة فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة وتبخرها حتى تصير أجزاؤها بخاراً يتصاعد منها ، فلو لم يتصل بالرطوبة مدد من الغذاء يجبر ما انحل وتبخر من أجزائها لهلك .

فخلق الله الغذاء وخلق فيه قوة تبعثه على تناول الغذاء لجبر ما انكسر وسد ما انثلم ليكون ذلك حافظاً له من الهلاك بهذا السبب .

وأما الأسباب الخارجة التى يتعرض لها المرء فكالسيف والسنان وما إلى ذلك من وسائل الهلاك التى يقصد بها ، فأفتقر إلى قوة وحمية تثور من باطنه فتدفع المهلكات عنه ، فخلق الله طبيعة الغضب من النار وعجنه بطينة الإنسان ، فإذا توزع فى غرض من أغراضه وصد عنه اشتعلت نار الغضب فيه ، وفارت فورانا يغلى منه دم القلب وينتشر فى العروق ويرتفع إلى أعلى البدن ، ثم ينصب فى الوجه والعينين حتى يحمرا منه هذا ، إذا غضب على أحد واستشعر القدرة عليه ، فإن كان على من فوقه وأيس من الانتقام منه انقبض الدم إلى جوف القلب عليه ، وكمن فيه وصار حزنا فأصفر اللون ، فإن كان على من يساويه الذى يشك فى القدرة عليه تردد الدم بين انبساط وانقباض فيحمر لونه تارة ويصفر تارة أخرى ، والغضب يتحرك من داخل الجسد إلى خارجه والحزن يتحرك من خارجه إلى داخله ، ولذا يقتل الحزن ولا يقتل الغضب لبروز الغضب وكُمُون الحزن فصار أثر الغضب السطوة والانتقام وأثر الجزن المرض والأسقام وهذه هى حقيقة الغضب ، وقوة الغضب محلها القلب ومنها وبها غليان دم القلب لدفع المؤذيات قبل وقوعها أو الانتقام والتشفى بعد وقوعها .

درجات الغضب وحكمة وجوده فى الإنسان:

للغضب ثلاث درجات الدرجة الأولى: (درجة الاعتدال): بأن الإنسان يغضب ليدافع عن نفسه أو دينه أو عرضه أو ماله ، أو ليدافع عن حقوق ونصرة المظلوم ، وتلك الحالة هى التى من أجلها خلق الغضب فهو مخلوق لحكمة ضرورية اقتضتها طبيعة الحياة وطلبها نظام المجتمع الإنسانى بأن التنافس فى هذه الحياة والتزاحم على مرافقها يستدعى دفاعا قويا عن النفس والدين والمال والعرض والحقوق العامة ، ولولا ذلك لانتشر الفساد فى الأرض ؛ لأن من لا يغضب لنفسه كان معرضا للزوال من هذا الوجود أو معرضا لأن يسخره غيره تسخير الدواب التى لا تغضب لنفسها ، ومن لم يغضب لدينه فإنه يكون عرضة لتقليد القوى فى كل ما يراه ويستحسنه ، فينتقل من دين إلى دين بسبب التقليد الأعمى ومن لا يغضب لعرضه لا يغار على نسائه ، وتختلط الأنساب وتشيع الفاحشة فى طبقات الأمة ، ويصبح الإنسان لماله كالحيوان ينزو ذكره على أنثاه بدون غيرة ولا حمية ، ومن لا يغضب لماله فإنه لا يلبث أن يسلبه الناس منه فيصبح فقيرا معدما ، وإذا فشا السلب فى المال تعطل نظام العمل بل بطلت الأعمال التجارية والصناعية وانتشرت البطالة واعتمد الناس على سلب بعضهم بعضا وذلك شر وبال ، ومن لا يغار للحقوق العامة وإنصاف المظلومين فقد خالف مقتضى الطبيعة التى فطر الله الناس عليها .

وقال فيه الإمام الشافعى رضى الله عنه: من استغضب فلم يغضب فهو حمار . أى بليد الطبع فاقد الحمية ، وفى إشارة لذلك فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ (البقرة: ١٥٢) .

الدرجة الثانية: (درجة التفريط) وهى أن ينحط الغضب عن درجة الاعتدال بأن يضعف الإنسان أو يفقد منه ذهنا ، وتلك الحالة مذمومة شرعا وعقلا ؛ لأن من لا يغضب لنفسه أو لدينه أو لعرضه أو للمصالح العامة فهو جبان لم يجرى على سنن الله فى خلقه ، وفى ذلك خطر عظيم على المجتمع الإنسانى ؛ لأنه مثار الفوضى فى جميع مرافق وجوانب الحياة .

أما الدرجة الثالثة: (درجة الإفراط) وهى أن يخرج الغضب من حد الاعتدال

ويطغى على العقل والدين ، ويندفع في طريق الشر اندفاعا قد يؤدى إلى الهلاك من حيث لا يدرى ، وربما غضبه جره لأجل أمر بسيط إلى ارتكاب أكبر الجرائم وشر الذنوب وهو في تلك الحالة مذموم شرعا وعقلا ، ويزداد ويكبر هذا الذم بكبر ما يترتب على هذا الغضب من جرم وذنب .

أسباب الغضب :

للغضب أسباب عديدة منها الجدل الكثير بشكل يؤدى إلى المشادة والمزاح والسخرية بالناس والكلام الغير اللائق معهم ، فلا يبالى بسب الغير أو غيبته أو النم عليه وما إلى ذلك من آفات اللسان ، ومن أسبابه أيضا الكبرياء والعجب فإن المتكبر المعجب بنفسه يتأثر كلما فاته ما يعتقد أنه يستبقى عظمته ومنزلته في الناس ، فإذا طالبه أحد بحق غضب وكذا إذا نهاه عن رذيلة أو عارضة في أى أمر ، لاعتقاده أنه كامل من جميع الجهات ، فلا يصح لأحد أن يأمره أو ينهاه أو يقف في طريقه وهو في الحقيقة ناقص من كل وجه يحاول أن يكمل نقصه ، بل يجبره بكبريائه ، ومنها مصاحبة الأشرار الذين يحسبون التهور شجاعة والغضب الموجب للظلم رجولة فتتأثر نفسه بذلك وتصبح سرعة الغضب عادة له وشعارا فهذه هي أهم الأسباب التي تثير الغضب وتهيجه ، والغضب المترتب عليها كلها قبيح شرعا ، وعقلا ، بخلاف درجة الاعتدال في الغضب وهو المتعلق بالدفاع عن النفس والدين والمال والعرض ، أو الحقوق العامة وإنصاف المظلومين فإنه فضيلة لا يكون إلا ممن قويت عقولهم واعتدلت طباعهم فأصبحوا خاضعين لسلطان الدين والعقل ، ولقد أثنى الله تعالى على أصحاب رسول الله ﷺ حيث إنه وصفهم بالشدة واللين فقال تعالى: ﴿ **أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ** ﴾ (الفتح : ٢٩) والشدة لا تنبعث إلا عن الحمية والغضب وهم لا يغضبوا إلا لله ولم يدافعوا إلا عن دينهم ووطنهم وكيانهم ، وكفى بهم قدوة ، أما الإفراط في الغضب والأخذ بأسبابه السابقة التي تؤدى إلى الغضب المترتب عليه الظلم للآخرين ، فجاء فيه تنفير من هذا الغضب فقال الله تعالى : ﴿ **إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الفتح : ٢٦) .

فذم الله الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب والتهور بالباطل ومدح المؤمنين بما أنزل الله تعالى عليهم من السكينة والثبات ، وعن أبى هريرة رضى الله

عنه: أن رجلا قال للنبى ﷺ أوصنى قال: «**لا تغضب فردد مرارًا ، لا تغضب**» (رواه البخارى) .

وعن عبد الله بن عمرو: «**أنه سأل رسول الله ﷺ ماذا يبعدنى من غضب الله ؟ قال: لا تغضب**» (أخرجه أحمد فى المسند) .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه قال النبى ﷺ: «**ما تعدون الصرعة فيكم ؟**» قلنا: الذى لا تقرعه الرجال قال: «**ليس ذلك ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب**» (رواه مسلم بلفظ ولكنه) . وقال سليمان ابن داود عليهما السلام: «**إياك يا بنى وكثرة الغضب فإن كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم**» . (رواه ابن أبى الدنيا) وقال جعفر بن محمد: "الغضب مفتاح كل شر" وقال بعض الحكماء: إياك والغضب فإنه يصيرك إلى ذلك الاعتذار .

علاج الغضب:

من كان الغضب له طبعا فعلاجه باجتناب الأسباب المثيرة له كالتكبر والافتخار والتعبير والمزاح والجدل الزائد عن حده ، فإذا برئت نفسه من هذه الأمراض فلا يضره أن يكون سريع الغضب بطبعه ، ويجب عليه أن يروض نفسه دائما على التواضع واللين والحلم ودائما يذكرها بعظمة الله وحده ، وأنه مخلوق ضعيف ويتذكر قوة الله عليه وقدرته وعظمته ، وأنه صائر إلى الفناء لا محالة وسيكون عظاما نخره وترابا تدوسه الأقدام وأرجل الدواب ، فمن كان هذا شأنه فلا يليق به أن يكون متكبرا فخورا قال الإمام على كرم الله وجهه ورضى عنه: مال ابن آدم والفخر وإنما أوله نطفة وآخره جيفة .

أما من كان غضبه مكتسبا فعلاجه اجتناب الأسباب المهيجة للغضب السابقة الذكر مع اجتناب مصاحبة الأشرار ، وأنه يعلم أنه ليس للإنسان المسلم أن يغضب إلا لدينه أو لنفسه أو عرضه أو ماله ، وما دون ذلك فيحترس فى غضبه وهذا هو طريق الوقاية من الوقوع فى ثورة الغضب وهذا هو النبى الكريم صلوات الله وسلامه عليه يقول: «**من كظم غيظا وهو يقدر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق ويخير عن أى الحور شاء**» (رواه أبو داود والترمذى وغيرهما) ؟

وقال لقمان لابنه: يا بنى لا تذهب ماء وجهك بالمسألة ولا تشف غيظك بفضحتك واعرف قدرك تنفعك معيشتك .

ومن أراد تجنب الغضب وثورته يعمل الآتى :

١ - أن يخوف نفسه بعقاب الله فيقول: قدرة الله على أعظم من قدرتى على هذا الإنسان ، فلو نفذت غضبى عليه فما آمن أن يمضى الله غضبه على يوم القيامة ، وأنا أحوج ما أكون إلى العفو .

٢- يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمر العدو لمقابلته والسعى فى إيذائه .

٣- أن يتفكر فى قبح صورته عند الغضب بأن يتمثل صورة غيره فى حالة غضبه ومشابهة الغضبان الثائر للكلب الضارى والسبع العادى ، ومشابهة الحليم الهادى التارك للغضب للأنبياء والعلماء والحكماء ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب أو بالسباع وبين أن يتشبه بالأنبياء والعلماء فى عاداتهم .

إذا شعر بأنه سيغضب يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أمر رسول الله ﷺ أن يقال عند الغضب (متفق عليه) .

فإن لم يزل بذلك فيجلس إن كان قائما ، ويضطجع إن كان جالسا فقال رسول الله ﷺ : «**إن الغضب جمرة توقد فى القلب ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه ، فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئا فإن كان قائما فليجلس وإن كان جالسا فلينم**» (رواه الترمذى) والأوداج عروق العنق فإذا لم يسكن غضبه فليتوضأ أو يغتسل قال عليه الصلاة والسلام: «**إذا غضب أحدكم فليتوضأ**» (رواه أبو داود) .

وبهذا يقى العبد نفسه من الشيطان ومن أنه يسوقه إلى ثورة الغضب ونسأل الله العفو والعافية .

الموعظة الخامسة فى الاستقامة :

وفى الاستقامة وأثرها فى صلاح الفرد والمجتمع قال العلماء: الاستقامة جليلة المعنى من تحلى بها فهو السعيد الموفق ، ومن تخلى عنها فذلك الشقى المخذول ، من عرف بها عظمت بين الناس حرمته وعلت فيهم درجته وحسنت سيرته ووجبت محبته

ودامت بينهم مودته ، والاستقامة فى وضعها ضد الاعوجاج فقال عنها بعض العارفين: هى توبة بلا إصرار ، وعمل بلا فتور وإخلاص بلا التفات ، ويقين بلا تردد وتفويض بلا تدبير ، وهذا هو الحق فيها ، وقال آخر: الاستقامة اتباع الحق والقيام بالعدل ولزوم المنهج القويم ، وقال آخر: الاستقامة كمقام الشكر وهو صرف العبد فى كل ذرة ونفس جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله من عبادة مولاه بما يستطيع على الوجه الأقوم والطريق الأكمل .

وقال ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ **وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ** ﴾ ، ما نزل على رسول الله ﷺ فى جميع القرآن آية كانت أشد ولا أشق عليه من هذه الآية ، فالاستقامة هى المتابعة للطريقة المحمدية فى التخلق بالأخلاق الحميدة المرضية ، لا سير مع الهوى والابتداع ، فإن السير مع الهوى يُعمى عين القلب فلا يميز بين السُنة والبدعة ، ولا يفرق بين الصواب والخطأ أو الخير والشر بل ينكسه ويعكسه فيرى البدعة سُنة والسُنة بدعة والخطأ صواب والصواب خطأ والضلالة هداية والهداية ضلالة ، قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ (القصص: ٥٠) .

والاستقامة لها ثلاث مدارج: الأول التقويم ثم الإقامة ثم الاستقامة ، والتقويم يكون حيث تأديب النفس بإصلاح الجوارح وتعديل أعمالها بميزان الخوف والرجاء حتى تعتاد الخير وتستقيمَ على عمل البر والطاعة أما الإقامة تكون من جهة تهذيب النفس ، وتطهير القلب من الأخلاق السيئة والآفات الذميمة كالحقد والحسد والنفاق والكبر والرياء ، ثم تأتى الاستقامة تكون من حيث تقريب الأسرار الإلهية وأنوارها من القلوب ، وذلك أن تكون أعمال العبد كلها موزونة بميزان الشرع الشريف من غير تكلف تقويم ولا إقامة ، فلأول تمحيص والثانى تحقيق ثم الثالث توفيق .

المستقيم فى الناس يكون مثل الجبل يتحمل الشدائد فلا تؤثر فيه المصائب ولا يحوله عن ثباته صدمة البلايا ، وإذا أساء إليه إنسان يتجاوز عنه ويهمله كأنه لم يكن شىء ، بل يقابل الإساءة بالإحسان ، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا** ﴾ (الفرقان: ٧٢) .

وأنه لا يحوله عن طاعة أوامر مولاه تعالى شىء ولا يشغله عن ذكر ربه الدنيا مهما تزينت له ومن صفاته أيضا صفو الكلام وحسنه فى حديثه مع الصبر على الشدائد ، والثبات عند البلايا والإعراض عن الجاهلية والصفح عمن أساء إليه .

آثار الاستقامة فى صلاح الفرد والمجتمع :

فالرجل المستقيم والذى يتصف بما ذكرنا من الصفات الدالة على تلك الاستقامة إن كان راعيا لاشك أن تكون راعيته صالحة ، وإن كان معلما فلحت تلاميذه ، وإن كان صانعا تقدمت صناعته ، وإن كان تاجراً ربحت تجارته وإن كان زارعاً كثر خير أرضه وبورك له فيه ، وإن كان رب منزل صلحت واستقامت أسرته ومتى استقامت الأسر استقام المجتمع بأجمعه ؛ ولذلك حث الشارع على لزوم الاستقامة فى كل حال فقال سبحانه وتعالى: **﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾** (فصلت: ٣٠) ، فإن الله عز وجل حث على الاستقامة ووعد من يلتزم بها الأمن من كل المخاوف والسلامة من جميع المكاره فى الدنيا وضمن لهم النعيم الدائم فى الآخرة ، ذلك بأنهم جمعوا بين توحيد الله تعالى الذى هو على الحقيقة خلاصة العلم ورأس العلوم ورئيسها ، وبين الاستقامة على أمور الدين كلها من صحيح العقائد وخالص العبادات وحسن المعاملات ومكارم الأخلاق ، التى هى ثمرة الأعمال وأثرها ، وعليها مدار المعاملات وانتظامها لهذا كانوا لا خوف عليهم من أى مكروه ولاهم يحزنون لفوات مطلوب وضياع محبوب وقال تعالى على ما لهم فى الآخرة: **﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾** (الأحقاف: ١٤) ولذلك أيضا حث رسول الله صلى الله عليه الصلاة والسلام على الاستقامة ففى حديث أبى عمر سفيان بن عبد الله رضى الله عنه قال: قلت: يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحد غيرك؟ قال: «**قل آمنت بالله ثم استقم**» (صحيح مسلم) .

الطريق إلى الاستقامة :

إن الحصول على الاستقامة ليس من الأمور الصعبة على من يطلبها بل من السهل القريب ، فإن العبد إذا عود نفسه أن يراقب الله سبحانه وتعالى عند كل عمل يعمله موقنا أن الله تعالى مطلع على جميع أفعاله ، وأن الله ينزل غضبه على من يعصاه

ويخالفه ، إذا عود نفسه ذلك سهل عليه أن يفعل ما أمره الله به ويجتنب ما نهاه الله عنه ، فإذا سولت له نفسه أن يأتى معصية من معاصى الله ردها وزجرها وذكرها بعزة الله تعالى وجلاله ، وأن الله تعالى قادر على الانتقام منه ، وأنه مطلع عليه لا تخفى عليه خافية قال تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (المجادلة: ٧) ، متى لاحظ العبد ذلك وعود نفسه عليه لا يقدم على منكر ولا يقصر فى مطلوب منه فتصير الاستقامة له عادة ينتقل بها من وهدة الشقاء إلى ذروة العز والسعادة ويخرج بها من الظلمات إلى النور .

الموعظة السادسة فى عبرة من أخلاق الرسول ﷺ :

إن فى سيرة النبى الكريم صلوات الله وسلامه عليه وأخلاقه الكريمة ما فيه عظة وذكرى ، فعاش رسول الله ﷺ ثلاثا وستين سنة: قضى منها صلوات الله وسلامه عليه أربعين سنة قبل أن يبعث رسولا ، وقضى الباقيات نبيا ورسولا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، وهذا العمر المبارك لم يبلغ سن المعمرين ولكنه كان أطول الأعمار أثرا باقيا وحركة مباركة ، وأعمار الرجال لا تقاس بعدد السنين وإنما تقاس بما تثمر من جليل الأعمال وحميد الآثار ، وقد كانت حياته ﷺ عامرة بالخير والهدى ، وكان مثالا حسنا للفضائل والكمالات مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ، وقوله صلوات الله وسلامه عليه: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» وقوله: «**أدبنى ربى فأحسن تأديبى**» .

وظهرت على رسول الله ﷺ من أول نشأته آيات الأخلاق الحميدة ، وكان أظهر شمائل الرسول قبل البعثة ثلاث خصال تحلت بها نفسه الكريمة ، وجعلته خير أهل لأن يكون مهبط وحى ربه ، فالخصلة الأولى تباعده ﷺ من أول نشأته عن الأوثان وقرابينها وحفلاتها ، وكل ملاهى السوء التى كانت عليها حياة الجاهلية قال عليه الصلاة والسلام: «**لما نشأت بغضت إلى الأوثان وبغضت إلى الشعر ، وما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء حتى أكرمنى الله برسالته ، قلت ليلة لغلام كان يرعى معى: لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب ، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة سمعت عزفا بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم ، فجلست أنظر**

فضرب على أذنى فما أيقظنى إلا مس الشمس ، فرجعت ولم أقض شيئا ، ثم عرانى مرة أخرى مثل ذلك ، ثم لم أهم بعد ذلك بسوء ، كما بغضت إلى الأوثان وملاهى أهل الجاهلية حبب إلى الخلوة والوحدة والنظر والتفكير» .

أما الخصلة الثانية: صدقه صلوات الله وسلامه عليه فعن ابن عباس رضى الله عنهما أن هرقل ملك الروم سأل عنه أبا سفيان بن حرب قبل أن يسلم أبو سفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال: قال: لا ، قال هرقل: كل ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، ولقى رجل أبا جهل ألد أعداء الرسول فسأله: يا أبا الحكم ، ليس هنا غيرى وغيرك يسمع كلامنا ، فخبرنى عن محمد صادق أم كاذب فقال أبو جهل: والله إن محمدا لصادق وما كذب محمد قط ، وفى هذا يقول الله لرسوله: ﴿ **فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ (الأنعام: ٣٣) فشهد له بالصدق أعداؤه وأحباؤه ، وقال النضر بن الحارث لقريش: قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر والله ما هو بساحر ، فخصلة الصدق فى النبى صلوات الله وسلامه عليه كانت واضحة فى كل كلمة وفعل يقوم به الرسولﷺ ، فشعر بها جميع الناس التى حوله القريب منهم والبعيد والحبيب والعدو الجميع شهد له بأنه هو النبى الصادق الأمين .

أما الخصلة الثالثة: أمانتهﷺ كان الناس قبل البعثة يودعون أماناتهم عنده لأمانته قال ابن إسحاق ما كان بمكة أحد عنده شئ يخاف عليه إلا وضعه عند محمدﷺ لما يعلم من صدقه وأمانته ، واختلف قريش فى الجاهلية عند بناء الكعبة من يضع الحجر الأسود واتفقوا على أن يحكموا بينهم أول داخل عليهم فإذا محمد أول داخل قالوا: هذا محمد هذا الأمين قد رضيناه حكما ، وكانوا لما عرفوا من صدقه وأمانته يتحاكمون إليه فى الجاهلية يفصل فى خصوماتهم ويحسم منازعتهم ويرضون بحكمه وعدله ومن هذا يتجلى أن الصادق الأمين كان من أول نشأته على استعداد خلقى لأن يكرمه الله برسالته وكانت نفسه الطاهرة بما طبعت عليه من الكرم والفضائل أفضل منبت طيب لنمو الفضائل والكمالات ، هذه الخصال الثلاث كانت هى الصفات التى نشأ عليها النبىﷺ منذ بدايته وقبل بعثته .

أما بعد بعثه صلوات الله وسلامه عليه تجلت أخلاقه الكريمة ونفسه الفاضلة فيما احتمله فى سبيل الدعوة من الشدائد والصعاب ، فقام ﷺ فى مكة يدعو إلى عبادة الله وحده وتنكيس الأوثان ، وهو يتيم لا يعتمد فى دعوته على مال أو جاه أو عصبية وهو وحيد يخذ له أدنى الأقربين إليه ، وليس له من دون الله ناصر ولا معين ، وفى طريقه إلى الله ودعوة الناس إليه وضعوا أعدائه أمامه كل عقبة ، وسدوا فى وجه دعوته كل طريق ، وآذوه ومن تبعه بكل أشكال وضروب العذاب والإيذاء وما كان هذا إلا يزيده صلى الله عليه ومسلم ثباتا على إيمانه وتمسكا بدعوته ولا يتسرب اليأس إلى قلبه ولا الفتور إلى عزيمته ، حتى غلب الحق الباطل وأصبحت كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، ونخرج من هذا النجاح والنصر بعد المشقة والتعب بعبرتان .

العبرة الأولى: أنه صلوات الله عليه احتمل فى دعوته إلى الله وإلى الحق كثيرا من الصعاب وصنوفا من الأذى ورغم كل هذه الشدائد وهذا الإيذاء لم يضعف ذلك من عزيمته شىء أو يبسطه عن دعوته وكذلك الداعى إلى الحق يجب أن يوطن نفسه على احتمال المكاره ، ويواصل السير فى طريقه إلى تحقيق هدفه مهما لاقى من شدائد وإيذاء ، ومن صور الصعاب والإيذاء التى واجهها رسول الله ﷺ وهو فى طريقه إلى الدعوة فكان أعداء الله إذا مر عليهم الرسول ﷺ استهزءوا به فكانوا يقولون سخرية منه : هذا بن أبى كبشة يكلم من السماء هذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء ، وكان عمه أبو لهب جارا له ويتعمد رمى القذر على بابه ، فكان رسول الله ﷺ يلقى القذر ويقول يا بنى عبد مناف ، أى جوار هذا ؟ وعقبة بن أبى معيط أخذ من فضلات الإبل وألقاها على رسول الله ﷺ وهو فى صلاته ساجدا ، ولم يقدر أحد من المسلمين أن يرميها عنه حتى جاءت بنته فاطمة فألقت الفضلات من على ظهره ، وبينما كان يصلى فى الكعبة إذ أقبل عقبة بن معيط ووضع ثوبه فى عنقه ، واشتد فى خنقه حتى جاء أبو بكر فدفعه عنه وقال : أتقتلون رجلا يقول ربى الله ؟ ومن كثرة الأذى الذى لقاه النبى الكريم بدأ التفكير فى الفرار بدينه ودعوته ، فهذه الصعاب زادته قوة وثبات ونشر الله دينه على يده ونصره على الكفار ، وهكذا ما قام إلى الحق داع إلا وجد من أنصار الباطل من يخذله ويحاول إطفاء نور الحق الذى يدعو إليه ، ولكن الإيمان القوى واليقين الثابت ينصر دائما الحق على الباطل .

العبرة الثانية: أن الفضل الأكبر فى نجاح النبى ﷺ يرجع إلى أخلاقه وشمائله ، لأنه أقام من صفاته براهين عدة على صدقه وأن ما يدعو إليه حق ، وكان أعداؤه كلما أرادوا به مطعن وجدوا من ماضيه وحاضره وصفاته الكريمة ما ينفى طعنهم ويرد كيدهم حيث كانوا إذا افترى كبير لهم على محمد فرية ردوا عليه هم أنفسهم بما عرفوه من صفاته الحميدة ﷺ، فالعبرة هنا أن حسن الخلق يجعل صاحبه منصورا دائما والتحلى بالأخلاق الحميدة التى كان عليها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قوة تدفع بصاحبها إلى مهابة الناس له واحترامهم ، وذلك مما يساعده فى تحقيق هدفه إلى الحق الذى يدعو إليه .

عبرة من هجرته ﷺ:

لما زادت قريش زيادة بالغة فى محاربة الرسول ﷺ وعرقلة دعوته أصبحت مكة بلدة العذاب فأراد ﷺ أن يولى وجهه إلى بلد آمن غير مكة ، وقوم غير قريش يأمن دعوته بجوارهم ، فأخذ يعرض نفسه على القبائل فى المواسم يكلم كبارهم ويقول: **«لا أكره أحدا منكم على شيء وإنما أن تمنعوا عنى من يؤذينى حتى أبلغ رسالات ربى»** ، وما كان جوابهم له إلا بالرفض وأقبح أنواع الرد ، ولكن الله رؤوف رحيم جعل من العسر يسرا ، فعرض الرسول صلوات الله عليه نفسه على نفر من الخزرج أتوا من يثرب لزيارة البيت الحرام فأسمعهم كلام الله ودعاهم إلى عبادته وحده فاستجابوا دعوته ، واستشارهم فى أن يهاجرو إليهم حتى يفتح طريقا للدعوة ويؤدى رسالة ربه فقالوا: يا رسول الله ، دعنا حتى نرجع إلى عشائرنا ندعوهم إلى ما دعوتنا إليه ، فعسى الله أن يجمعهم عليك ، فإذا اجتمعت كلمتهم عليك واتبعوك فلا أحد أعز منك ، وموعدك الموسم القادم فبايعه فى العام التالى نفر من أهل المدينة ، وخرج من أهله وداره فخرج خفية يسير فى طريق وعر مخوف ليس معه إلا صاحبه أبو بكر ، ينتابه الحزن على فراق وطنه ، والخوف من هؤلاء الأعداء المجدين فى القضاء عليه ، وسرعان ما أن فرج الله كربه ، وشد بالأنصار والمهاجرين أزره وأشرق نور الحق على قلوبهم وفتحت السبل للدعوة مصداقا لقوله تعالى: ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ (التوبة : ٣٢) والعبرة من تلك الهجرة المباركة أن الدعوة إذا كانت للحق وبالحق فإن اضطهادها يكون فى الغالب من وسائل

نشرها وإعلاء شأنها ؛ لأن الداعى ما دام موقنا أنه على الحق لا يرجع عن دعوته ، واضطهاده يحمله على إمعان النظر وتقليب وجهه فى كل جهة ، وهذا قد يوجد لنجاح دعوته أسبابا ووسائل ما كانت تتيسر لولا الشدة فى محاربته والإسراف فى إيذائه وكذلك أن الداعى كالفارس يتخير أطيب الأرض لنمو غرسه وإذا صادفته صخرة ، لا يمنعه ذلك أن يتطلب الأرض الخصبة ؛ لأنه موقن بجودة غرسه وطيب بذره ، وأنه إذا وجد المنبت الطيب نما وأتى أكله كل حين بإذن ربه فالدعوة إلى الحق إذا صادفت قلوبا غلفا وآذانا صما لا يمنع ذلك الداعى أن يتلمس قلوبا غير هذه القلوب والحق لابد أن يظهر والخير لا يعدم نصيرا .

الموعظة السابعة فى مواعظ السلف الصالح:

ونذكر من مواعظ السلف الصالح وأقوالهم المأثورة حتى نساعد الواعظ على جمع الأساليب الجيدة فى الوعظ واختبار ما يتحدث فيه مع سامعيه .

فمن المأثور أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه مر على طائر واقع على شجرة فقال: طوبى لك يا طائر تطير فتقع على الشجرة وتأكل من التمر وليس عليك حساب ولا عقاب يا ليتنى كنت مثلك ، والله لوددت أنى شجرة إلى جنب الطريق فمر على بعير فأخذنى فلأكنى ثم ازدردنى ثم أخرجنى بعرا ولم أك بشرا ، وقدم عليه وفد من أهل اليمن فقرأ عليهم القرآن فبكوا فقال أبو بكر: هكذا كنا حتى قست القلوب ثم قال: طوبى لمن مات فى نأنأة الإسلام (أى فى بدئه حين كان ضعيفا قبل أن تكثر أنصاره والداخلون فيه) ، وقال لخالد بن الوليد حين وجهه لقتال أهل الردة: احرص على الموت توهب لك الحياة وقال: إياكم والعمل بالمعاصى وكفر النعمة ، فقلما كفر قوم بنعمة ولم ينزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم وسلط عليهم عدوهم .

وروى الحسن عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: الناس طالبان طالب يطلب الدنيا فأرفضوها فى نحره ، فإنه ربما أدرك الذى طلب منها فهلك بما أصاب منها ، وربما فاته الذى طلب منها بما فاته منها ، وطالب يطلب الآخرة فإذا رأيتم طالب الآخرة فنافسوه وعنه أيضا قال رضى الله عنه: أيها الناس إنه أتى على حين وأنا أحسب أن من قرأ القرآن إنما يريد الله وما عنده ، ألا وقد خيل إلى أن أقواما يقرؤون القرآن يريدون به ما

عند الناس ، ألا فأريدوا الله بقراءتكم وأريده بأعمالكم ، فإنا كنا نعرفكم إذا الوحى ينزل وإذا النبى ﷺ بين أظهرنا ، فقد رفع الوحى وذهب النبى ﷺ فإنما أعرفكم بما أقول لكم ألا فمن أظهر لنا خيراً ظننا به خيراً ، وأثنينا به عليه ومن أظهر لنا شراً ظننا به شرا وأبغضناه عليه اقدعوا هذه النفوس عن شهواتنا فإنها طلعه وإنكم لا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية . إن هذا الحق ثقيل ومىء وإن الباطل خفيف وبىء ، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة ورب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا (ومعنى اقدعوا أى امنعوا ، ومرىء أى محمود العاقبة ووبىء أى مهلك) وقال ابن عمر : لما حضرت الوفاة عمر غشى عليه فأخذت رأسه فوضعتها فى حجرى فقال :

ضع رأسى على الأرض لعل الله يرحمنى فمسح خديه بالتراب وقال : ويل لعمر إن لم يغفر له فقلت : وهل فخذى والأرض إلا سواء ، يا أبتاه فقال : ضع رأسى بالأرض لا أم لك كما آمرك فإذا قضيت فاسرعوا بى حفرتى ، وإنما هو خير تقدمونى إليه أو شر تضعونه عن رقابكم ، ثم بكى فقيل له : ما يبكيك؟ قال : خبر السماء لا أدرى إلى جنة ينطلق بى أو إلى نار .

وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه يقول : "إنى لأكره أن يأتى على يوم لا أنظر فيه إلى عهد الله (يعنى المصحف) وكان رضى الله عنه حافظا وكان حجره لا يفارقه المصحف فقيل له فى ذلك فقال : إنه مبارك جاء به مبارك .

ودخل على بن أبى طالب كرم الله وجهه المقابر فقال : أما المنازل فقد سكنت وأما الأموال فقد قسمت ، وأما الأزواج فقد نكحت فهذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم ؟ ثم قال : والذى نفسى بيده لو أذن لهم فى الكلام لأخبروا أن خير الزاد التقوى ومن أقواله رضى الله عنه وكرم الله وجهه ولو أن الناس حين تنزل بهم النقم وتزول عنهم فزعوا إلى ربهم بصدق من نياتهم ووله من قلوبهم لرد عليهم كل شارد وأصلح لهم كل فاسد ومعنى الوله أى ذهاب العقل .

ولما ضربه ابن ملجم دخل كرم الله وجهه فنزله فاعترته غشية ثم أفاق ودعا الحسن والحسين رضى الله عنهما فقال : "أوصيكما بتقوى الله والرغبة فى الآخرة ، والزهد فى الدنيا ولا تأسفا على شئ فاتكما منها ، أعملا الخير وكونا للظالم خصما وللمظلوم عونا

ثم دعا محمدا وقال له: اما سمعت ما أوصيت به أخويك ؟ قال: بلى ، قال فإنى أوصيك به وعليك ببر أخويك وتوقيرهما ومعرفة فضلهما ، ولا تقطع أمرا دونهما ثم أقبل عليهما فقال: أوصيكما به خيرا فإنه أخوكما وابن أبيكما وأنتما تعلمان أن أباكما كان يحبه فأحباه ثم قال: يا بنى أوصيكم بتقوى الله فى الغيب والشهادة وكلمة الحق فى الرضا والغضب والقصد فى الغنى والفقر والعدل فى الصديق والعدو والعدل فى النشاط والكسل والرضا عن الله فى الشدة والرخاء: يا بنى ما شر بعده الجنة بشر ولا خير بعده النار بخير ، وكل نعيم دون الجنة حقير وكل بلاء دون النار عافية يا بنى من أبصر عيب نفسه شغل عن غيب غيره ومن رضى بقسم الله لم يحزن على ما فاته ومن سل سيف البغى قتل به ومن حفر لأخيه بئرا وقع فيه ومن هتك حجاب أخيه انكشفت عورات بنيه ، ومن نسى خطيئته استعظم خطيئة غيره ومن أعجب برأيه ضل ، ومن استغنى بعقله ذل ومن تكبر على الناس ذل ، ومن خالط الأنذال احتقر ، ومن جالس العلماء وقر ، ومن يصاحب صاحب السوء لا يسلم ومن يصحب صاحبا صالحا يغنم ، ومن دخل مداخل السوء اتهم ، ومن لا يملك نفسه ندم ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شئ عرف به ، ومن كثر كلامه كثر خطؤه ، ومن كثر خطؤه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه ومن مات قلبه دخل النار: يا بنى الأدب خير ميراث وحسن الخلق خير قرين: يا بنى العافية عشر أجزاء: تسعة منها فى الصمت إلا عند ذكر الله تعالى والواحدة فى ترك مجالسة السفهاء: يا بنى لا شرف أعلى من الإسلام ولا كرم أعلى من التقوى ، ولا معقل أحرز من الورع ولا شفيع أنجح من التوبة لا لباس أجمل من العافية والحرص مفتاح التعب ومطية النصب التدبير قبل العمل يؤمنك من الندم بئس الزاد للمعاد العدوان على العباد فطوبى لمن أخلص لله علمه وعمله وحبه وبغضه وأخذه وتركه وكلامه وصمته وقوله وفعله" .

وقال الحسن البصرى: يا بن آدم ، بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا ، يا ابن آدم إذا رأيت الناس فى الخير فنافسهم فيه وإذا رأيتهم فى الشر فلا تغتبطهم فيه ، الثواء ههنا قليل والبقاء هناك طويل أمتكم آخر الأمم ، وأنتم آخر أمتكم ، وقد أسرع بخياركم فماذا تنتظرون؟ المعاينة فكأن قد ، هيهات هيهات ذهبت الدنيا بحال بالها ، وبقيت الأعمال قلائد فى أعناق بن آدم فيا لها

من موعظة لو وافقت من القلوب حياة أما أنه والله لا أمة بعد أمتكم ولا نبى بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم وإنما ينتظر بأولكم أن يلحقه آخركم ، من رأى محمداً ﷺ فقد رآه غاديا ورائحا لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة رفع له علم فشمر إليه فالوجاء الوحاء والبخاء البحاء علام تعرجون ؟ أتيتم ورب الكعبة ، قد أسرع بخياركم وأنت كل يوم تنظرون ، إن الله تبارك وتعالى بعث محمدا ﷺ على علم منه اختاره لنفسه وبعثه برسالته ، وأنزل عليه كتابه وكان صفوته من خلقه ورسوله إلى عباده ، ثم وضعه من الدنيا موضعا ينظر إليه أهل الأرض وآتاه منها قوتا وبلغة ثم قال: لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، فرغب أقوام عن عيشه وسخطوا ما رضى له ربه فأبعدهم وسحقهم ، يا ابن آدم ، طأ الأرض بقدمك فإنها عن قليل قبرك ، واعلم أنك لم تزل فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك ، رحم الله رجلا نظر فتكفر وتفكر فاعتبر فابصر فصبر فقد أبصر أقوام ولم يصبروا فذهب الجزع بقلوبهم ولم يدركوا ما طلبوا ولم يرجعوا إلى ما فارقوا: يا ابن آدم اذكر قوله تعالى: ﴿ **وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** ﴾ .

عدل والله عليك من جعلك حسيب على نفسك خذوا صفا الدنيا وادرؤا كدرها ، فليس الصفو ما عاد كدرا ، ولا الكدر ما عاد صفوا دعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم ظهر الجفاء وقلت العلماء ، وعفت السنة وشاعت البدعة ، لقد صحبت أقواما ما كانت صحبتهم إلا قرة العين وجلاء الصدور ولقد رأيت أقواما كانوا لحسناتهم أشفق من أن ترد عليهم منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها ، وكانوا فيما أحل الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرم الله عليكم منها ما لا أسمع حسيسا ولا أرى أنيسا ؟ ذهب الناس وبقى النسناس لو تكاشفتم ما تدافنتم تهاديتم الأطباق ولم تتهادوا النصائح قال ابن الخطاب: "رحم الله امرئ أهدى إلينا مساوينا" . أعدوا الجواب فإنكم مسؤلون المؤمن لم يأخذ دينه عن رأيه ولكنه أخذه عن ربه يا ابن آدم الإيمان ليس بالتحلى ولا بالتمنى ولكنه ما وقر فى القلب وصدقة العمل .

وقال أبو الدرداء: كان الناس ورقا لا شوك فيه وهم اليوم شوك لا ورق فيه ودخل يوما على رجل يعوده فقال: كيف تجدك . قال: افرق من الموت قال: فممن

أصبت الخير كله ؟ قال من الله قال: فلم تفرق عن لم تصب الخير كله إلا منه ؟ وكان يقول: أبغض الناس إلى أن أظلمه من لا يستعين على بأحد إلا الله وكان يقول: من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها ولا ينال ما عنده إلا بتركها .

وروى أن الخليفة المنصور العباسى كان شديد الهيبة يخشاه الناس جميعا وأن الأوزاعى دخل عليه يوما فقال له: عظنى فقال: اعلم يا أمير المؤمنين أن الله هو الحق المبين ، ومن كره الحق فقد كره الله يا أمير المؤمنين ، إن الملك لا يدوم لمخلوق ، وإنما الملك لله وحده ، ولو كان يدوم لأحد لما وصل إليك ، يا أمير المؤمنين ، إن رسول الله دعا للقصاص من نفسه فى خدش خدشه أعرابيا وهو غير متعمد فقال لأعرابى: بأبى وأمى قد أحللتك ، وما كنت لأفعل أبدا ، يا أمير المؤمنين ، إن خير الكرم عند الله التقوى ومن طلب العزة بطاعة الله رفعه الله وأعزه ومن طلبها بمعصية الله وضعه وأذله فلما انتهى من عظته أمر له المنصور مال فاعتذر واستخفى من قبوله وقال: يا مولاى ما كنت لأبيع نصيحتى بعرض الدنيا فأحرم ثوابها ، واقلل من نفعها ، وما دام أمير المؤمنين قائما فينا بالعدل فنحن فى خير الله ثم فى خيره .

قال الفضل بن الربيع: حج هارون الرشيد فبينما أنا نائم إذ سمعت قرع الباب فقلت: من هذا ؟ فقال: أجب أمير المؤمنين فخرجت مسرعا فإذا أنه به أمير المؤمنين ، فقلت: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلى أتيتك فقال: ويحك قد حاك فى نفسى شئ لا يخرجه إلا عالم أنظر لى رجلا أسأله فقلت: ها هنا الفضيل من عياض فقال: امضى بنا إليه فأتيناه وإذا هو قائم فى غرفته يتلو آية من الكتاب الله ويرددها فقرعت الباب فقال: من هذا ؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين فقال: مالى ولأمير المؤمنين فقلت سبحان الله أما عليك طاعته ؟ فقال: أو ليس قد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «**ليس للمؤمن أن يذل نفسه**» ثم نزل ففتح الباب ، ثم ارتقى الغرفة فأطفأ السراج ، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف الرشيد كفى إليه: أواه من كف ما ألينها إن نجت من عذاب الله تعالى: قال: فقلت فى نفسى: ليكلمته الليلة بكلام تقى من قلب تقى فقال: جد لنا ما جئنا به يرحمك الله قال: وفيم جئت ؟ حملت على نفسك وجميع من معك حملوا عليك حتى لو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم أن يحملوا عنك شقصا من ذنب ما فعلوا ولكان أشدهم حبا لك أشدهم هربا

منك ثم قال: إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظى ورجاء بن حيوة فقال لهم: إنى قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا على ، فعد الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة فقال سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غدا من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن إفطارك فيها الموت وقال محمد بن كعب: إن اردت النجاة من عذاب الله غدا فليكن كبير المسلمين لك ابا ، وأوسطهم عندك أخا وأصغرهم ولدا فبر أباك وأرحم أخاك وتحنن على ولدك ، وقال له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة من عذاب الله غدا فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكرهه لنفسك ، وإنى لأقول لك هذا وإنى لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام فهل معك يرحمك الله مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا ، فبكى هارون بكاء شديدا حتى غش عليه فقلت: أرفق بأمير المؤمنين فقال: يابن أم الربيع ، قتلته أنت وأصحابك وأرفق به وأنا ، ثم أفاق هارون الرشيد: فقال: زدنى فقال: يا أمير المؤمنين ، إن العباس عم الرسول ﷺ جاءه فقال: يا رسول الله ، أمرنى على إمارة فقال له النبى ﷺ: «**يا عباس عم النبى نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها ، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت أن لا تكون أميرا فافعل**» فبكى هارون بكاء شديدا ثم قال: زدنى يرحمك الله قال: يا حسن الوجه أنت الذى يسألك الله تعالى عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقى هذا الوجه من النار فافعل ، وإياك أن تصبح وتمسى وفى قلبك غش لرعيتك فإن النبى ﷺ قال: «**من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة**» فبكى هارون ثم قال: عليك دين ؟ قال: نعم دين لربى لم يحاسبنى عليه فالويل لى إن سألنى ، والويل لى إن ناقشنى والويل لى إن لم يلهمنى حجتى قال: إنما أعنى دين العباد ، قال: إن ربى لم يأمرنى بهذا وأمرنى أن أصدق وعده وأطيع أمره فقال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** ﴾ (الذاريات: ٥٦) فقال له: هذه ألف دينار فأنفقها على عيالك وتقوى بها على عبادة ربك فقال: سبحان الله ، أنا أدلك على النجاة وتكافئنى بمثل هذا سلمك الله ، ووفقك ، ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده فقال هارون الرشيد: هذا سيد المسلمين اليوم .

* * * * * * * * *

ما يجب أن يراعى فى وضع الخطب المنبرية

لابد للخطب المنبرية أن تلمس مواضع الداء فى المجتمع وخاصة المواضع الدينية فى العبادات المشروعة المفروضة على كل مسلم: وتصحيح الخطأ فى أذهان السامعين فالغرض من الخطابة الدينية دعوة الناس إلى الهدى ودين الحق وإحياء الفضيلة وإماتة الرذيلة وإصلاح فساد القلوب وتطهيرها من الأمراض ، والخطب المجملة لا تفيد الجمهور شيئا ؛ لأنها لم تلمس موضع الداء ولم تهتد إلى الدواء فمثل من يقول: إن المعاصى تزيل النعم ، وإن التعلق بالدنيا مبعد من الله وقد استحق الناس العذاب لظهور الفساد فى البر والبحر ، ولو استقامنا ما انتقمنا ، مال المساجد خربت وبيوت اللهو والفسوق عمرت مال القلوب قست مال العيون لا تبكى ومال النفوس لا تتألم قد انتهكتم الحرمات وتعديتم الحدود وأغضبتم الجبار ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله . وهكذا من مجمل القول .

ويجب على الخطيب الدينى أن يتكلم على الموضوع الخاص ويحلله تحليلا دينيا خلقيا اجتماعيا فيتكلم مثلا على قتل النفس ظلما ، مبينا ما فيه من الأضرار الاجتماعية والمادية كتولد الأحقاد والضغائن ، وبقائها بين الأسر ، وتربص الدوائر من كل منها بالأخرى وانتقال ذلك الشر من الأصول إلى الفروع ، وكالإخلال بالأمن والراحة ، وتوضيح عقاب هذه الجناية الإثيمة وهو الإعدام ، وإتلاف الأموال وضياع الأولاد فضلا عن غضب الله ومقته ذاكرا الآيات والأحاديث الواردة فى التحذير من جناية القتل ، ويقبح جريمة الانتحار مبينا أنه نتيجة للسفه وقلة الإيمان وعدم الثقة بالله وأن المنتحر قد باء بإثمه ولقى الله وهو عليه غضبان تاركا ورائه الخزى والعار وسوء الذكرى ثم يأتى بما يناسب المقام محذرا من هذه البدعة السيئة غاية التحذير .

وكذلك إذا خطب فى كبيرة الزنا فيذكر أضراره البدنية والخلقية ، والمالية والاجتماعية من اختلاط الأنساب وتمزيق الوحدة ، وأن زوج الزانية يضيع ماله على الأجانب ، وأن الزانية والزانى قد هتكا حرمة الزوج واعتديا على حقه الشرعى وهتكا حرمة الأسرة ، وسجلا عليه عارا لا يمحى ويسير على هذا النهج فى كل خطبه الدينية ويخص كل خطبة بموضوع خاص بها ، ويعطى الموضوع حقه فى التوضيح للسامعين مع ذكر الآيات والأحاديث اللازمة لتأكيد كلامه .

ويعلم الخطيب الدينى أن أفضل الخطب الدينية ما كان مطابقا لمقتضى الحال ملائما لما تدعو إليه حاجة السامعين وقد جرت عادة الخطباء بالتزام صورة واحدة فى الخطبة الثانية للجمعة سموها خطبة النعت وتلك عادة غير معروفة عن السلف الصالح فهى محدثة وغير لائقة بهذا الموقف العظيم الأسبوعى بل اللائق به العناية بالخطبة الثانية كالأولى وباب الإرشاد واسع وميدانه فسيح وللناس حاجة إلى الإصلاح من وجوه مختلفة فلا يصعب على الخطيب أن يستحضر للخطبة الثانية كل أسبوع من الآيات والأحاديث أو الآثار أو الحكم البالغة ما يناسب موضوع الخطبة الأولى ولذلك سنختم هذا الكتاب ببعض نماذج الخطب المنبرية لتكون مقياسا للخطباء والواعظين فى طريقتهم وأساليبهم فى دروسهم وخطبهم للسامعين ونسأل الله العفو والعافية وبالله التوفيق :

النموذج الأول :

أحمد اللهم حمد من أخلص النية لوجهك الكريم ، وأشكرك شكر من أطاعك لذاتك ، وابتغاء رضوانك العميم ، وأشهد أن لا إله إلا الله تفرد بالعزة والسلطان ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله بعثه الله رحمة للإنسان صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الأطهار وصحبه الطيبين الأخيار قال الله تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ (النور: ٥٥) .

هذا ما وعد الله الصادق ولن يخلف الله وعده ، أمور ثلاثة أيها المؤمنون هى أسمى ما يتصوره الإنسان جعلها الله جزاء العمل الصالح المنبعث عن الإيمان: استخلاف العاملين فى الأرض وتمكين دينهم الذى ارتضى لهم وتبديلهم بعد الخوف أمناء وطمأنينة والاستخلاف فى الأرض خلافة عن الله فى عمارة الكون وتوزيع العدل والإحسان بين عباده ، وهو يعتمد على القوة وشمول السلطان ونفاذ الكلمة وهو مطلب تتفانى الأمم فى سبيله ، وتضحى بأبنائها وأموالها لابتغاء الوصول إليه ، وما استقامت عقيدة ، لا استقر سلطان ، ولا شعرت أمة بالعزة إلا إذا حمتها القوة وبسطت عليها أجنحتها ، وهذه المثل قائمة وشواهد الماضى حاضرة فى الذهن ماثلة وتمكين الدين والعقيدة نعمة عظيمة ومقصد رفيع يتبعه استقرار النفوس وراحة

الضمائر ، والشعور بالعزة والكرامة ليس أشهى إلى النفس ولا أمتع للقلب ، ولا أهنأ للروح من أن يرى الإنسان أن عقيدته صاحبة السلطان والنفوذ فى النفوس ونفوس الناس أجمعين ، والأمن بعد الخوف أعز مطلب للفرد والجماعة ، وللخوف آثار تفسد العقل وتذهب بالتفكير وتجعل العيش مريرا والحياة مضطربة ، وما أحلى الأمن يستقر بعد الفرق وما أعذبه يتدفق بعد القلق عندئذ يندفع الإنسان نحو العمل صافى القلب متجها إلى الله ملتمسا الخير والنفع للعباد وليس الإيمان أيها المؤمنون تصورات تتخيلها العقول وتجرى عباراتها على اللسان وإنما هو عقيدة تملأ القلب وتتبعها آثارها: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾ (الحجرات: ١٥) ومن آثار العقيدة الدفاع عنها بالنفس والاستهانة فى سبيل نشرها بالمال ، ومن آثارها العمل الصالح وليس العمل الصالح مجرد صلاة تؤدى بالحركات أو صيام يؤدى بالحرمان من اللذات أو ذكر يجرى باللسان ألفاظا ميتة خالية من الخشية والرهبة إنما العمل الصالح ما اشتمل على روح الإسعاد من إخلاص لله ومحبة لخير الفرد والجماعة وأداء للحقوق كاملة لله ولعباد الله: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** ﴾ (البينة) إن أعلى العمل الصالح منزلة عند الله فضائل الأخلاق: من الوفاء بالعهد والصدق فى القول والشجاعة فى الحق والصبر على احتمال المكاره والعدل مع الإفراد بأداء حقوقهم ، وحب السعادة لهم وإرشادهم إلى الخير ومعاونتهم فيه ومن العمل الصالح إطاعة الفرد لما تفرضه الجماعة وما يفرضه الحاكم . مما ليس فيه معصية للخالق ، ومن العمل الصالح للحاكم توفيره الخير للرعية والدأب والسهر على مصالحها وحياتها من الانزلاق فى الشرور والتهاون فى الدين ، وإن قوام العمل الصالح مهما تعددت شعبه ، العدل وهو مطلوب من الحكام ومطلوب من الرعية والعدل هو اتباع السنن الإلهية والأوامر الدينية ، والنواميس الوضعية التى لا تتنافى والدين . إن الأمة الصالحة التى تستحق الخلافة أيها المؤمنون كما يجب أن تقوم على العدل ، يجب أيضا أن تؤدى للأرض حقها من عمران ، وأن تستخرج ما فيها وما حولها من قوى ومنافع لتحقق الإرادة الإلهية من خلف تلك القوى وتسخيرها لمنفعة الإنسان: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**

دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ (إبراهيم: ٣٤) عباد الله: لا تسعد أمة تتفرق أهواءها وتصبح شيعاً وأحزابا ، رائدها الهوى وقائدها المصالح الخاصة لا تسعد أمة لا تعتصم بحبل الله المتين ، ولا تعتبر بسير الذاهبين الأولين لا تسعد أمة تحتكم إلى الشهوات وتتعامى عن الآيات وتدع النذر وتعمى عن العبر ، لا تسعد أمة تنبذ تعاليم الدين وراء ظهورها ، وتزدرى بالأخلاق الفاضلة حبا فى الاستمتاع بالشهوات وما فى الحياة من لذات لا تسعد أمة ينغمس أمراؤها وأغنياؤها فى الترف ويستعذبون الراحة ويأنفون العمل . **﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾** (الإسراء: ١٦) .

أيها المؤمنون نحن بين أمرين إما أن نستضئ بنور العقل ونهتدى بهدى الشرع فنصير فى الدنيا إلى عزة نعلو بها فى أجواز الفضاء ونخترق بها أطباق الأرض ثم فى الآخرة إلى جنة عرضها السموات والأرض إلى مغفرة الله ورضوانه ، وإما أن نعمى عن هدى الله ونغمض عما حل بالأمم السابقة أعيينا ، ونغلى مراجل الشهوات فيما بيننا فتأكل نيران الأحقاد قلوبنا فنصير فى الدنيا إلى ذلة وضعة ، ثم فى الآخرة إلى نار وقودها الناس والحجارة إلى خزى من الله وخذلان: **﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾** (الإسراء: ١٩) .

وقانا الله عذاب النار وسوء المصير وقادنا إلى الخير وحسن العاقبة وهدانا إلى ما يرضيه ويقربنا من عفوه ورحمته روى البخارى عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار**» .

النموذج الثانى:

الحمد لله شرع الدين هداية للمؤمنين ، ووفق من شاء للتمسك به والتحلى بآدابه ، فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم ، وأشهد أن لا إله إلا الله كتب رحمته

للمتقين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله المبعوث رحمة للعالمين اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والحافظين لحدود الله .

أما بعد :

فقد قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** ﴾ [البينة : ٥] .

أيها الناس ، الدين يأمرنا بتوحيد الله تعالى وإخلاص العبادة والخضوع له ، واعتقاد أن واجد الوجود إله واحد قادر مريد عليم حكيم سميع بصير متصف بكل كمال منزه عن كل نقص أبدع الكائنات بقدرته ودبرها بحكمته وعلمه ، فهو الذى يحيى ويميت والذى يعطى ويمنع والذى يضر وينفع ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل ، هذا هو الاعتقاد الحق الذى يخرج النفس من ظلمة الجهل ويرفعها من وهدة الشرك ، ويطهرها من دنس الخرافات والأوهام ، فلا تنحط إلى عبادة جماد أو إنسان أو حيوان ولا تخضع إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الأنعام : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاء بِنَاء وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ والدين بعد ذلك قد فرض على الناس عبادات كلها ذو أثر حسن فى إصلاح القلوب وتهذيب النفوس ، فرض الصلاة خمساً فى اليوم والليلة ، وجعل مفتاحها الطهارة للبدن والثوب والمكان ، فيقف العبد فيها فارغاً من الشواغل موجها قلبه إلى مولاه نظيف الظاهر طاهر الباطن يناجى ربه ويثنى عليه بما هو أهله ، خائفاً من عذابه طامعاً فى رحمته طالباً منه العون والهداية فيؤثر فى نفسه ويعوده مراقبة الله وخشيته ، فيجتنب ما يغضب مولاه ويمتنع عما حرم الله عليه : ﴿ **إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ** ﴾ [العنكبوت : ٤٥] ، وفرض الزكاة فى أموال الأغنياء سداً لحاجة الفقراء وتيسيراً لأبناء السبيل وعوناً على المصالح العامة كذلك تغرس فى المؤمن فضيلة السخاء وتطهر نفسه من رذيلة الشح ، وتخرج الأضغان من قلوب اليائسين وحقدهم على الأغنياء المترفين ، وتملأ قلوبهم بمحبتهم وتمنعهم من الإساءة إليهم وبذلك يسود الأمن ، وبذلك تكون الألفة والإخاء ، قال تعالى : ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

والصيام فُرض ليربى فى الإنسان فضيلة الصدق والوفاء والصبر عند الشدائد وقوة الإرداة وضبط النفس عند هيجان الشهوة والعفة والقناعة والأمانة والعطف على الجائعين ، ويعرفه مقدار النعمة ليشكر مولاه على التفضل بها ﴿ **وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وأما الحج فالناس فيه أشبه بالموتى يفارقون أمولاهم وعيالهم وينتقلون إلى غير ديارهم متجردين عن زينة الحياة الدنيا ليس على الواحد منهم إلا إزار ورداء ، والكل خاضع لعظمة الله تعالى خاشع لجلاله لا فرق بين صغير وكبير غنى وفقير ، هنالك تتطامن النفوس وتعلم أن زخرف الحياة باطل ، وهناك تشعر بالتواضع والمساواة ، وإنه لا يليق الإستعلاء والاستكبار بجاه ولا مال وأن الناس كلهم لآدم وآدم من تراب: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [الحجرات: ١٢].

كذلك الدين حرم ما يفضى الناس إلى الفناء ويوقع بهم العداوة والبغضاء أو يفسد العقل ويحط من كرامة المرء ويذهب بحيائه وماله كالقتل والزنا والقذف وشرب الخمر والمقامرة والربا وأكل مال الناس بالباطل والغيبة والنميمة والخيانة والغدر والضغينة والحسد وكل ما فيه إيذاء للناس ، قال ﷺ: «**كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**» .

أيها الناس ، الاعتصام بالدين يهذب النفس ويطهرها من الرذيلة وسوء الخلق ، ويظهر أثر ذلك فى المعاشرة والمعاملة فمن كان متمسكاً بدينه واقفاً عند حدوده حسنت معاشرته واعتدلت معاملته فيبر والديه وأقاربه ويواسى إخوانه ، ويقوم بحقوق أهله ويهذب أخلاق أولاده لا يؤذى جاراً ولا أحداً فى نفس أو مال أو عرض ولا يكون لعانا ولا سباباً ، والمسلم المتدين لا يغش إذا باع أو اشترى ولا ينقص مكيالاً ولا ميزان ولا يكذب إذا حدث ولا يخلف إذا وعد ولا يخون إذا اؤتمن ، ويقول فى الخطبة الثانية بعد الأركان: أيها الناس ، اعلموا أنه لا ينفعنا فى دنيانا وآخرتنا إلاَّ الاستقامة وصالح العمل مع صدق الإيمان ، قال تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** ﴾ [النحل: ٩٧].

وفى الحديث القدسى عن رب العزة: «**ما أقل حياء من يطمع فى جنتى بغير**

عمل كيف أجود برحمتى على من بخل بطاعتى» فالذين يهملون طاعة الله تعالى اتكالاً على كرمه وسعة رحمته قد لعب الشيطان بعقولهم وعزهم بالله نعم إنه كريم واسع الرحمة ، ولكنه حكيم جعل كرمه ورحمته لمن امتثل الأوامر واجتنب النواهى ، قال تعالى: ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ** ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

النموذج الثالث:

الحمد لله الذى أمر بالإحسان ونهى عن الامتنان الكريم الذى جازى الإحسان بالإحسان ، لا إله إلا هو أرحم الراحمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ذو فضل على العالمين ، وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله إمام المحسنين وملجأ البائسين اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه الرحماء المخلصين أما بعد . .

فقد قال الله تعالى: ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ (القصص: ٧٧) ، أيها الأغنياء ، إذا كان الله تعالى قد تفضل عليكم ورزقكم من الطيبات وأغناكم عن الحاجة ، وصان وجوهكم عن مذلة السؤال فقد وجب عليكم أن تشكروه تعالى على ما منحكم وأولاكم وأعزكم وأغناكم وبذلك يحفظ عليكم نعمتكم ويتفضل عليكم بالمزيد منها والبركة فيها ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ﴾ (إبراهيم: ٧) وليس الشكر قولا بالسان وإنما الشكر امتثال أوامر الله بالطاعة ، والإحسان إلى البؤساء الذين أصابتهم شدة والفقراء المحتاجين من أرباب العيال ومن القسوة أن تمنعوا المعونة وتقبضوا أيديكم شحا وبخلا ، والشدائد تميت البائسين والضيق يقتل إخوانكم المحتاجين أمن الرحمة أن تكونوا فى رغد من العيش ، وسعة من الرزق ومن أضنى عليهم الزمان فى شدة من الضيق وألم من الإعسار أمن المروءة أن تتمتعوا بأصناف الغذاء وأخوكم المسلم يتألم من الجوع فى الصباح والمساء ؟ أمن المروءة أن تتمتعوا بملابس الزينة وإخوانكم فى الإنسانية يحرقهم الصيف ويقرصهم برد الشتاء؟ اللهم إن الغنى الذىلا يحس بأن عليه للبؤساء والفقراء حقوقا وواجبات لقاسى القلب خالى من الشفقة بعيد من رحمة الله ﴿ **إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ ، أيها الناس إن الله عزت وقدرته وجلت حكمته قد وعد من

أنفق شيئا فى سبيل الله أن يخلفه عوضا إما عاجلا وإما آجلا فقال جل شأنه: ﴿ **وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** ﴾ (سبأ: ٣٩) فليس البخل والإمساك بعد هذا الوعد الكريم إلا من ضعف الإيمان أو سوء الظن بالله الغنى الحميد إذا كان الله تعالى قد مدح الأنصار من الصحابة بأنهم كانوا يقدمون المهاجرين على أنفسهم فى كل شئ من أسباب المعاش ولو كانوا هم فى أشد الحاجة حيث قال عز وجل: ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾ (الحشر: ٩) فإن لم تقدموا الغير على أنفسكم فاعطفوا على البائسين والمحتاجين ببعض ما يزيد عن حاجتكم وإن هذا لهين على من عنده أدنى رأفة ورحمة منكم إن هذا لهين يسير على من حفظه الله من رذيلة الشح: ﴿ **وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (الحشر: ٩) أيها الناس صنائع المعروف من علامة الإيمان وعلو الهمة وعنوان الشهمة ، والمروءة وإنها تقى صاحبها مصارع السوء وتحفظه من المحن والبلايا وتجلب رضا الله وإحسانه لا تكلفكم الإنسانية الإحسان إلى اليسير ولا تطالبكم المروءة إلا بالشئ القليل فاصنعوا المعروف فى أهله ما استطعتم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ويقول فى الخطبة الثانية أيها الناس فينا من لا يئن لمتألم ولا يتوجع المستصرخ ولا يحن لبائس فتجردوا من العاطفة الإنسانية وحنان الأخاء الإسلامى وفقدوا الرابطة الدينية وقد قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ ، وقال ﷺ : «**المؤمنون كرجل واحد إذا اشتكى عينه اشتكى كله وإذا اشتكى رأسه اشتكى كله**» (رواه مسلم) . فينا من يقع أمامه الحوادث ما يؤلم القلب ويدمى العيون فلا يتأثر ولا يلين ، بل تجده كالصخرة الصماء: كالحجارة أو أشد قسوة والذى نشاهده من أمثال هؤلاء قساة القلوب غلاظ الأكباد ، دليل واضح على انحطاط نفوسهم وخبث أرواحهم المال مال الله ، والفقراء عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله ، ومالك الملك وخالق الخلق قادر على أن ينزع عن الغنى لباس غناه ويعطى الفقير كل ما يرضيه من متاع الحياة ، فاللهم أصلح أحوالنا وهبنا قلوبا رحيمة يا رحمن . .

تم والحمد لله

* * * * * * * * *

الفهـــــرس

****



المنصورة ت / ٢٢٣٣٨٦٧